آرتورو أوسلار بييتري

الرمـاح المدمّاة

رواية

نقلها عن الإسبانية
وقدّم لها
مروان حداد

منشورات وزارة الثقافة ـ الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٠

العنـوان الأصلي

Las Lanzas Coloradas

Arturo Uslar Pietri

مقدمة

بقلم المترجم

عندما توفي "آرتورو أوسلار بييتري" في ٢٠٠١/٢/٢٦ عن خمسة وتسعين عاماً، قال عنه كاتب بيرو الشهير "ماريو فارغاس يّوسا": "إنه مَنْ فتح الباب، مع روايته الهامة (الرماح المدمّاة) أمام الاعتراف بالرواية الأمريكية اللاتينية في أرجاء العالم كافة".

وكتبت صحيفة ABC، إحدى أهم الصحف التي تصدر في مدريد، في اليوم التالي لوفاته: "الكاتب الفنزويلي آرتورو أوسلار بييتري الحائز على جائزة أمير آستورياس(١) للآداب عام١٩٩٠، الذي توفي في منزله بكاراكاس، هو المفكر الفنزويلي الأكثر أهمية في القرن العشرين".

قلما كُتب عن "أوسلار بييتري" في العالم العربي أو تُرجم شيء من أعماله إلى اللغة العربية، وربما يعود هذا، في جانب منه على الأقل، إلى عدم دخوله "جنة نوبل" . التي رُشِّح لنيلها، مع ذلك، وبقوة، أكثر من مرة .. وربما أيضاً إلى عدم الترويج "الإيديولوجي" له، مثلما يحصل مع كتّاب آخرين ممن قد لا يرتقي بعضهم إلى قامته الأدبية والفكرية.

وُلد "أوسلار بييتري" في ١٩٠٦/٥/١٦ في العاصمة الفنزويلية كاراكاس. وبعد أن أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٢٣ التحق بالجامعة المركزية لدراسة العلوم السياسية، وكان قد بدأ قبل ذلك بعام نشاطه الصحفي، فنشر مقالات في عدد من

---

(١) . تقدم هذه الجائزة الهامة سنوياً باسم ولي عهد إسبانيا ومِنْ قِبَله، الذي يحمل لقب "أمير أستورياس". وتقع منطقة "أستورياس" في شمال غربي إسبانيا. وتمنح الجائزة في العديد من مجالات الأدب والفكر والمعرفة، وقد جاء في حيثيات منحها لـ "أوسلار بييتري" أنه "مبتكر الرواية التاريخية الحديثة الإسبانو . أمريكية".

أبرز الصحف الفنزويلية مثل Nuevo Diario وEl Universal، كما شُغف بصورة مبكرة بعلم الجمال وبقراءة أعمال الرمزيين والمجددين والطليعيين من أمثال "أوخينيو دي كاسترو" و"بايّيه إنكلان" و"ريمي دي غورمون" و"غوميث كارّيّو" و"روبن داريو" و"باربوس" وغيرهم...، وتواصل مع الآداب الأوروبية الطليعية وبخاصة أعمال "فيديريكو غارثيّا لوركا"، ومجلتي La Revista de Occidente و La Gazeta Literaria، وأغنى قراءاته بمتابعة نتاج الواقعيين الروس: أندرييف وغوغول....

نشر بين عامي ١٩٢٥ . ١٩٢٧ نصوصاً أدبية متنوعة: قصائد، قصصاً، مسرحيات، ثم حقق حضوراً لافتاً على الساحة الأدبية عندما نشر بحثاً هاماً حول "الطليعية" في العدد الأول (والوحيد) من مجلة Válvula الذي حمل تاريخ الخامس من شهر كانون الثاني ١٩٢٨، تجلى من خلاله إدراكه العميق لعملية تطور الشعر المعاصر آنئذ في أمريكا اللاتينية، وبخاصة التأثير الفاعل لـ "داريو" و"إيريرا" و"تابلادا" في الأشكال الشعرية الجديدة، وجعل هذا البحث منه الممثل الأكثر حضوراً للطليعية الفنزويلية، وكان مفاجأة لمختلف الحركات الطليعية في بلدان أمريكا اللاتينية. تضمن عدد المجلة المذكور إسهامات لـ "خوسيه أنطونيو راموس سوكره" و"ميغيل أوتيرو سيلفا" وآخرين كثيرين، فضلاً عن بيان ما سُمّي بـ "جيل الـ ٢٨" وهو بيان منسوب إلى "أوسلار بييتري" وحمل عنوان Somos (نحن).

تزامن ظهور الطليعية الفنزويلية عام ١٩٢٨ مع تنامي وتصاعد حركة احتجاج طلابية وشعبية هامة، كانت أولى إرهاصاتها قد بدأت قبل ذلك بنحو عشرة أعوام في إطار ما كان عليه السياق التاريخي لفنزويلا في المجالين السياسي والاقتصادي:

ففي المجال السياسي: كانت السيطرة لمرحلة "الهيمنة الأندية" . نسبة إلى منطقة جبال الأنديس . التي امتدت منذ عام ١٨٩٩ وحتى ١٩٣٥، بدءاً بديكتاتورية Cypriano Castro (١٨٩٩ . ١٩٠٨) ثم ديكتاتورية Juan Vicente Gómez (منذ عام ١٩٠٨ ولحين وفاته عام ١٩٣٥).

أما في المجال الاقتصادي: فكانت فترة ازدهار إنتاج البترول الذي دخل حياة

البلاد ابتداء من عام ١٩٢٠ وحوَّل فنزويلا من بلد زراعي ورعوي إلى سوق للاستيراد والاستهلاك، وتحولت "الأوليغارشية" المسيطرة إلى بورجوازية تابعة، من غير أن توفر الصناعة البترولية الفوائد التي كانت مرجوة للبلاد، أو أن يتحقق حد أدنى من الارتقاء بالشروط الحياتية، وخضع كل شيء لإشراف وهيمنة القوى الاستعمارية الأجنبية.

تبلور "جيل الـ ٢٨" انطلاقاً من بعض الأوساط المدنية التي تحركت في تجمع ثقافي ذي توجه واضح هو "المعارضة المفتوحة" ضد ديكتاتورية "غوميث"، وكان أول نشاط عام له، المشارَكة في "أسبوع الطلبة"، وهو احتفال كان يهدف إلى الحصول على تمويل لصالح مؤسسة "بيت الطلبة"، التي تقوم بمساعدة الطلبة الفتيان القادمين من الأقاليم. إلاّ أن الاحتفال سرعان ما تحول إلى المطالبة بالحريات وإسقاط الديكتاتورية، إذ جرى تنظيم مظاهرات حاشدة في الشوارع، تصدت لها الحكومة واعتقلت عدداً من قادة هذا التحرك المناهض للحكم، من بينهم Romulo Betancurt الذي أصبح فيما بعد من أبرز سياسيي فنزويلا وأنشأ الحزب الوطني الديمقراطي، ثم وصل إلى رئاسة الجمهورية مرتين (١٩٤٥ . ١٩٤٨ و١٩٥٩ . ١٩٦٤) و"بيّوتامايو" و"غييّرمو برينثيه"، وتصاعد هذا التحرك ليتحول إلى موقف جارف ضد "غوميث" مع توحد طلاب وعسكريين وعمال لمجابهة النظام. وعلى الرغم من أن "غوميث" تمكن من السيطرة، بصعوبة، على الموقف، إلا أنه، مع ذلك، لم يتمكن من الحيلولة دون التفكك المضطرد لدعائم حكمه، وبخاصة بعد أن تحالفت قوى المعارضة لتطلق في ذلك العام "الحركة الديمقراطية والشعبية لفنزويلا".

وإلى جانب النشاط النضالي والسياسي، عمل أسبوع الطلبة على إنجاز مشروعٍ للتجديد الثقافي، كانت نقطة التلاقي فيه مجلة Elite التي أسسها "خوان غوروثياغا"، وشارك في فعالياتها عدد من أبرز ممثلي الطليعة مثل "خواكين غابالدون ماركيث" و"فيليبه أنطونيو ماسياني" و"رومولو بيتانكورت" و"ميغيل أوتيرو سيلفا" و"آنخل ميغيل كيريميل" و"بيّو تامايو" و"كارلوس ادواردو فريّاس"، إضافة إلى "أوسلار بييتري". مع الإشارة إلى أن مجموعات أخرى كانت تتحرك على الخط نفسه خارج العاصمة كاراكاس، أبرزها مجموعة Seremos (سنكون) في مدينة ماراكايبو، ثاني كبرى مدن

فنزويلا، كان يديرها "إيكتور كوينكا"، وتميزت بالربط ما بين أغراض التجديد الفني، والواقع الاجتماعي والسياسي للبلاد.

في عام ١٩٢٨ أيضاً صدرت أولى المجموعات القصصية لـ "أوسلار بييتري" (باراباس وقصص أخرى) التي كتبت عنها "كارمن دي مورا"، الناقدة الأدبية الإسبانية المرموقة وأستاذة آداب أمريكا اللاتينية في جامعة إشبيلية بإسبانيا، قبل سنوات قليلة: "هذه المجموعة القصصية وفّرت فضاءً هاماً لظهور الطليعية في فنزويلا، وجددت، بصورة جلية، في أدوات التعبير، مع جرأة في استخدام الاستعارة والمجاز كعنصرين يقطعان العلاقة مع الجماليات المستهلكة".

بعد حصوله على الدوكتوراه في العلوم السياسية عام ١٩٢٩، غادر إلى باريس للعمل في سفارة فنزويلا هناك، وهذا ما أتاح له أن يطور أفكاره في مجال علم الجمال، وأن يعمق اهتمامه في تذوق الفنون التشكيلية، كما قرأ "بريتون" و"إيلوار" و"موروا" و"مورياك" و"مارسيل بروست" و"هنري ميشو" و"فيردينان سيلين"، فضلاً عن "جيمس جويس" الذي كان لعمله البارز Ulysses تأثير هام في قرّاء الطليعة.

ولأن باريس كانت مركزاً للسوريالية، حيث تحلقت حول الشاعر والناقد الفرنسي "آندريه بريتون" أسماء كبيرة في الأدب والفن، من بينها قادمون من إسبانيا وأمريكا اللاتينية: "رامون غوميث دي لاسيرنا" و"لويس بونويل" و"رافائيل آلبرتي"، وغيرهم، لم يفته أن يتردد على المقاهي التي كانت تحفل بلقاءات السورياليين: Le Dôme و La Coupole، وهناك التقى "آراغون"، كما التقى مفكرين أوروبيين آخرين كانوا يمثلون الاتجاهات الأدبية الجديدة مثل "روبير دينو" Desnos و "جان كوكتو" و"جورج بيلمان"، وبخاصة الإيطالي "ماسّيمو بونتيمبيلّي" Bontempelli، أول من استخدم في أوروبا تعبير "الواقعية السحرية" في الأدب، وهو التعبير الذي جاء من مجال الفنون التشكيلية عبر كتاب "الواقعية السحرية، ما بعد التعبيرية" للباحث الألماني "فرانتس رو" Roh.

كما التقى "أوسلار بييتري" هناك شخصيتين أدبيتين هامتين، سرعان ما جمعته بهما صداقة عميقة كان لها دور محفّز ومؤثر في مساره الفكري والجمالي، هما

الغواتيمالي Miguel Ángel Asturias (١٨٩٩ . ١٩٧٤)، صاحب الرواية الشهيرة والهامة (السيد الرئيس)، الحائز على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٦٦، والثاني هو الكوبي Alejandro Carpentier (١٩٠٤ . ١٩٨٠)، الذي هرب من ديكتاتورية "خيراردو ماتشادو"، وجاء إلى أوروبا بجواز سفر فرنسي ساعده في الحصول عليه الشاعر "روبير دينو"؛ ومن بين أعماله الروائية الهامة (مملكة هذا العالم) حول الثورة التاهيتية، و(الخطوات المفقودة). وكان الثلاثة يتبادلون قراءة نصوصهم خلال عملهم، ويتناقشون في مسائل التعبير والمنهج، ويجمعهم الوعي الإبداعي التجديدي نفسه، والمثال الجمالي، والنبل الذي استمر عليه الثلاثة حتى آخر أيامهم، كما كتب كل منهم رواية عن شخصية الديكتاتور في أمريكا اللاتينية، مع تمايز في المواقف فيما بينهم، بين الاتجاه الميال إلى القتال عند "آستورياس"، والنمط الثوري لـ "كاربينتيير"، والموقف الليبرالي لـ "أوسلار بييتري".

خلال العام الثاني من إقامته في باريس (١٩٣٠)، كتب "آرتورو أوسلار بييتري" روايته الأولى، وربما الأكثر أهمية (الرماح المدمّاة)، ونُشرت عام ١٩٣١.

عاد "أوسلار بييتري" إلى فنزويلا في شباط ١٩٣٤. وعلى الرغم من بعض الازدهار الاقتصادي الذي كانت تمر به البلاد بسبب الأرباح المتحققة من النفط، إلا أن التحرك الطلابي ضد نظام "غوميث" كان قد وصل خلال السنوات الأخيرة إلى مرحلة غاية في التوتر، وبخاصة مع إمعان النظام، المدعوم سياسياً وعسكرياً من الولايات المتحدة الأمريكية، في ترسيخ الواقع غير المستقل لاقتصاد فنزويلا. وكان "خوليو آلبيرين دونغي"، الكاتب والسياسي الفنزويلي، يجد في ذلك النظام المثال "النموذجي" للحكم الديكتاتوري في أمريكا اللاتينية:

"لم يكن ينقصه شيء: مراعاة شكلية للشرعية، فقد كان "غوميث" يترك الرئاسة، بصورة دورية، بين أيدي رجال يتم اختيارهم بصورة دقيقة، مع وضعهم تحت مراقبة وثيقة. وشراسة متطرفة مع المعارضين، مع شراسة مماثلة في طريقة المحافظة على النظام والأمن الداخليين. واستعداد دائم لتقديم الخدمات للقوى والاستثمارات

الأجنبية؛ وفساد في القطاع الحكومي؛ وتحكم مطلق بالكونغرس وفق الرغبات الشخصية، واستسهال مستمر لتعديل الدستور بغرض البقاء في السلطة بصورة دائمة".

على أن "غوميث" كان قد تدهور وضعه الصحي، ولم يلبث أن توفي مساء يوم ١٩٣٥/١٢/١٤، (وللمصادفة كان ذلك في نفس اليوم الذي توفي فيه الزعيم السياسي والعسكري الفنزويلي "سيمون بوليفار"، (١٧٨٣-١٨٣٠)، الذي قاد عملية تحرير بلاده ومناطق أخرى في أمريكا اللاتينية من الاستعمار الإسباني، لكن مع فارق مائة وخمس سنوات)، وتولى الجنرال "إلياثار لوبيث كونتريراس" السلطة بصورة مؤقتة، بدعم من اتحاد الطلبة، وأعلن العفو العام، وخرجت الفئات الشعبية، المقموعة خلال سبعة وعشرين عاماً، إلى الشوارع، وعبَّرت الطبقة المتوسطة عن نفسها من خلال أحزاب اليسار، ثم اتسع التحرك الاجتماعي وأيّد مثقفون كثيرون، كانوا قد عانوا من السجن أو النفي، السلطة الجديدة، ونشطت المنظمات الطلابية وعاد القادة الطلابيون في مرحلة عام ١٩٢٨ إلى الظهور: "رومولو بيتانكورت" و"خوبيتو فيّالبا" و"راؤول ليوني"، وعاد التفاؤل، ونشطت المعارك الإيديولوجية التي كانت قد صمتت لسنوات عديدة. لكنْ، وقبل أن يمضي شهر واحد على رحيل "غوميث"، تجدد التضييق على الحريات الدستورية بذريعة منع الاعتداءات على الأشخاص والأملاك والتجارة والصناعة و"النظام الاجتماعي المستقر". وفي ١٩٣٦/٢/١٤ احتشدت مظاهرة احتجاج كبرى في ساحة بوليفار بكاراكاس، تصدت لها قوات الشرطة وسقط قتلى وجرحى، وبعد ظهر اليوم نفسه خرجت مظاهرة أخرى أكبر من الأولى، ضمت أساتذة جامعيين ومثقفين وطلاباً وصحفيين وعمالاً، مشت حتى قصر الحكومة مطالبةً بعودة الحريات الدستورية وبالإيقاف الفوري لأعمال القمع. وبتأثير من الضغط الشعبي، أُعيد العمل بالضمانات الدستورية.

انخرط الكاتب بعد عودته هذه، بصورة نشطة، في الحياة الثقافية للبلاد، وعمل أستاذاً للاقتصاد السياسي في كلية الحقوق بالجامعة المركزية. أما في المجال الأدبي فقد عمل مع رفاق قدامى من المثقفين: "بيدرو سوتيّو" و"خوليان بادرون" والمصور"آلفريدو بولتون"....، وأسس معهم مجلة El Ingenioso Hidalgo (الماهر

الشريف)، عبّر فيها "أوسلار بييتري"، من خلال العديد من المقالات والدراسات، عما أسماه بـ "المعرفة السحرية" كصيغة للاقتراب من الحقيقة، تلائم المجال الأدبي.

حصل عام ١٩٣٥ على الجائزة الأولى في مسابقة أجرتها مجلة Elite عن مجموعة قصصية حملت عنوان (المطر)، وفي العام التالي، ١٩٣٦، صدرت له مجموعة قصصية أخرى بعنوان "الشَرَك".

عام ١٩٣٨ دخل الكاتب مرحلة جديدة من حياته، إذ أصبح وزيراً للتربية، وأظهر مقدرة وفعالية في تحديث الشأن التعليمي، وقام عام ١٩٤٠، لهذه الغاية، بإنجاز واحد من القوانين الأكثر تقدماً، عُرف بـ "قانون أوسلار بييتري". عام ١٩٤٨ نشر كتابه الهام (آداب ورجال فنزويلا)، وروايته (طريق الذهب) التي حاز عنها جائزة Aristides Rojas في فنزويلا. وفي العام التالي، ١٩٤٩، صدرت له مجموعة قصصية جديدة بعنوان (ثلاثون رجلاً وظلالهم)، كما صدر له في تشيلي كتاب ضم مجموعة من المقالات والمحاضرات في الشؤون الأدبية والسياسية والفكرية بعنوان (الغيوم).

عام ١٩٥٠ أشرف على دار للنشر، بالتعاون مع صديقه "كارلوس إدواردو فريّاس"، كما رأس تحرير الصحيفة الأدبية El Nacional. لكن، وكالعادة، طرأ تأزم على المشهد السياسي، وجاءت ديكتاتورية "ماركوس بيريث خيمينيث"، فعادت أجواء الرعب والاعتقالات، مما دفع بالكثيرين إلى مغادرة البلاد، وقلَّص "أوسلار بييتري" نشاطه السياسي، وبدأ منذ عام ١٩٥٢ بتحقيق برنامج تلفزيوني بعنوان (قِيَم إنسانية)، كما مارس النقد والبحث في المجالات الاقتصادية والأدبية والاجتماعية. وفي عام ١٩٥٥ أصبح عضواً في أكاديمية العلوم السياسية والاجتماعية، ثم في أكاديميتي اللغة والتاريخ عام ١٩٥٨.

مع عودة الحريات السياسسة إثر سقوط الديكتاتور، عاد "أوسلار بييتري" للانخراط في الحياة السياسية، وانتُخب عام ١٩٥٨ عضواً مستقلاً في مجلس الشيوخ، ثم جرى اختياره مرشح وحدة وطنية لرئاسة الجمهورية، وعلى الرغم من حصوله على عدد كبير من الأصوات، فإنه لم يصل إلى الفوز بالرئاسة. وأصدر خلال تلك المرحلة

عدداً من الكتب في مجال البحث والدراسة، من أهمها، (فنزويلا، بلد في حالة تحول)، و(وسائل من أجل بناء فنزويلا) و(حول العمل والتخريب في فنزويلا)، وروايتان هما (صورة في الجغرافيا) عام ١٩٦٢ و(محطة الأقنعة) عام ١٩٦٤، وهما جزءان من ثلاثية (متاهة الحظ)، ومجموعة قصصية بعنوان (خطوات وعابرون) عام ١٩٦٦. منذ عام ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٤ تولى، للمرة الثانية، رئاسة تحرير El Nacional، وخلال تلك الفترة (١٩٧٣) حصل على جائزة "ميغيل دي ثيرفانتيس" الإسبانية الهامة في مجال الصحافة. ثم، وبين عامي ١٩٧٥ . ١٩٨٠ أصبح ممثلاً لفنزويلا لدى منظمة اليونيسكو ثم عضواً للمجلس التنفيذي لهذه المنظمة ونائباً لرئيسها لمنطقة أمريكا اللاتينية والكاريبي.

أما الثلاثية التي كان قد أَنجز جزأيها الأول والثاني، التي صممها، (وفق تعبيره)، كـ"مشروع لتصفح الأحداث التاريخية لفنزويلا منذ ديكتاتورية "غوميث"، وإعادة بناء الديمقراطية من بين أنقاض الديكتاتوريات، والتحول الذي عاشه المجتمع الفنزويلي بسبب الصناعة البترولية، وعدم استقرار الحياة السياسية للبلاد، التي كانت تتأرجح بين النجاحات والإخفاقات، والمحاولات الديمقراطية، والحكومات الانقلابية المدّعية"، فقد تحول، بدلاً من إنجاز جزئها الأخير، إلى موضوع الـ Caudillo الأمريكي (وهي كلمة إسبانية تعني الزعيم القائد الفرد، والذي هو أيضاً ديكتاتور)، فكتب عام ١٩٧٦ رواية "المهنة الجنائزية"، في عودة إلى أيام ديكتاتورية "ثيبريانو كاسترو" و"فيثينته غوميث"، مع تصوير دقيق واستثنائي لتلك الأيام. ولم تدخل هذه الرواية، التي هي، من حيث الموضوع، رواية تاريخية، ضمن حدودٍ نوعيه صارمة، إذ لم يهتم الكاتب بإعادة البناء المادي للمرحلة التاريخية وفق التعبير التقليدي، فبالنسبة إليه: "كل رواية هي تاريخية بطبيعتها، لأنها مشروع لاحتواء زمن ما ونقله إلى دائرة الحاضر". وتقول "كارمن دي مورا": "لو كان غرض أوسلار بييتري هو فقط تقديم المرحلة التاريخية لفنزويلا "غوميث" لكان قد لجأ إلى تحليل الأسباب التي أدت إلى الديكتاتورية، وعرض مسار الصناعة البترولية واستغلالها من قبل الشركات الأجنبية،

في حين أن ما كان يمثل اهتمامه هو شخصية الديكتاتور: الآليات النفسية الكامنة في أعماقه، والتطلع إلى السلطة، وإنضاج الأدوات الضرورية من أجل تحقيق هذا التطلع".

ومع ذلك، لا بد من القول إن الأحداث التاريخية وطريقة تقديمها بقيت في رواية "المهنة الجنائزية" خاضعة لشخصية "غوميث"، ومن هنا يجب إدراجها، نوعياً، على أنها رواية حول "الديكتاتور"، هذه النوعية الروائية التي بدأت في أمريكا اللاتينية منذ القرن التاسع عشر مع أعمال مثل (المجزرة) لـ "إيستيبان إيتشيبيريّا" و(الفصيح) لـ "سارميينتو" و(آماليا) لـ "خوسيه مارمول"، ثم تطورت في القرن العشرين مع رواية (الطاغية) للكاتب الإسباني "بايّيه إنكلان" (١٨٦٦ . ١٩٣٦) إلى "الرواية السياسية الساخرة" التي اتخذت من شخصية ''الديكتاتور'' بطلاً لها، وكانت هي القالب للعديد من الروايات: (السيد الرئيس) لـ"آستورياس" و(اختطاف الجنرال) لـ "ديمتريو آغيليرا مالتا" و(أنا الأعلى) لـ "روا باستوس" و(خريف البطريرك) لـ"غابرييل غارثيّا ماركيث"، إضافة إلى (المهنة الجنائزية)، على سبيل إيراد بعض الأمثلة.

وعلى الرغم من إمكانية استخلاص ثلاثة نماذج مختلفة ضمن تعبير El Caudillo، هي "القائد" و"الزعيم" و"الديكتاتور"، على ما هناك من تداخل والتباس بين النماذج الثلاثة، فمعانيها تختلف تبعاً لتنوع الأماكن والقواميس، دون أن يكون هناك اتفاق بين الباحثين وعلماء الاجتماع على معيار موحد. وعلى سبيل المثال فهناك التقاء في أحد الملامح على الأقل ما بين القيادة والزعامة يتمثل بتوفر "الرضا الجماهيري". أما تعريف "أوسلار بييتري" فهو: "كل من هؤلاء الرجال هو ديكتاتور، إلا أن القليلين جداً منهم كانوا قادة بالمعنى الصحيح للكلمة، أما الباقون فهم عسكريون، أو مدنيون، أمكنهم عن طريق المكائد أو القوة الاستيلاء على السلطة، دون أية صورة من صور الشرعية".

ثم جاءت روايته (جزيرة روبنسون) عام ١٩٨١، وتابع من خلالها الكيفية نفسها في إعادة بناء السيرة الذاتية، إذ تناول شخصية "سيمون رودريغيث" أستاذ "بوليفار": أفكاره وحواراته مع تلميذه التي أخذا يخططان من خلالها للمشاريع التربوية وللرؤية المتصوَّرة للجمهوريات الجديدة. وكان آخر عمل روائي له هو (زيارة في

الزمن)، عام ١٩٩٠، الذي نال عليه في العام التالي جائزة "رومولو غايّيغوس" الكاتب والسياسي الفنزويلي الذي أصبح رئيساً لفنزويلا عام ١٩٤٨، وأطيح به من قبل مجموعة من العسكريين في العام نفسه، وهي جائزة أُحدثت في فنزويلا عام ١٩٦٤ من قبل رئيس جمهوريتها آنذاك "راؤول ليوني": "بهدف تقدير وتكريم أعمال الروائيين البارزين، وتحفيز الأنشطة الإبداعية للكتاب المتحدثين بالقشتالية [١] ". وكان "بييتري" أول كاتب فنزويلي يحصل على هذه الجائزة الأدبية الرفيعة، التي مُنحت لكتاب بارزين آخرين من أمريكا اللاتينية، من بينهم "غابرييل غارثيّا ماركيث" و"ماريو فارغاس يّوسا" و"كارلوس فوينتيس" والإسباني "خابير ماريّاس".

وفي اقتراب أكثر من روايتنا "الرماح المدمّاة" نتوقف قليلاً مع مفهوم الرواية التاريخية لدى "أوسلار بييتري". كتب الأستاذ الجامعي الإسباني "إيميليو غونثاليث لوبيث":

"نشأت الرواية التاريخية لـ "أوسلار بييتري" في المرحلة الواقعية التي بلغت في إسبانيا، وبخاصة لدى "بيريث غالدوس" [٢]، أفضل تجلياتها. والرواية التاريخية لدى "غالدوس" . وخلافاً للرواية الرومانسية التاريخية الانكليزية، والتاريخية الواقعية الفرنسية ذات الطابع الأركيولوجي التي ابتكرها "فلوبير" [٣] .، تحاول أن تنزع عن الظاهرة التاريخية صفة الأمر البعيد الذي يأتي كصدى للماضي، ولتعطيها، بالمقابل، أفقاً لحادثة قريبة منا، لأمر يحدث، لأمر لم يمت بعد. أما مع "فلوبير"، وكذلك مع الرومانسي "والتر سكوت" [٤]، فالرواية التاريخية تتجه إلى ما هو بعيد، وكما لو أن

---

(١) . اللغة القشتالية La Lengua Castellana نسبة إلى منطقة قشتالة وسط إسبانيا وتقع فيها العاصمة مدريد، هي اللغة التي جرى التعارف عليها بأنها اللغة الإسبانية، إذ أن هناك ثلاث لغات أخرى محلية يتحدث بها الإسبان في ثلاث مناطق رئيسة هي: كاتالونيا، شمال شرقي إسبانيا، والباسك، في الشمال، وغاليثيا، في الشمال الغربي .

(١) . Benito Pérez Galdos (١٨٤٣ . ١٩٢٠) اشتُهر بصورة خاصة بسلسلة رواياته التاريخية وعددها ست وأربعون.

(٢) . Gustave Flaubert (١٨٢١ . ١٨٨٠) صاحب الرواية الشهيرة (مدام بوفاري).

(٣) . Walter Scott (١٧٧١ . ١٨٣٢) الروائي الاسكتلندي . أشهر أعماله (آيفنهو).

روحاً مكتئبة تأتي إلى هذه الحياة قادمةً من (الآخرة)، أو من الماضي الذي انقضى، لتزور أصدقاءها وأقرباءها وتتسلى معهم.... لقد كتب "غالدوس"، في الحقيقة، رواية تاريخية معاصرة لم تكن إلا مقدمة لرواياته غير التاريخية المعاصرة".

مجال الرواية لدى أوسلار بييتري هو "الزمن"، ليس بمعنى إعادة بناء "مرحلة" محددة منه لا ارتباط لها بالحاضر، بل، وكما يقول هو نفسه: "أحداث الماضي ضمن الزمن الحاضر، والتحول المستمر للحاضر داخل الماضي، من خلال الشخصيات وعلاقاتها وردود أفعالها وتصوراتها. وبهذا المعنى، فكل رواية هي تاريخية بطبيعتها، لأنها محاولة لاستيعاب زمن والاحتفاظ به حياً في دوائر الحاضر، حتى ولو كان الفعل الذي يتناوله قد حدث قبل قرون عديدة".

واقتراب "أوسلار بييتري" من تقنية "غالدوس"، بعيداً عن تقنية "فلوبير"، يبدو جلياً في (الرماح المدمّاة)، ولو أن هذا الأمر لم يحصل بالطريقة نفسها في أعمال أخرى له، إذ أننا نجد الأحداث التاريخية وطريقة تقديمها قد بقيت خاضعة لشخصية "غوميث" في (المهنة الجنائزية)، كما اتُّخذ الشأن التاريخي في (جزيرة روبنسون) كمرجع تأريخي - إيديولوجي.

ويميز "أوسلار بييتري" في موضوع الرواية التاريخية بين أمرين:

* التاريخ في الرواية: الذي هو "نتيجة لتيار العلمية في القرن التاسع عشر، حيث ظهرت الرغبة في "حمل" التاريخ إلى الناس بطريقة ملائمة، وهذا يعني استخدام الرواية كعربة، لتعليم التاريخ، وقد احتفظت الرواية لدى "ديكنز"، على سبيل المثال، بهذه المهمة التعليمية".

* والرواية في التاريخ: حيث يتحول شأن تاريخي إلى موضوع روائي، إلى رواية، ويحدد أوسلار بييتري مفهومه للرواية في التاريخ على الوجه التالي: "إن ما أهتم به هو الرواية في التاريخ. من هو الروائي؟ الروائي هو إنسان لديه ما يتجاوز مجرد حكاية أو قصة يرويها، إلى حقيقة يعكسها، وهو ما يمكن أن يجري بطرق كثيرة. في الواقع، لا أحد يبتكر شيئاً، ليس هناك ابتكار يأتي من العدم، من دون أساس، ليست هناك أية شخصية روائية لم تخرج من حقائق ما، من شخصيات حقيقية، من

أفعال للحقيقة مترابطة بطريقة أو بأخرى. إنها تخرج من التجارب الخاصة للإنسان، من أمور حدثت معه، أقلقته، أثارت اهتمامه. إن ما يحصل مع الأدب القصصي ومع المسرح هو وجود الرغبة بإعادة خلق حقيقة، حقيقة أخرى، طريقة أخرى تعيش فيها الحقيقة، والروائي يفعل هذا بطرق متعددة. أو هو يقوم باصطحاب أمور من الحياة الواقعية تصبح معه في موقعها الجديد هي الأمور الواقعية والطبيعية إلى درجة أنها تبدأ بمقاومة المؤلف. أو هو يبتكر شخصيات من عناصر مركبة، أو، وأخيراً، وبدلاً من أن يبتكر شخصية، فهو يأخذها من التاريخ ويحولها إلى شخصية روائية أو متخيلة، وهو في هذه الحالة يتخفف من حِمل ابتكار شخصيات دون أساس، ويوفر مدخلاً حقيقياً لما سيقوله. وهذا الأمر الأخير هو ما أدعوه بـ "الرواية في التاريخ"، إنه الدخول كروائي، مع موضوع الروائي، الذي هو الحقيقة الإنسانية، في المجال التاريخي. يختار الروائي شخصية أو عدة شخصيات تاريخية يجمعها مع شخصيات أخرى روائية، ليبني بها جميعاً عمله الروائي. هذا ما حاولت أن أفعله، إنه ما فعلته بشكل أساسي. لذلك أقول إن ما أكتبه ليس "رواية تاريخية" بل هو "رواية في التاريخ". هناك نقل من التاريخ، لكنه نقل يُلزمني كثيراً بألاّ أنفصل عن حقيقةٍ هي الشخصية التاريخية؛ التي هي هناك، لكن كشخصية روائية".

وفي محاولة إضاءة سريعة أخرى لمناخ هذه الرواية، نذكّر بأن الاستيطان الإسباني للأراضي الفنزويلية بدأ عام ١٥٢٠، أما حرب الاستقلال الفنزويلية فقد قامت عام ١٨١٠، بقيادة "سيمون بوليفار"، الذي أصبح يطلق عليه لقبEl Libertador (المحرّر). وفي عام ١٨١٩ تأسست جمهورية كولومبيا الكبرى التي اشتملت على ما هو اليوم فنزويلا والإكوادور وكولومبيا وباناما. وفي عام ١٨٢١ تمت هزيمة الإسبان بصورة حاسمة أكّدت الاستقلال، ثم تأسست في فنزويلا جمهورية مستقلة عام ١٨٢٩.

اتصف التاريخ المبكر لفنزويلا المستقلة بالثورات والثورات المضادة، الأمر الذي بلغ ذروته مع ديكتاتورية "أنطونيو غوثمان بلانكو" بين عامي ١٨٧٠ . ١٨٨٨، ثم أعقبت ذلك مراحل أتينا على ذكرها. ولإعطاء تصور حول المكان، جغرافياً، وهو ما سيكون مفيداً أيضاً مع قراءة الرواية: في فنزويلا (التي تقع، كما هو معلوم، في أقصى

شمال شرقي أمريكا الجنوبية) أربع مناطق رئيسة، هي: المرتفعات في الشمال والشمال الغربي، والأراضي المنبسطة قريباً من الشاطئ الشمالي الغربي (ماراكايبو)، والسهول في المنطقة المدارية (مدار السرطان) في وسط الشمال وديلتا نهر "أورينوكو" . أكبر أنهار فنزويلا .، ومرتفعات غوايانا في الجنوب والجنوب الشرقي. وتغطي الغابات نحو ٤٠% من مساحة البلاد.

حَوَّل "أوسلار بييتري" في)الرماح المدماة(أجواء عامي ١٨١٣ . ١٨١٤ إلى مادة روائية، وهي المرحلة التي أُطلق فيها نداء "الحرب حتى الموت" وتحقق فيها الانتصار الحاسم للقوات الجمهورية.

كانت الجمهورية الأولى قد هُزمت عام ١٨١٢ على يديّ Domingo de Monteverde y Ribas (١٧٧٣ . ١٨٣٢)، الذي ينتمي إلى جزر الكناري وأصبح ضابطاً في سلاح البحرية الملكية الإسبانية قبل أن يأتي إلى فنزويلا عام ١٨١٢ وليصبح من ثم، وفي العام نفسه، قائداً عاماً في فنزويلا، ثم أُصيب بجرح بليغ في العام التالي وغادر إلى إسبانيا وبقي فيها لحين وفاته. أما قائد القوات الجمهورية فكان Francisco de Miranda (١٧٥٠ . ١٨١٦) رائد الكفاح الفنزويلي من أجل الاستقلال، وهو من مواليد العاصمة الفنزويلية كاراكاس، وقد أُسر وأرسل إلى السجن في قادس بإسبانيا وتوفي هناك.

بين عامي ١٨١٣ . ١٨١٤ كان الوعي الجمهوري قد أخذ بالنضوج لدى الشباب المتحدرين من أصول أوروبية، بعد أن كانت الأجيال التي سبقتهم أكثر ارتباطاً بالدم الإسباني وبالمَلَكية الإسبانية وأكثر اهتماماً بتملك الأراضي والعقارات. كان هؤلاء الشباب "الأرستقراطيون" على استعداد لاستيعاب محتوى حقوق الإنسان والمواطن، التي كان يجري تداولها بصورة سرية منذ أيام الليبرالي الإسباني "خوان باوتيستا ماريانو بيكورنيل" (١٧٥٩ . ١٨٢٥)، أما الفئات الشعبية فكانت، في غالبيتها، من الزنوج العبيد والزنوج المحررَّين والخلاسيين والهنود، ممن يفتقرون إلى الوعي اللازم، ويعيشون في خوف مستمر من إرادة الملك، التي كانت تُصوَّر لهم على أنها إرادة الله، كما كانوا تحت وطأة التعصب لكاثوليكية صارمة، همهم الأساس هو الحصول على الحرية

الفردية ضمن شرطهم كعبيد، (استمرت العبودية في القوانين الفنزويلية حتى عام ١٨٥٤، أما في الواقع فقد استمرت حتى ثمانينات ذلك القرن). ولم يكن عاما ١٨١٣ و١٨١٤ مرحلة سهلة بالنسبة للجمهوريين، فالحملة التي قام بها "بوليفار" بصورة مثيرة للإدهاش انتهت بضياع الجمهورية الثانية، إذ انتصر القائد الإسباني José Tomás Boves (١٧٨٢ . ١٨١٤) الذي عُرف بقسوته المفرطة، ثم قُتل عام ١٨١٤ في معركة "أوريكا"، وبقي نائبه "خوسيه توماس موراليس". وكان "بوفيس" قد كتب إلى قيادته العليا في أيار ١٨١٤: "حاوِلوا أن تجمعوا كل الناس المفيدين الموجودين عبر الحقول، وإن من لا يمتثل لصوت الملك سيُعتبر خائناً وسيُقتل".

جرت خلال الفترة ما بين شباط وكانون الأول ١٨١٤ إحدى عشرة معركة حربية بين "بوفيس" و"موراليس" من جهة، و"بوليفار" وعدد من قادة القوات الجمهورية من جهة ثانية، كان أطولها معركة "لا فيكتوريا" التي بدأت يوم ١٢ شباط وقاد فيها الجنرال "خوسيه فيليكس ريباس" بقايا القوات الجمهورية، وتحول اليوم المذكور إلى يوم وطني للشباب الفنزويلي.

وقد رُويت بطولات هذه المعركة في عملين ملحميين رومانسيين، كتب الأول "خوان فيثينته غونثاليث" بعنوان (سيرة حياة خوسيه فيليكس ريباس) عام ١٨٦٥، وكتب العمل الثاني "إدواردو بلانكو" بعنوان (فنزويلا البطولة) عام ١٨٨١. لكنَّ "أوسلار بييتري" ابتعد عن الملحمية التي اتصف بها هذان العملان، مع اهتمام كبير بالتوثيق، الذي أَعَدَّ له جيداً قبل البدء بكتابة روايته، ومن بين مصادره كان هناك مصدران أساسيان تحدث عنهما في مقابلة صحفية أُجريت معه بتاريخ ١٩٩٢/٨/٨:

"سيرة حياة خوسيه فيليكس ريباس، العمل الذي كتبه خوان فيثينته غونثاليث، هو رواية رومانسية ومبالغ فيها كثيراً وحاول فيها التأكيد على أن مبالغاته هذه هي جوهر الحقيقة. نحن الفنزويليين لم نكن ندرك بصورة صحيحة حقيقة أهدافه، وهو الذي قال عن "بوفيس" إنه أول زعيم للديمقراطية الفنزويلية! إن هذا أكثر مما يمكن قبوله، إننا لا نفهم تاريخنا، ولهذا نستمر في عدم معرفتنا لكيفية إيجاد أنفسنا. أما المصدر الآخر الذي رجعت إليه فكان المذكرة التي أرسلها الأب "ياماثاس" إلى فيرناندو السابع

بعد وفاة "بوفيس". كان "ياماثاس" هو الكاهن الخاص لـ"بوفيس" وقوّاته، ورافقه خلال عامي ١٨١٣ و١٨١٤، وكان شاهداً على جميع تفاصيل الحياة والعمل في معسكراته، وعلى أسلوب الإدارة والقيادة، وعلى علاقة "بوفيس" برجاله. إنها وثيقة ثمينة تضم معلومات هائلة. ومما كتبه الأب ياماثاس: كان "بوفيس" يمعن في القضاء على جميع البيض الذين يحاولون استمالة الأعراق الأخرى وتملقها... لم يقتصر تعطش "بوفيس"، الذي لا يرتوي، إلى الدم، على دماء البيض، ولو أنه كان أكثر تعطشاً إليها. ولقد ارتُكبت بأوامر منه، في ساحات المعارك وفي القرى المسالمة، فظائع قل نظيرها".

ويُضيف "أوسلار بيبتري" في المقابلة نفسها: "معركة (لا فيكتوريا)، التي شارك فيها الطلاب، لم تكن هي المعركة التي شارك فيها "بوفيس"، إذ أنه خرج جريحاً من معركة (لا بويرتا) بعد أن كان قد حارب في معركة (سان ماتيو) التي لم يكن موقعها بعيداً عن (لا فيكتوريا)، وأنا لم أكتب حول معركتين، فهذا لم يكن هدفاً لي. أنا أردت أن أبني "سيمفونية معركة"، ولهذا فقد مزجت بين معركتين، وجعلت "بوفيس" يُجرح في معركة (لا فيكتوريا). وكذلك فإن "بوفيس" أوقع مجزرة بالجمهوريين داخل كنيسة (فيّا دي كورا) وليس في (لا فيكتوريا).

مَرَّ "بوليفار" و"بوفيس" خلال الرواية بالتقنية نفسها، وبأقل ما يمكن من الفعل، وبعبارات تتكرر، وتمضي نحو اختصار مطَّرد، من شأنه تسريع الإيقاع الروائي. كان "بوفيس" يظهر دائماً بعكس مصدر الضوء "Contre-Jour"، ولم يوصف إلاّ عبر إشارات أو دلالات لملامح مشتتة ومتفرقة؛ أما "بوليفار" فكان يظهر دون أن يتمكن القارئ من إدراك ومعرفة من أين أتى؛ إنه، ببساطة، يأتي، يمر، يشار إليه، لكنْ دون أي اتضاح لملامحه. كما أن الهالة الأسطورية لـ "بوليفار" كانت أكثر كثافة مما كانت عليه هالة "بوفيس" ذات السمة السلبية. وقد بدأت هالة "بوليفار" تتأسس وتنمو منذ الحكاية الشعبية الشفهية الأولى التي افتُتحت بها الرواية. وحول هذه المسألة كتب "أوسلار بيبتري" عام ١٩٤٣ دراسة حملت عنوان (الحكاية الشعبية الفنزويلية)، جاء فيها: "في الحكايا والأساطير الشعبية التي يحتفظ بها شعبنا ويتناقلها شفهياً هناك الكثير مما يمكن أن ندعوه بالمفهوم الفنزويلي للعالم: روحه، حياته، قيمه.... والذي

حاولنا إبرازه في الكثير من أعمالنا".

كما يقول في مكان آخر من الدراسة المذكورة:

"بين جميع أولئك القادة الذين أُلصقت بهم ونُسبت إليهم بطولات، لتشكيل أساطير، إيجابية أو سلبية، وفق الوجهة التي يُنظر من خلالها إلى التاريخ، كان هناك وجهان متناقضان في وقت واحد يفرضان القراءة المؤسِّسة لهذا التاريخ، فكل منهم، ومن الجانبين، ارتكب أعمالَ قسوة ومظالم أيام "الحرب حتى الموت"، كما أن كلاً من الجانبين قاتل بشجاعة لا متناهية".

كانت تقنية "أوسلار بييتري"، في المقام الأول، أنه قَلَبَ ما اصطُلح عليه بـ "التاريخ الرسمي" أو "تاريخ الشخصيات"، التي جعلها تمر في الرواية كظلال "Silhouette"، تظهر وتختفي، لتشكيل جو لا يدّعي معرفة كل شيء، بل هو جو ذو طبيعة متعددة النغمات "بوليفونية"، تمضي نحو بناء القص اعتماداً على وصف مقتضب وعبارات متصدعة ومونولوجات داخلية، مباشرة أو غير مباشرة. ولم تأخذ المعالجة منحى تدرج صعود "البطل الأسطوري" الذي يتحول إلى مناضل نصف إله مثلما تفعل الملحمة الكلاسيكية، حيث يُمجَّد كي يصبح "البطل التاريخي". وقد أشار المؤلف في أكثر من مناسبة إلى أن مسألة توتر القص لديه واندفاعاته نحو الذروة، إنما تعود، بصورة لا شك فيها، إلى اهتماماته الموسيقية وبخاصة بـ "بورودين" و"كورساكوف"، وكذلك بـ "ريتشارد فاغنر" الذي حمل الـ "لايت موتيف" إلى توترات غاية في التفاوت.

* * *

في صباح ماطر، يوم الإثنين ٢٦ شباط ٢٠٠١، ودَّعت العاصمة الفنزويلية كاراكاس "آرتورو أوسلار بييتري"، الذي كان قرر اعتزال الحياة العامة منذ رحيل زوجته "إيسابيل" قبل ذلك بخمس سنوات. ومع غيابه فقدت فنزويلا مَنْ وضعته أعماله على قمة الأدب الفنزويلي، إلى جانب مواطنه "رومولو غاييّغوس"، وجعلت منه الشخصية الأدبية والفكرية الفنزويلية الأكثر انتشاراً في العالم.

وعلى الرغم من احتجابه عن الحياة العامة، لم يصمت صوته الوطني الناقد الذي اتصف به دائماً، فقبل شهر واحد من وفاته، في آخر لقاء صحفي معه، قال: "ما تزال المشاكل الكبرى التي تؤثر في البلاد مطروحة، تتطلب أجوبة وانتباهاً. إن ما يحصل هو أن الوطن مُهمَل، والمشاكل الكبرى لا يجري بحثها".

أخيراً، هذا العمل الروائي الأول للكاتب ما يزال حتى اليوم صاحب النصيب الأوفر، بين أعماله، من الاهتمام بترجمته إلى الكثير من اللغات الأخرى، وكذلك في عدد طبعاته التي يستمر إصدارها، في بلده وخارجه.

أما العنوان Las lanzas Coloradas، الذي ترجمُته إلى "الرماح المدمّاة"، فتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة Las Lanzas لا التباس حول معناها، وهو"الرماح"، أما كلمة Coloradas فتحتمل أكثر من ترجمة: إذ تعني: "الوردية" و"الحمراء" و"الملونة" و"المخضّبة" و"المدمّاة". وقد اختيرت، على سبيل المثال، كلمة "الحمراء" في الترجمة إلى الألمانية والفرنسية والانكليزية، و"المدمّاة" في الترجمة إلى الإيطالية والرومانية. ولم أجد في كلمتَيّ "الوردية" و"الملونة" ما يتصل بغرض المؤلف، كما أن كلمة "الحمراء" قد تُقدم أكثر من إيحاء. وقد اخترت كلمة "المدمّاة"، التي تحمل، وفق ما أرى، المعنى المقصود. وآمل أن أكون قد أحسنت الاختيار.

م.ح.

- ١ -

ليلة ظَلماء! والمطر يتدفق، يتدفق، وكما لو أنه إفراغ لجوف السماء. كان الضوء شحيحاً، ورجال المدعو ماتياس يرتجفون فوق أحصنتهم، التي راحت تنحدر بهم باتجاه المستنقع. البرد ينخر العظام، وبين حين وآخر يومض برق أصفر يشبه صدر الـ "كريستوفويه" (١). كان ماتياس هندياً ضخماً، قوطياً (٢)، يتبختر فوق حصانه كالطاووس، وقد تحالف مع الشيطان، فحماه من أن يتغلب أحد عليه. كان ماندينغا (٣) هو حليفه، وهو الذي يمسك برمحه!.

يصل الصوت عميقاً وبطيئاً إلى أسماع ثمانية زنوج جلسوا القرفصاء، ويتردد بصورة تبعث الرهبة في أرجاء تلك الرابية التي كانت تعصف فيها الرياح.

ماندينغا!! ويغمر الصوت المبنى الكبير الذي يتوزع فيه العبيد، ويبعث الرعب في قلوب نسائهم، وتصل بعض أصدائه إلى منزل المُلاّك، وإلى داخل المبنى الصغير الذي يقيم فيه الوكيل، ذلك الرجل الأسمر الفظ الذي كان يتمدد فوق أرجوحته. ماندينغا! والرجال الثمانية الذين يجلسون القرفصاء يحبسون أنفاسهم.

---

(١) . Cristofué اسم شعبي لطائر مغرّد، يعيش في جميع مناطق فينزويلا وفي بلدان أخرى من جنوب أمريكا، صدره أصفر اللون، وجناحاه وظهره مزيج من اللونين البني والرمادي. اسمه العلمي هو pitangus sulphuratus.

(٢) . القوطي "Godo" مصطلح استُخدم شعبياً للدلالة على من كان مناصراً أو مقاتلاً إلى جانب العرش الإسباني خلال حرب الاستقلال (١٨١٠ . ١٨٢١).

(٣) ـ كانت كلمة Mandinga تستخدم في الأوساط الريفية، وبخاصة بين الزنوج، للدلالة على الشيطان.

بئس تلك الليلة! لم يكن يُسمع فيها تغريد عصفور؛ السماء سوداء مثل قاع بئر، وماتياس يتحرك صامتاً. لم يكن يتقدم إلاّ ليلاً، كخفاش سمين. يمشي في المقدمة، كالثور الـ"مادرينيرو" (١)، وخلفه الهنود العشرون.

آه، يالبؤس ذلك المسكين الذي تعثر بماتياس! المسكين الذي سيلاقي الموت، آه، يالبؤسه، هذا الذي كان يمتطي حصاناً وبيده شعلة، رآه الرجال وهو قادم من بعيد. كانت ليلة قاتمة مثل جناحي نسر.

والآن يأتي ما هو جيد!..

لم يكن صوت المتحدث قادراً على إثارة الكثير من فضول الزنوج، الذين تستغرقهم مشاعر اليأس؛ كان كمن ينير ضوءاً في ظهيرة تغمرها أشعة الشمس. لكن الصوت كان يصل إلى مسامع الوكيل المتمدد فوق أرجوحته، فيسبب له إزعاجاً مثل إلحاح ذبابة.

انتفض من مكانه ووصل إلى باب مبنى العبيد. كان رياضياً، اكتست بشرة وجهه بلون برونزي أضفى على مظهره مزيداً من العنفوان.

رأى المجموعة التي كانت تجلس القرفصاء إلى جوار الحائط، بأجسادها السود العارية،..والصوت الحاد يستمر.

. أمطاااار.. وبرق. تقدم الرجال الذين حاصرهم البرد والخوف، وراء ماتياس، عندما شاهدوا أشخاصاً يقتربون منهم.. كانوا قلة، ومن بينهم رجل فتيّ نحيل ذو عينين ثاقبتين.

. إيسبيريتو سانتو . قاطعه أحدهم . وكيف تمكنوا من الرؤية في هذا الظلام؟

---

(١) . Madrinero هو الثور الذي جرى ترويضه كي يتقدم ويقود الأبقار.

. هه! والبرق؟

. أ م م م! هل كنت هناك؟

. أنا، كلاّ. لكنْ روى لي واحد ممن شاهدوا ذلك. ثم أني لم أدفع لأحد كي يروي لي هذه الحكاية..

حسنٌ، إذن! عندما وصل ماتياس إلى القرب من هؤلاء الرجال توقف، كما توقف الآخرون. وهنا كان الأمر الجيد! أطلق ماتياس نداءه باتجاه الرجل الفتيّ: "أيها الصديق، من أنت؟" فقال له الفتى، وكأنه لا يعني ما يقول: "أنا؟ بوليفار" ورسم على صدره إشارة الصليب، فلم يفعل هذا الشيطان شيئاً، ثم قذف الفتى بشعلته، فلم يفعل شيئاً، لكن عندما قال لماتياس بصورة جادة: "أنا بوليفار"! تسمّر هذا الذيل(١) في مكانه، ثم فر هارباً مثل ضبّ، ومعه جميع رجاله وحلفه مع ماندينغا.

كان الزنوج قد بدؤوا يصخبون ضاحكين فرحين بما سمعوه عندما ظهر وسط المجموعة ظِلٌّ لرجل، فتبدلت ملامحهم في الحال. كان الوكيل واقفاً في مواجهتهم بعينين يتطاير منهما شرر التهديد، وسيطر حضوره على العبيد الثمانية الذين تملّكهم الخوف.

. بريسينتاثيون كامبوس – قال أحدهم بصوت منخفض.

تقدم الرجل خطوة إلى الداخل، فتدافع الزنوج إلى الخارج راكضين مذعورين، متشتتين بين البيوت والأشجار.

ودون أن يهتم لهذا الفرار، صرخ بريسينتاثيون كامبوس:

. إيسبيريتو سانتو!

---

(١) . الكلمة الإسبانية هي Rabo وترجمتها " ذيل "، إلاّ أنها تعني أيضاً، كاصطلاح شعبي، العضو التناسلي للرجل. . المترجم .

. نهار سعيد، سيدي . أطلقها "إيسبيريتو سانتو"، راوي الحكاية، كمن يلقن العبارة للآخرين.

. نهار سعيد . تمتمت أصوات أخرى.

ومع رجع الصوت، ظهر من باب المبنى رأس منحنٍ ينظر خجِلاً بعينين بيضاوين مذعورتين، ثم ظهرت بقية الجسد النحيل نصف العاري.

. تعال إلى هنا، إيسبيريتو سانتو.

وتقدم مقترباً من الوكيل بخطوات متعثرة.

. نهار سعيد، سيدي.

. لماذا لم تقل لي إنك قد عدت؟

. نعم، سيدي، كنت سآتي لأخبرك. كنت أنوي القدوم إليك الآن كي أخبرك.

. كنت تنوي القدوم الآن، وأنت تستمر منذ أكثر من ساعة في رواية الحكايات؟

لم يعمد إلى أي تبرير، لكنه جثا على الأرض مثل كلب، بكل خنوع واستسلام.

. هل أحضرت الرجل؟

. نعم سيدي، أحضرته. إنه سيد أوروبي أشقر، وهو الآن عند المُلاّك. هو لطيف جداً ويدعى الكابيتان دافيد، يحمل مسدساً جميلاً جداً وقد تحدث إليَّ كثيراً.

. أنا لا أسألك عن أي شيء من هذا. اذهب!

ويفر العبد.

ويمشي كامبوس بخطواته الثابتة، وبنيته المتينة، ونظراته المتعالية، وشعره الأجعد المتموج. ابتعد عن حائط المبنى الكبير الذي يتوزع فيه العبيد، الذين عادوا إلى الداخل، إلى العتمة، بعيونهم الجزعة. ودون أن يتوقف، ألقى باتجاههم نظرة سريعة

باردة. "هناك ينام العبيد؛ الذين تفوح رائحتهم، رائحة تعرّق أجسادهم المترهلة والمثيرة للنفور، أجساد سوداء هزيلة بأعصاب منسوجة من الخوف". قلب شفته السفلى مشمئزاً، وتابع سيره.

مر وسط الأشجار التي تكسو الجانب المرتفع من الرابية. من بعيد تبدو المزارع الخضر لقصب السكر، التي يمكن للعين أن تبحر عبر أبعادها اللامتناهية، وتبدو وراءها المرتفعات الحمر، ثم المرتفعات البنفسجية. وعلى أحد سفوح الرابية يقوم البرج، وجدران الآجر المرتفعة لمعاصر القصب، وتجمعات العبيد. وعند ضفة الساقية، نسوة يقمن بغسيل أغراضهن وهن يغنين بصوت واحد، بأفواههن البيض.

. نهار سعيد، دون بريسينتاثيون[١].

كان المالك قد حظّر أن يخاطَب الوكيل بهذه الطريقة، لكنْ، أمام سيطرة نظراته وفظاظة تصرفاته، لم يكن أمام هؤلاء المساكين أن يقولوا أو يفعلوا شيئاً آخر.

من خلال بشرتهن الداكنة، كانت أسنانهن وعيونهن تطل ببياض متودد، يتندّى بعذوبة متملقة.

. نهار سعيد، أيها السيد.

كان قلما يجيب على عبارات التحية التي يلقي بها الضعفاء أمام جبروته.

---

(١) . في اللغة الإسبانية، تُستخدم كلمتا Don وDoña بمعنى "الفاضل" و"الفاضلة"، كصيغة احترام، وتسبق الاسم الأول، منفرداً، أو مقترناً باسم العائلة. أما ما يقابل كلمتي "السيد" و"السيدة" اللتين تسبقان المناداة باسم العائلة، وهي الصيغة الرسمية، فهما كلمتا Señor وSeñora. وقد أبقَيْت على كلمتي "دون" و"دونيا" حيثما وردتا، لضرورة هذا التمييز. . المترجم.

قرب إحدى الأشجار جلس رجل عجوز وقد كشف عن إحدى ساقيه التي غطتها تقرحات حمر:

. نهار سعيد، دون بريسينتاثيون.

فتاة خلاسية تحمل على رأسها دلو ماء:

. نهار سعيد، دون بريسينتاثيون.

كان يشعر أمام ضعف الآخرين بتنامي قوته... وملأ صدره بعدة أنفاس عميقة من الهواء البارد الرطب.

رجل أسمر خلاسي، يشبهه بلون بشرته، قادم وهو يحمل حزمة من الحطب، ازداد انحناءً لدى اقترابه من الوكيل:

. نهار سعيد، سيدي!

من بين جذوع الأشجار بدا منزل المُلاّك قريباً، بجدرانه البيض العالية. دون فيرناندو ودونيا إينيس. دون فيرناندو، الذي كان جباناً وكسولاً ومتردداً، ودونيا إينيس التي كانت تعيش وكأنها في عالم آخر. في الواقع، كان المالك الحقيقي هو بريسينتاثيون كامبوس، ولأن دون فيرناندو لم يكن قادراً على إعطاء الأوامر إلى الآخرين، فقد أصبح مع دونيا إينيس مجرد مالكين للعقار، لكن من كان يصدر الأوامر ليس غير بريسينتاثيون، الذي لم يكن يعرف معنى أن يطيع الآخرين. كانت تهيمن عليه شهوة التملك والسيطرة.

في تلك الأمسية الزرقاء الصافية، كانت أصواتٌ صاخبة نزقة تقترب:

. قصب الـ "آلتار" [١] جيد جداً، هذه المزارع جيدة.

---

(١) . الكلمة بالإسبانية هي: El Altar، وتعني بالعربية "المذبح"، وهي التسمية التي أُطلقت على تلك المزارع. . المترجم .

. جيدة وستنتج أموالا وفيرة إن لم تنشب الحرب.

إنها مجموعة من العبيد العائدين من العمل، أجساد هزيلة عارية، بعضهم يحمل المدي، وبعض آخر تُزين إحدى أذنيه حلقات نحاسية.

مرّ بريسينتاثيون كامبوس بالمجموعة فأفسحت له الطريق، مع انطلاق جميع الأفواه بصوت واحد:

. نهار سعيد، دون بريسينتاثيون.

وفعلت مجموعة تالية الشيء نفسه. كان الوكيل يمر بين الصفوف كمن يستعرض أرتالاً من جنوده.

بدأ الظلام يهبط، وأطلّ أول الأضواء من إحدى النوافذ.

كانت تصل بعض الأصوات الى الطريق:

. أنا لا أقول هذا، الذي أقوله هو أن هناك حرباً، هناك حرب، حرب قاسية، وسيُقتل أناس كثيرون.

. حسنٌ، وماذا سنفعل؟ إذا كانت هناك حرب، إذن فهناك حرب، وإذا لم تكن هناك حرب، فليست هناك حرب. ماذا سنفعل؟

انتبه الوكيل إلى أن أحداً قد اقترب منه.

. بريسينتاثيون كامبوس!

. نهار سعيد سيدي.

ورتلت العبارة مجموعة من الأصوات.

كان يمرّ أمام منزل المُلاّك، حيث الدرج العريض الذي أضيئت بعض أنواره، بينما صوت الريح يغمر المكان.

خطا بضع خطوات باتجاه المنزل، ثم توقف.

ذلك المنزل، وهؤلاء الناس المقيمون فيه..أمر يشكل بالنسبة إليه حالة من الافتتان.

مرّ أحد العبيد.

. ناتيفيداد . ناداه الوكيل.

اقترب العبد منه مسرعاً.

. سيدي؟

. ابقَ هنا قليلاً.

ووقف الاثنان صامتين أمام كتلة المبنى البيضاء.

. ناتيفيداد، هل تحب أن تصبح سيداً؟

ويحار العبد، لا يعرف ماذا عليه أن يقول.

. هل تريد ذلك؟ قل لي!

. ر.. ربما أجل، سيدي.

صمت بريسينتاثيون كامبوس للحظات، ثم طفح وجهه بضحكة مفاجئة:

. ربما؟!... السيد هو السيد والعبد هو العبد!

"ناتيفيداد" يوافقه بخجل:

. لهذا فالحرب جيدة. من الحرب يخرج الأسياد الحقيقيون.

يبزغ هلال وليد فوق إحدى التلال.

يمشي بريسينتاثيون كامبوس ويتبعه العبد.

ويملأ صوته فضاء ذلك المساء.

. الحرب......

. الحرب......

وداخل المنزل يقول الفتى ذو الجسم الممتلئ للفتاة الشاحبة التي تداعب أصابعها ملامس آلة بيانو:

. الحرب، إينيس، أمر رهيب ليس بإمكانك أن تتصوريه.

ويصدح صوت الفتاة في الصالة المؤثثة باللونين الأحمر والذهبي:

. وماذا يهمنا من أمر الحرب، فيرناندو، ونحن نعيش هانئين في الـ" آلتار"؟ ماالذي يمكن أن تفعله الحرب معنا؟

كان فيرناندو ذا شعر داكن وعينين سوداوين وطبيعة كسول. وكانت إينيس، شقيقته، ترتدي السواد، ذات عينين براقتين.

ضوء شمعدانات ينير ما توزع في تلك الصالة من أثاث وتحف ولوحات زيتية لبعض الوجوه: رجال وقورون ونساء ضاحكات.

. لا يذهب الناس إلى الحرب من أجل المتعة، إينيس، هذا يتم بصورة قاهرة.

بقيت صامتة، لم تُجب، وشيئاً فشيئاً أخذت نغمات موسيقية رشيقة تملأ المكان، ثم تتحول إلى عزف أكثر ارتعاشاً وتوتراً وصخبا.

. ولماذا وُجدت الحرب؟ . قالت ذلك بصورة مفاجئة وقد توقفت عن العزف . نعم، لماذا؟ إذا كان الناس جميعهم يستطيعون أن يعيشوا في منازلهم بسلام لماذا يذهب الرجال إلى القتل؟ لا يمكنني أن أفهم ذلك.

فيرناندو يضحك.

. شيء فظيع أن يذهب الجميع إلى الموت. لماذا وُجدت؟

كان القلق ينبعث من كلماتها الساذجة.

توقف فيرناندو عن الضحك.

. لم يُخلق هذا العالم، إينيس، على الوجه الأمثل، ولهذا، من الصعب تفسير ذلك. الحرب كامنة فيه، لم يجلبها أحد ولا يمكن لأحد أن يوقفها.

وتعود أصابعها الرشيقة إلى ملامس البيانو.

عبْر الدرج الذي يفضي من باب البهو إلى الطابق العلوي، يظهر رجل نحيل، تزدان ياقته وطرفا كمّيه بتطريز أنيق، ويرتدي سترة عسكرية طويلة من الحرير الليلكي، وينتعل حذاء نظيفاً. شعره الذهبي ينسدل على كتفيه، ذو شاربين رفيعين وعينين زرقاوين مثل الماء الممزوج بلون السماء.

لدى وصوله، وقف فيرناندو لاستقباله، أخذه من يده بكثير من الاهتمام إلى القرب من البيانو.

. إينيس، الكابيتان دافيد.

انحنت برأسها ترحيباً، وحيّاها هو بكثير من الاحترام.

انتقلوا بعد ذلك للجلوس على مقاعد وثيرة، وبدأ فيرناندو الحديث.

. كابيتان، كيف تركتم بيرناردو؟

. بحال جيدة جداً. إنه يعتقد أن كل شيء سيسير على الوجه الأفضل، وأننا سرعان ما ستتاح الفرصة أمامنا كي يتم تجنيدنا.

. أعتقد . تدخلت إينيس . أن حضرتك متعَب بسبب السفر، ويمكنك، بعد الانتهاء من تناول الطعام، الانتقال للنوم والراحة.

. هذا ما أشكرك عليه كثيراً، إلاّ أني لست متعباً، لقد تعودت السفر، واجتياز المسافات الطويلة.

وبفضول طفولي عادت للحديث:

. قال لي فيرناندو إنك سافرت كثيراً. حدِّثْني حول بعض ما شاهدت في أسفارك. هل هذا ممكن؟

. أتحبين السفر؟

. جداً! لا بد أنه لأمر ممتع أن يكون الإنسان في مكان جديد كل يوم.

. أجل؛ أحياناً!

. والسفر في البحر؟!

. آه! البحر هو أمر جميل حقاً.

. أنا لا أعرفه، كابيتان، غير أني أتخيله.

. كيف تتخيلينه؟

. بكل بساطة؛ إذا انصهرت الأرض والجبال، إذا فاضت جميع الأنهار، إذا تحول الناس والبيوت والحيوانات والأشجار إلى ماء، هكذا يمكن أن يكون البحر.

. هكذا هو . أكّد الانكليزي، وأرفق كلامه بحركة ودود.

. نعم؛ لكن احكِ لي عن أسفارك.

. آه!.... اعتقدت أنك قد نسيت الأمر. حسنٌ. هل تريدين أن أحكي لك عن إنكلترا....، عن إسبانيا....

. عن إسبانيا.

. آه! إسبانيا. أرض صفراء، فيها مطاعم جيدة حيث يتوقف الجنود لتناول النبيذ.

وعبر الجبال يتجول قطاع الطرق فوق أحصنتهم. لقد عرفتها بصورة جيدة جداً أيام الحرب....

انتصبت هذه الكلمة الأخيرة أمامها مثل وحش، وعادت لتملأ روحها بالقلق والتوتر.

. لا! لا تتحدثْ عن الحرب.

. إذن، عَمَّ تريدينه أن يتحدث؟ . قال فيرناندو.

. عن كل شيء، ما عدا هذا.

ضحك الكابيتان.

. حسن، كنا ذات مرة في البندقية. مياه خضر وقصور حمر....

أثارت الحكاية اهتمامها، بينما كان فيرناندو يستمع بلا مبالاة. وتابع الراوي بكل جدية:

. كنا ذات مرة في البندقية....

وفجأةً، اخترقت جلستهم، من الخارج، من بعيد، صرخات رجال ونباح كلاب هائجة. وامتلأ الليل بضجيج مفاجئ، ووصلت إلى مسامعهم نداءات مذعورة:

. فَرَّ عند السفح.

. امنعوه!، أوقفوه!

سرعان ما ابتعد صوت الجلبة، وكما لو أنه قد انحدر باتجاه سفح الرابية البعيد.

وبعد لحظات المفاجأة والصمت.

. ماذا يجري؟ . سأل الكابيتان.

أجاب فيرناندو بعد برهة قصيرة:

- فرّ أحد العبيد.

هدأ الضجيج وتلاشى مثل ضوء بعيد، بعد الاجتياح المفاجئ لهذه الأرض النائمة. وتوقفوا عن متابعة الحديث.

في هذه الليلة، الملأى بالنُذُر والتوقعات، كان هناك شعور بمولد الصمت.

- ٢ -

عندما كانت أراضي فنزويلا مجرد غابات كثيفة متشابكة وسهول قاحلة، بدأ المستعمرون بشق بعض الطرق.

كان أولئك المستعمرون قساة، أفظاظاً، جشعين في بحثهم عن الذهب، ومع ذلك، كانوا يتظاهرون بأنهم يقومون بمهمة إلهية مقدسة.

كانوا يصلون من إسبانيا في سفن بطيئة، ولدى رسوهم عند أول شاطئ، يتفرقون مثل أسراب الطيور المتعجرفة.

اتصفت تلك الأيام بالحماسة والمغامرة. بعضهم جاء ضمن مجموعات، استقرت وأخذت تشيد الأبنية،.. بعض آخر بقي في الجبال الساحلية، وآخرون اجتازوا البلاد حتى وصلوا إلى مناطقها الوسطى، وجميعهم اقتنوا الأراضي وبدؤوا بإحداث مدن صغيرة، وبالتعاون مع الهنود راحوا يحرثون الأرض العذراء في كل مكان بحثاً عن الذهب، أو لمجرد زراعتها.

بعضهم قضى بسهمٍ أو بإصابة بالحُمّى، وبعض آخر عاش حتى سن الشيخوخة فقيراً وهو يحلم بالمشاركة في غزوة للحصول على الذهب الخرافي.

بين هؤلاء، جاء دون خوان دي آرثيدو، الرجل المقامر، المتشامخ. وفي البلاد الجديدة خسر النقود القليلة التي جلبها معه، على موائد القمار. وقد سعى من أجل الحصول على مستعمرة صغيرة، وحصل عليها، ثم مضى مع أربعة مغامرين آخرين وعشرين هندياً، يقطعون الأشجار لإنشاء طريق. ومع مرور شهر وصل إلى أحد الوديان، الذي بدا له ملائماً؛ غرز في أرض الوادي رمحاً وأعلن أنه اتخذ مكاناً له في ذلك الموقع، الذي سيُطلق عليه لاحقاً اسم الـ"آلتار"، وأقام فيه كوخاً. ثم أقدم على قتل

أحد الهنود كي يعلن بهذا التصرف بداية أسلوبه في القضاء وإصدار الأحكام.

تطورت أراضي الـ"آلتار" واتسعت. وقريباً منها كان إسبان آخرون قد بدؤوا بإقامة مستعمراتهم. وتزايد سكان المنطقة يوماً بعد يوم. تزوج دون خوان من ابنة أحد الأصدقاء وعاش طويلاً، وكذلك عاش ابنه دون دييغو، وحفيده دون فرانثيسكو، أما ابن حفيده، دون كارلوس، فكان قدره مختلفاً.

عاش دون كارلوس حياة هادئة حتى بلغ الأربعين من عمره وهو يعتني بمزارعه ويستورد الأحصنة الأندلسية المتميزة، ويقوم بزيارات دورية لأصدقائه المجاورين على رأس قوافل محملة بالهدايا: أقمشة، فواكه، أسلحة، لوحات دينية، لتوزيعها عليهم.

تزوج وهو شاب، ثم توفيت زوجته، وتركت له ابنة رقيقة وخجول، واقتنى المزيد من الأراضي المجاورة. ثم جاء إلى تلك المنطقة، بغرض الاستقرار فيها، دون خوسيه فونتا، الرجل المستبد المتسلط، مصطحباً معه ابنه مانويل، وهو شاب ضخم البنية، وغبي، وقوي، وقاسٍ.

كان دون خوسيه فونتا يقوم بتصرفات وممارسات بشعة: يتحايل على الناس، ويحرض على إشعال الحرائق ويوعز بارتكاب جرائم القتل، ويتطلع إلى السيطرة على ما أمكن من أملاك جيرانه. كانت تشاركه حياته هندية عجوز وقبيحة، وكان جيرانه يقولون إنها تمارس أعمال السحر، وتسيطر على دون خوسيه عن طريق إعطائه بعض المشروبات الخاصة، وإن هذا كان يزيد في تفاقم طباعه الرهيبة.

أما الابن، مانويل، فكان يسيء معاملة الهنود، ويغتصب النساء، ويقتل الحيوانات، ويدمن على تناول الكحول، لدرجة أنه كان ينطرح بسبب السكر أياماً متتالية تحت إحدى الأشجار.

وشيئاً فشيئاً، أخذت أملاك دون خوسيه تنمو وتتسع. كان يشتري من جيرانه الأراضي بأسعار بخسة تحت التهديد بالقتل، وباللجوء إلى إحراق زرعهم وسرقة محاصيلهم. وخلال فترة قصيرة، أصبح، بعد آرثيدو، أكبر مالكي الأراضي في

المنطقة.

ثم بدأ جشع فونتا يتطلع إلى أملاك آرثيدو.

في البداية عرض على آرثيدو أن يشتري منه قطعة صغيرة من أراضيه، لكن طلبه قوبل بالرفض.

وبعد انقضاء فترة قصيرة، وفي ظهيرة لاهبة، جاء فونتا مع ابنه إلى منزل دون كارلوس، دخلا وجلسا بأسلوب وقح وصفيق. أخذ مانويل يتفحص تلك المخلوقة الرقيقة بعينين شرهتين. تحدّث الأب، وقال إنه جاء كي يقترح زواج ابنيهما.

شعر دون كارلوس دي آرثيدو بالإهانة، ولم يجب بأية كلمة، وانسحب مع ابنته إلى داخل المنزل. ومنذ ذلك اليوم أصبح الاثنان عدوين حقيقيين.

بعد أيام قليلة، تبدلت حياة دون كارلوس بصورة كاملة. أصبح قاسياً، بدأ يعامل ابنته بصورة فظة، ويلجأ إلى معاقبة رجاله بطريقة خشنة لأتفه الأسباب، ويتهرب من التعامل مع الآخرين، ويغلق على نفسه الأبواب دون أن يدع أي مجال للقاء أحد.

لم يستطع أولئك الذين كانوا يعيشون قريبين منه البقاء صامتين غير مبالين إزاء هذا الوضع الجديد غير المألوف. بدؤوا يتصورون حكايا مختلفة. قيل إن دون كارلوس قد جُنّ: مفاجأةٌ ما أخرجته من عالمه المعتاد؛ وقيل إن الشياطين قد دخلت إلى روحه، متسللة إليها في إحدى لحظات ضعفه، وقيل أيضاً، وهو ما تشبّث به وروَّج له أصحاب النفوس الضعيفة المتخاذلة، إن الساحرة الهندية، شريكة حياة فونتا، قد وضعته تحت سطوتها.

استمرت الحياة على هذه الصورة لفترة غير قصيرة إلى أن جاء إلى الـ"آلتار"، ذات يوم، هندي تختلف ملامحه عن جميع الهنود الآخرين الذين كانوا يعيشون هناك، كان يعرف القليل من الكلمات الإسبانية، وينظر إلى الناس بعينين مندهشتين.

تحدث دون كارلوس دي آرثيدو مع الهندي، وكان لذلك الحديث دور حاسم في

حياته.

جاء من الجنوب، من أعماق الجنوب، من الأراضي العذراء المنخفضة، التي لم يكن الرجل الأبيض قد وصل إليها بعد.

. " ذَهَبْ " . قال الهندي، وعرض أمام آرثيدو قطعاً متعددة من الذهب الخالص، التي جلبها معه مخبَّأَةً بين أوراق الموز.

. أين عثرت عليها؟

. هناك.....!

وبكلمات متقطعة ومتناثرة، مستعيناً بالإشارات، أخذ يبني أمام آرثيدو مملكته المذهلة. قال إنه جاء من أعماق عالم مجهول، سيراً على قدميه، وقد رافقه خلال هذا الترحال مائة قمر، وكانت مظاهر الأراضي التي اجتازها تتبدل بين منطقة وأخرى، عبَرَ نجوداً، وسلاسل جبال لامتناهية، وغابات لم تكن كثافتها تسمح بمرور أشعة الشمس. شاهد طيوراً تشبه الجواهر، ووحوشاً غريبة عملاقة، ونموراً ذات جلد حريري أصفر، وغزلاناً بيضاً. قطع سهولاً فسيحة، لأيام متعاقبة، لم يرَ فيها غير الطبيعة العارية. عبر أنهاراً عريضة كالبحر حيث تأوي كل الأمطار. كان العالم يدور تحت قدميه، جاء من مكان بعيد، بعيد، وشاهد ما يندر أن تراه عينٌ حتى في الأحلام. ذات مساء، وفي الأعماق البعيدة، على ضفة بحيرة بنفسجية، شاهد الضفة الأخرى. وعلى هذه الضفة الأخرى كانت تلتمع مدينة من ذهب، بدت وكأنها تشتعل، فتحرق ببريقها الهائل الهواء والأرض. ألوف من الألوان كانت تتعانق وتتشابك وتتصادم في نوافير من حجارة حمر وخضر وبيض، كأنها قطع متناثرة من الشمس، ترتعش انعكاساتها المذهلة فوق صفحة الماء.

شعر دون كارلوس أن الرجل حمل إليه دعوة لا تقاوَم.

. هل أنت متأكد من أنك قد شاهدت كل هذا؟

. أجل يا سيدي.

. إنْ كنتَ قد شاهدته، فالذهب موجود، وبالإمكان العثور عليه.

لم يعد دون كارلوس دي آرثيدو يستطيع التفكير بأي أمر آخر. قام بتجهيز حملة من ثلاثين هندياً وعشرة إسبان، وانطلقوا فجراً باسم الله مع هذا الدليل ذي الوجه المنبهر، يملؤهم جشع لا حدود له.

مضت الأيام، وابنة دون كارلوس، محاطة بنساء العبيد، تواصل صلواتها أمام لوحة لوجه السيد المسيح. ثم مرت الأشهر، وليس من أخبار عن تلك المجموعة من الرجال. وبدأ يسود شعور بأنهم قد غرقوا في مصير غامض يجاور الموت.

مضى عام. مضى عام ونصف عام.

وبصورة لم تكن متوقعة، عاد أحد أفراد المجموعة، مريضاً، جريحاً، يصارع الموت، وكانت روايته مثيرة للرعب.

كانوا قد ساروا أياماً وأياماً وأياماً، يقتحمون فيها أسرار الأرض غير المكتشفة؛ والمسافات، أمام النظر، تزداد اتساعاً. وأخذ الزاد يشح ويقترب من النفاد؛ بعض الرجال وقع فريسة للأمراض، وبعض آخر داهمه اليأس والقنوط. ذات يوم قدّموا نصيحة لدون كارلوس، اقترحوا عليه أن يعودوا أدراجهم، لكنه لم يستجب إليهم: لقد ذهبوا بحثاً عن الذهب ولن يعودوا قبل العثور عليه. أصبح سيرهم أكثر مشقة، وتقدمهم أكثر صعوبة. كان الدليل يصر باستمرار على القول إنهم على وشك الوصول، وكانوا، على الرغم من أرواحهم المنهكة، يبذلون أقصى قواهم، ويسيرون لساعات وساعات عبر نفس الجبال المتشابهة والمرعبة، وكأنهم يدورون ضمن حلقة مغلقة. كانوا يسيرون في أماكن لم يسبق لأحدهم أن اجتازها، وحيث يستحيل التعرف على اتجاه السير الصحيح. كانوا يمرون أحياناً ببعض الهنود الرُّحل، لكن هؤلاء كانوا سرعان ما يفرون لدى مشاهدتهم بأسلحتهم ولحاهم الطويلة. وأخيراً قرروا التوقف لعدة أيام لاستعادة قواهم والعناية بالمرضى.. كانوا يأكلون جذور النباتات، وأحياناً

يصطادون أحد الحيوانات بصعوبة بالغة.

ذات صباح، لم يعثروا على أي أثر للدليل. لقد اختفى بصورة غامضة خلال الليل. لم يشاهده أحد، ولم يشعر أحد بتحركه. استولى اليأس على الجميع، وأخذ بعضهم يصرخ ويبكي كالأطفال. كانوا يرون نهايتهم أمام أعينهم، وأنهم لا شك سيموتون جوعاً. أحدهم أقدم على أمر: تصرَّف بصورة منفردة، ودون التشاور مع الآخرين، وجاءهم بلحم طازج، فأكل الجميع بنهم وشراهة دون أن يسأل أيٌّ منهم سؤالاً واحداً، مع أنهم أدركوا جميعاً أنه كان لحمَ هندي. وتكرر الأمر في اليوم التالي، وفي الذي تلاه، إلى أن لم يتبقَ منهم سوى الإسبان.

عادوا من جديد يعانون الجوع وفقدان الأمل. تحملوا ذلك لأيام عدة، إلى أن بدؤوا يفقدون صوابهم، فتخلوا عن مرضاهم، وراحوا يسيرون كالأشباح، بخطوات متعبة ويائسة؛ لم يعد باستطاعتهم التمييز بين الأشخاص والأشياء، أصبحوا كأنهم يسبحون داخل حلم. ساروا ساعات، وربما أياماً، كان زمناًَ غامضاً ومبهماً ورتيباً. أحدهم سمع ما يشبه خرير مياه، مياه غزيرة، وآخر كذلك، وثالث. ركضوا باتجاه الصوت: كانت ضفة نهر عريض، تنساب مياهه ببطء. غمروا رؤوسهم العطشى بماء النهر إلى أن ارتوت وتخدرت وترطبت. كانت متعة مفاجئة شحذت فيهم الهمم والأمل، وأخذوا يتراشقون بالماء دون وعي. واقترح أحدهم: تعالوا نصنع عبّارة تنقلنا مع مسار النهر.

بادروا فوراً إلى العمل، وقاموا بصنع عبارة ذات مساحة كافية للجميع، استخدموا لصنعها أعواد الخيزران وأغصان الأشجار وقطع الثياب. أنزلوا العبارة إلى الماء، ثم صعدوا إليها، وانطلقوا بها. ومع حركتها الهادئة الرتيبة المسترخية، والتدفق الصامت لمياه النهر، والتعب، والجوع، تسلل إليهم إغراء للنوم تستحيل مقاومته، وشيئاً فشيئاً استسلموا إليه بالكامل. ومع انقضاء نصف النهار لم يكن بينهم سوى مستيقظ واحد، منتبه، يراقب مسار العبارة. هذا المستيقظ بدأ يسمع ضجيجاً بعيداً أخذ يقترب ويتصاعد شيئاً فشيئاً، إلى أن تحول إلى دويّ هادر. انتصب واقفاً فرأى سطح النهر وكأنه قد اقترب من نهايته. أدرك أنهم قد وصلوا إلى منحدر مائي، وربما إلى شلال

سحيق. شحذ الخطر كل قواه، وراح يهز رفاقه ويصرخ، لم يستجب أحد منهم، كانوا كالجثث، يتقلبون بين يديه مثل أكياس محشوة بالخِرق، ضربهم بكل قواه، لكن ذلك كله كان بلا جدوى، والمسافة تتقلص ثانية بعد أخرى. وفي لحظة يأس قفز إلى الماء، واستطاع بما تبقى لديه من طاقة أن يبلغ ضفة النهر. ومن هناك، شاهد، مذهولاً، اقتراب سقوط العبارة، وأخذ يصرخ: "تحركوا، أنقذوا أنفسكم! ستموتون! دون كارلوس!".. ولم يجبه أحد. عندئذٍ، جثا الرجل الهزيل المنهك على ركبتيه، مستسلماً، زائغ العينين، وهو يردد بصوت متهدج تراتيل وداع زملائه. كانت المياه تزمجر، بينما أشلاء العبارة بمن عليها تغوص في لجة المياه المجنونة.

هذا ما رواه الرجل الذي عاد بعد أن نجا بأعجوبة.

كانت ابنة دون كارلوس تستمع وهي عاجزة عن استيعاب ما جرى. بكت، وبكت، وانهمرت، وانهمرت دموعها... ثم... تخلت عن صلواتها، وأخذ جسمها يزداد ضعفاً وهزالاً، وأصبحت تمضي كل أوقاتها شاردة أمام إحدى شجرات فناء المنزل، أو وهي تغني كالأطفال، مرددة ومكررة مجموعة من الكلمات بصوت متعب متلاشٍ، وساد الاعتقاد بأنها قد جُنَّت.

أمام المقعد الذي كانت تجلس عليه في الأمسيات، وصل ذات مرة دون خوسيه فونتا ومعه ابنه مانويل وأحد الرهبان. أمسك دون خوسيه بيدها ووضعها في يد ابنه. فتح الراهب كتاباً صغيراً وبدأ يرتّل تراتيل الزواج باللاتينية. وكانت هي تتابع ترنيمتها الرتيبة. سألوها عن أمرٍ ما وأجابت بالإيجاب. رسم الراهب إشارة الصليب في الهواء، ثم ضم كفيه وانسحب. قبَّلها دون خوسيه على جبينها ثم انسحب هو الآخر. واستمرت تردد ترنيمتها الطفولية أمام مانويل، الذي كان ينظر إليها بعينين نهمتين.

هكذا انتقلت أراضي دون كارلوس دي آرثيدو إلى أيدي دون خوسيه فونتا. وجاء نسب آل فونتا ليحل محل نسب آل آرثيدو، وأخذت تلك المستعمرة تتوسع مع الأيام بضمّ المزيد من الأراضي إليها.

أغنياء وعبيد،... وفراغ،... ونمط حياة بطيئة وكسول توارثه جميع أولئك الذين تعاقبوا على الإقامة في تلك المستعمرة: ثرثرة مستمرة، حياة اجتماعية شبه غائبة، تباهٍ كثير، سفر قليل، وشيء من القراءات الدينية....

بعض آل فونتا ذهب إلى العاصمة لمتابعة الدراسة بعد أن تم إحداث المدرسة البابوية الملكية، وبعض آخر ذهب إلى الميليشيات المسلحة، وآخرون بقوا للإشراف على الأملاك.

وهكذا أصبح أنطونيو، ابن مانويل، متخصصاً بارزاً باللغة اللاتينية، ووصل إلى منصب كاهن قانوني، وترك مخطوطاً لم يُنشر يتضمن دراسة حول "الإغواءات العصرية للشيطان".

وأصبح لويس، حفيد مانويل، كولونيلاً في الميليشيات المسلحة، وكان رجلاً قبيحاً وسكيراً شهيراً.

وابتعدت خوسيفا، حفيدة مانويل، عن ذلك العالم الرتيب، وأصبحت راهبة.

كانت ذرية قبيحة، متعجرفة، معتلة، تمتلئ أرواحها بإرث متناقض؛ الأجداد المغامرون، والمتدينون، والرجال السيئون، والمجانين، والذين أقاموا المؤسسات الكبرى، والسكيرون واللصوص. مع تمازج لبعض دمائهم مع بعض دماء الهنود، وبعض من دماء الزنوج.

في هذه السلالة، ولد فيرناندو فونتا عام ١٧٩٠.

كان طفلاً ضعيفاً، مريضاً، شديد الحساسية، أمضى سنواته الأولى شبه وحيد مع شقيقته إينيس، التي كانت هي الأخرى ذات بنية ضعيفة. وقد حفرت طفولته هذه، التي أمضاها في الـ" آلتار"، عميقاً في ذاكرته.

تعوّد فيرناندو القيام بنزهات عبر تلك الأملاك مع إينيس بصحبة أحد العبيد،

واكتسب بسبب نوعية تلك الحياة، التي لم تكن له فيها صلة بأحد باستثناء شقيقته، طبيعة تميل إلى الصمت والانزواء.

كان الوالدان منصرفين إلى حياتهما دون إعارة اهتمام كاف لولديهما. الوالد، سانتياغو، كان رجلاً عديم الشفقة، عنيفاً، منعزلاً. وكانت الأم تمضي طوال أيامها في الصلاة والترتيل.

أما الآخرون فهم العبيد الذين كانوا يتعاملون معهما بكثير من الاحترام؛ لم تكن هناك صيغة المخاطبة "أنت"، تعبيراً عن مشاعر الثقة والمودة، كانت هناك فقط كلمة "حضرتك" مع الأبوين[١]، أوكلمة الخدم "سيدي".

سكنُ العبيد مجاور للمنزل، وعندما كان الطفل يخرج للتنزه، يتوقف أمامهم وهو يتأملهم لفترات طويلة. وكان سكنهم هذا ينخفض عن مستوى الأرض مثل الأقبية، له نوافذ صغيرة مربعة الشكل، مزودة بشبك حديدي يسمح بمرور القليل من أشعة الشمس. هناك كان الرجال ينامون متكومين على الأرض العارية، ومن يتزوج يسمح له ببناء كوخ صغير منفصل وقريب، وكانت الأبواب تغلق على النساء بالمفتاح خلال الليل.

كان الجميع أنصاف عراة، قذرين، ذوي سلوك بدائي، مستهدفين للعقاب

---

(١) . في اللغة الإسبانية تُستخدم صيغة التخاطب Tú "أنت"، في العلاقة غير الرسمية، وصيغة التخاطب Usted "حضرتك"، في العلاقة الرسمية. . المترجم .

باستمرار، بالضرب، أو بالحرمان من غذائهم القليل.

كان الطفل يتأملهم بمشاعر غير قابلة للتفسير، وهو يرى كل تلك الأكوام من الأجساد السود المتألمة المستسلمة. وأحياناً كان يراهم وهم يتناولون طعامهم، حيث يمرون في صف طويل أمام قِدرٍ كبير تُطهى فيه بعض قطع اللحم والخضار وآلاف الأشياء الأخرى التي تمزج معها بطريقة تثير الكثير من الاشمئزاز؛ فيلتقطونها بأيديهم ليضعوها في صحون متشققة من الخزف الرخيص، وكل منهم يمد يديه إلى

صحون الآخرين، ملطخين كامل وجوههم بما يتناولون، وهم يبصقون ويتصايحون.

أحيانا، كانت تُسمع صرخات بعضهم بسبب اعتداء أحد اللصوص، أو بسبب تلقّي عقوبة على كسل أو على اغتصاب فتاة.

كانوا ماهرين في الفنون اليدوية، بعضهم كان يؤلف الأغاني الطويلة ويؤديها مع الغيتار. وبعض آخر كان يمارس السحر ويحظى لذلك باحترام الآخرين.

في بعض الأيام، كانوا ينتهزون فرصة غياب المراقب، فيتحلقون حول الطفل متوسلين متضرعين، فيقف هذا الصغير الشاحب وسط دائرة من الرؤوس السود التي تطبق عليه وهو يستمع إلى أغرب الطلبات: "آي، يا طفلي دون فيرناندو، يا قلب العصفور الصغير، وفِّر لي إذناً كي أذهب إلى القرية"!. "ياسيدي الصغير دون فيرناندو، الجميل، ساعدني بأن لا أُكلف اليوم بأي عمل، فأنا مريض". "دون فيرناندو، المغطى بالذهب، جعل الله من جهنم مستقراً لجميع أعدائك".

وعندما يأتي المراقب، كان يفرقهم بهراوته، ثم، لتبقى مع الطفل أصداء تلك الأرواح المتألمة العارية.

كانا، هو وشقيقته، يصليان معاً، ومعاً يطلبان البركة لوالديهما، اللذين يمضيان الليالي صامتين ومتباعدين، هذا الأمر الذي لم يعرف فيرناندو سببه إلا بعد زمن طويل.

كثيراً ما كانت تروق لدون سانتياغو إحدى الفتيات من الخدم، فيجلبها المراقب إليه ليلاً، وعند سماع العبيد صرير باب "مستودع" النساء، كانوا يبتسمون، مدركين ما تعنيه هذه الجلبة.

ضبطته زوجته ذات مرة وهو يرتكب فعلته هذه، فكان بينهما نزاع صاخب، ثم راحت تطلب من القديسين أن يهدوه سواء السبيل.

وفي أحد الأيام، خرجت سيراً على قدميها وهي ترتدي لباس الحداد، وذهبت الى

المصلّى القائم في القرية المجاورة: يداها مضمومتان الى صدرها وعيناها مطرقتان، وهي تصلي بصوت مرتفع، ورافقها عدد كبيرمن العبيد الذين رددوا تضرعاتها مثل "كورس"، وكان الذين يلتقونها على الطريق الطويل يجثون على ركبهم. وبعد ساعة في المصلّى، عادت بنفس الطريقة الصاخبة. هذه الصورة التي شاهد فيها فيرناندو أمه، وهي مرتدية ذلك الثوب الغريب، وتسير في عز الظهيرة، لم تغب عن ذاكرته لحظة واحدة.

شعر الزوج بالإهانة بسبب ذلك الفعل العلني والاستعراضي، وهو ما أدى إلى أن يصبح الاثنان أكثر افتراقاً من أي يوم مضى.

ماتت الزوجة فيما بعد بصورة غامضة، وقد رآها ولداها وهي ممدة فوق سريرها، بلا زهور، مرتدية نفس الثياب التي مشت بها إلى المُصلّى، يضيء وجهها ضوء أصفر ينعكس من شمعة هائلة الحجم.

بعد ذلك أصبحت علاقة فيرناندو وإينيس بأبيهما أكثر توتراً. كما أصبحا يرتديان السواد بصورة مستمرة، وسط طبيعة خضراء، وخدم بدائيين، وأبٍ قاس. كانا في وحدتهما وحزنهما، حالة شديدة التناقض مع محيطهما.

بدأت ترافقهما خادمة عجوز كانت تعمل لدى والدتهما، فتذهب معهما في نزهاتهما وتقوم بتعليمهما بعض الصلوات، وتروي لهما حكايات العائلة وبعض القصص حول الزنوج مما يحفل بالصور المخيفة.

في ظهيرة أحد الأيام، وكانا يجلسان مستندين إلى جذع شجرة كبيرة، يداعبهما النعاس مع حفيف أوراق الأشجار، راحت الخادمة العجوز تروي:

"عندما وُلد الرب كان طفلاً صغيراً جداً، صغيراً جداً، مثل "بارابارا" (١)، وكان القديس يوسف النجار والسيدة العذراء يصليان. كانا يعيشان ضمن أملاك رجل مريض، لطالما أوقع الكثير من الأذى بالزنوج المساكين وبجميع الناس. لقد أغواه الشيطان.

يا مريم البالغة الطهر! كان الرجل المريض هو الملك، وكان يرتدي ثياباً مذهبة، وقبعة وردية، ويعيش في منزل كبير، ولديه بغلات عديدة. كان يقيم ولائم تحفل بلحوم الخنازير والـ"غوارابو" (٢). وأراد الملك أن يقتل الرب وهو بعد في المهد.

وذات يوم قال للوكيل: "أيها الوكيل، تعال إلى هنا! ستخرج الآن حالاً، وتقتل لي جميع الأطفال. هل فهمت؟ ولا أريد أن ينجو منهم أحد". وقال له الوكيل: "هذا ما سأفعله"، وخرج. وشرعوا بقتل الأطفال.

وقد أثارت الدماء والصرخات والعدد الهائل من القتلى، الرعب في النفوس. ولقد قُتل وقُتل أناس! وقُتل وقُتل أناس!. لكن الرب، آه، لقد نبهه أحد الملائكة وأنقذه على حماره. عندئذ ذهب الوكيل الى منزل الملك وقال: "لقد قتلناهم جميعاً". فأقام الملك حفلاً هائلاً زاخراً بالحلوى والزبدة. لكنْ فيما يتعلق بي، فأنا لم ينلني أي نصيب من هذا...".

---

(١) . Parapara ثمرة صغيرة الحجم لشجرة تحمل نفس الاسم.

(٢) . Guarapo مشروب كحولي يصنع من قصب السكّر . المترجم ..

من البهو، وعبر الدهليز الطويل الذي يقود إلى الشارع العريض الترابي، يبدو السور البارد لدير الراهبات، والجدران ذات الألوان المتعددة، المزروعة بنوافذ خضر، وبعض أشجار الساحة الكبرى، وجانب من ذرى السلاسل الجبلية.

هذا هو ما يشاهده الآن وهو في منزل آل لاثولا.

عندما وصل مع والده، كان قد شاهده بصورة مختلفة.

. فيرناندو سانتياغو دي ليون دي كاراكاس . قدّمه دون سانتياغو بصوت احتفالي، وهو يشير بإصبعه باتجاه التلال المتناثرة في أعماق الوادي الفسيح الأخضر ..

لقد استغرق في التذكُّر.

معابد هائلة، تفيض بألوان ذهبية تزيد في توهّج أضواء الشموع، حيث شاهد في الاحتفالات الرسمية، وصوت الأرغن يصدح، رئيس الأساقفة البارز "دون فرانثيسكو إيبارّا" [١]، والحاكم العام "دون مانويل دي غيفارا فاسكونثيلوس" [٢] وهو

يمر بكل مهابة وأناقة بين صفين من رجال الحرس المدججين بأسلحة فولاذية تلتمع.

---

(١) . Francisco Ibarra (١٧٢٦ . ١٨٠٦)، تولى رئاسة جامعة كاراكاس من ١٧٥٤ وحتى ١٧٥٨. أصبح كبير أساقفة غوايانا عام ١٧٩١، ثم كبير أساقفة كاراكاس عام ١٨٠٤.

(٢) . Manuel de Guevara Vasconcelos من مدينة سبته، كان حاكماً لفينزويلا من ١٧٩٨ وحتى وفاته عام ١٨٠٧ في كاراكاس، وكان يتولى فيها أيضاً رئاسة الأكاديمية الملكية.

في الداخل، البخور، وفي الخارج، جنون الأجراس، وعلى الأرصفة، كهنة وخريجو جامعات وعسكريون وصعاليك وحمير حمّلها أصحابها بالفواكه.

عيناه مستغرقتان باتجاه ما يراه من المدينة، وما أصبحت عليه الآن.

كان حتى سن السادسة عشرة يعيش في الـ"آلتار" الى جانب أبيه وأخته، خجولاً متردداً، يشعر أمام اتخاذ أبسط القرارات أن مئات الأصوات تتعالى لتربكه وتتجاذبه. لم يكن قادراً على الإطلاق، طوال هذه السنوات، على تبني أية فكرة بمفرده.

عندما أكمل السادسة عشرة من عمره، قرر والده إرساله إلى العاصمة كي يتابع دراسته في المجال الذي يميل إليه. كتب إلى صديق قديم، دون بيرناردو لاثولا، الموظف في المجلس الإداري للمستعمرة، يسأله فيما إذا كان يوافق على استقبال ابنه في منزله طوال الفترة الضرورية، معرباً عن استعداده لسداد جميع التكاليف اللازمة. وأجابه لاثولا موافقاً. وغادر الـ"آلتار" بصحبة والده، بعد أن ودّع إينيس بتأثر بالغ.

أمضيا أياماً عدة قبل أن يبلغا وادي كاراكاس، يتبعهما بعض العبيد.

كانوا يتوقفون للمبيت في أملاك بعض الأصدقاء، الذين كان استقبالهم دائماً غاية في السخاء.

أخيراً، وعند ضفاف الـ"غوايره" (١) شاهدا السور الكبير البنفسجي، الذي كانت تغطيه غيوم بيض كثيفة. لقد وصلوا إلى المدينة، وهاهي الشوارع والساحات الظليلة، الكنائس والأديرة الفسيحة. وحول برك الماء نسوة سُمر بثياب زاهية الألوان يملأن جرارهن، وفي الساحة الكبرى، السوق بمعروضاته الجميلة الجذابة.

---

(١) . El Guaire اسم نهر يخترق كاراكاس من الغرب إلى الشرق.

هكذا كانت البداية.

تحت سقوف ذات قرميد أحمر، تقوم منازل فرِحة الألوان، بنوافذ حديدية ودهاليز. ثم أشجار قصيرة وكثيفة، وأزقة ملتوية، ونهر يوحي بالألفة، وعديد من الأبراج البيض.

أمام منزل آل لاثولا، خرج صاحب البيت لاستقبالهما بفرح صادق، وإلى جانبه ابنه، الذي يحمل كذلك اسم بيرناردو، وهو طالب فلسفة. وفي الداخل استقبلتهما الزوجة، دونيا آناماريا، ذات الإطلالة المحترمة والنبيلة.

أخذ فيرناندو يتأمل الناس والمنزل بفضول، هنا سيتابع حياته، إنه عالم جديد غير معتاد. وشعر بأنه قد أصبح أمام منعطف مفاجئ.

راح ينظر إلى البهو المضاء، المحاط بالممرات؛ وإلى الجدران المطلية بالجير الأبيض، وشجرة النخيل التي تنتصب في العمق، والمقاعد الجلدية الوثيرة، وابتسامة سيدة البيت المرحبة، ونباهة الشاب الآخر وتعبيره الودود. إنه في عالم مختلف لم يكن يتوقعه.

لقد تبدلت حياته، تبدلت الأمور التي كان على صلة يومية بها. عندما غادر دون سانتياغو عائداً ووصل إلى زاوية الشارع وهو يكرر كلمات الشكر والوداع، وبعد أن غاب عن الأنظار آخر العبيد الذين رافقوهما من الـ"آلتار"، بدأ فيرناندو يدرك أن كل شيء قد تبدل فعلاً. أصبح حاضره، بمعنى ما، منفصلاً عن كونه امتداداً لماضيه.

حقاً لقد تبدل الأمر، فأبوه وأخته بعيدان. أما هنا، فمعه دون بيرناردو ودونيا آنا ماريا وبيرناردو. الآن، إنها المدينة.

أصبح صديقاً لبيرناردو ورفيقاً لا يفارقه. كانا يدرسان معاً، ويتناقشان حول مواضيع الدراسة، ومعاً يخرجان. كان بيرناردو شهماً ومتعاوناً، يساعده في التعرف على الحياة في المدينة ويجمعه برفاق الدراسة في الجامعة. كما كان دون بيرناردو يدعوه أحياناً إلى المسرح. وفي بعض الأيام كان الصديقان يتابعان بكثير من المتعة

بعض الصبايا في الأزقة الضيقة وهن يسرن في المواكب الدينية يحملن الشموع وقت المغيب.

لقد تغير الآن كل شيء.

لم تعد هناك النزهات المتمهلة تحت أشجار الرابية في الـ"ألتار". أصبح الآن يأتي من الجامعة، ويذهب إلى الجامعة، هكذا هي الحال اليومية. وفي المساء، عندما يغلق عينيه وهو مستلقٍ فوق سريره، وقبل أن يغفو، يأخذ باستعادة الأيام الماضية. هناك،.. كان الكاهن العجوز الذي يدرّس اللاتينية، بثوبه العتيق الذي كان أخضر ذات يوم، بصلواته البطيئة المتكررة، وتراتيله الرتيبة.... لا، الآن أصبح يرى أستاذ الفلسفة، العالِم المقلّ في الكلام، ويتعلم منه كيف يخترق ظواهر الأشياء بحثاً عن أسبابها وماهيتها. هناك، كان يرى وحسب، لكنه الآن بدأ يحاول أن يفهم. النعمة الأفلاطونية والفعالية الأريسطوية. أريسطو، هذا المعلم الإلهي، وتوما الاقويني، وجميع أولئك الذين عرفوا وأدركوا أعماق الأمور. هو الآن بالتأكيد شخص آخر. كان يشعر بنشوةِ تَحَوّله إلى الفهم. بدأ يدرس المنطق، وأعجب بالآلية الشفافة للتفكير، والفرضيات الكونية المختلفة والمتناقضة، وقواعد القياس المنطقي، ومسألة الأجرام والكواكب.. لقد تبدل، لم يعد كما كان.

كان أمراً ممتعاً بالنسبة إليه أن يغلق عينيه وينطلق متوغلاً داخل نفسه، متخلياً عن الواقع، عن الحقيقة، أية حقيقة؟ فهذه الحقيقة التي تحيط بنا، يمكننا أن نلغيها بإغلاق أعيننا، ونأتي بحقيقة أخرى. آه! إنها مثل نشوة إلهية. إنه نفسه "البحث عن الله في داخلك". ويبكي منفعلاً، فتتبرعم دموعه بين جفونه شبه المطبقة. قرأ لـ Vergil:"هنا ينهض النظام العظيم للعصور في كماله...، ويهبط جيل جديد من أعالي السماء". من أعالي السماء يهبط ما هو جديد، سيهبط ما هو جديد، من أعالي السماء إلى بحار النفس العميقة. بحار النفس. الرياح تهب عليه من طرق متعاكسة ومتضاربة. الرياح ذات الرنين. يتوقّف عن البكاء. إنه يشعر الآن بضجيج غامض. صدى رنين الرياح يتسلل عبر أوراق الأشجار داخل البهو، صدى رنين بعيد،.... وبدأ

يستسلم للنوم. لقد نام، وأصداء أصوات مبهمة تدوّي في كيانه.

كان يجتمع، بين حين وآخر، في الصالة الكبيرة لمنزل دون بيرناردو، المزدانة بالكثير من الستائر الحمر، عدد من الأصدقاء المختارين، وهذا ما شكّل لفيرناندو فرصاً للتعرف بأبرز أهالي المدينة: ملاّك أغنياء ورجال كهنوت وموظفون كبار. كانت هذه اللقاءات تحصل في الأمسيات. تصل السيدات ويجلسن مع دونيا آنا ماريا في ركن متطرف من الصالة ليبدأن حديثهن، جميعهن في وقت واحد، ودون أي توقف، بينما يتحلق الرجال ضمن مجموعات في زوايا أخرى أو في الممرات وهم يتناولون النشوق ويتحادثون بطريقة رسمية ومتكلفة.

وكان الخدم العبيد يمرون ببزاتهم البيض مع المرطبات والشوكولاته والحلوى. وأحاديث الرجال تتعالى وتتشعب، حول الزراعة، والسياسة الأوربية، والاحتفال الكَنَسي القادم.

قام دون بيرناردو بتقديم الشاب الجديد:

. أيها السادة، أسمح لنفسي بأن أقدم إليكم دون فيرناندو فونتا، ابن صديقي القديم دون سانتياغو، وقد جاء لمتابعة دراسته، وهو يعيش معي.

شعر فيرناندو بالارتباك وهو ينظر إلى تلك الوجوه الصارمة التي كانت تتأمله بتمعنٍ وتأنٍّ مزعجين.

تحدث رجل مسن تكسو عارضيه لحية شيطانية:

. آه! إذن فأنت طالب؟ حسنٌ جداً! حسنٌ جداً! هل تدرس حضرتك علوماً دينية أم دنيوية؟

. دنيوية، أجل، أيها السيد.

. أووه! حسنٌ جداً، ليس لدي ما أقوله لحضرتك إلا تقديم تهانيّ القلبية. لكن، آه!.... يا صديقي، إن كنيستنا المقدسة تحتاج إلى رجال، وتحتاج معركة المسيح إلى

محاربين شجعان. العصر والعالم ينتشر فيهما الفساد. الناس يدرسون فقط من أجل التباهي الفارغ والزهو بمعارفهم. إنهم يدرسون البيان والبلاغة! ماذا تفيد الكلمات إن لم نوظفها من أجل هدف سامٍ مقدس؟

وتدخل رجل كهنوت كان يتابع الحوار:

. آه، يا صديقي الموقر، أي فرح لقلب مسيحي أن أسمع كلماتكم! افرحوا، وكأنكم تجلسون إلى مأدبة تضم الطعام اللذيذ. الحق مع حضرتك، يا صديقي الموقر..

كان فيرناندو يقف بينهم وهو يستمع إلى تلك الكلمات بكثير من الدهشة والذهول. هؤلاء الناس المهمون، المتكبرون، الذين يتحدثون بطريقة خطابية زائفة، أثاروا لديه شعوراً بالاشمئزاز والنفور. ليس بينهم من يقول الحقيقة. كل ما كان يسمعه هناك هو كذبٌ ونفاق، وكل منهم يقوم بخداع الآخرين. كلمات باردة، تقليدية، لا يمكنها التعبير عن مشاعر صادقة، لابد أنهم أناس سيّئون.

. الحق مع حضرتك. أين هم أولئك الأقوياء الأشداء الذين يحمون العقيدة، وأولئك البحارة الشجعان من الدعاة، ونسور اللاهوت الحقيقيون؟ من الضروري أن يعود الفكر من جديد للاهتداء إلى طريق الله. إن ديننا المقدس يتعرض للإهمال بصورة إجرامية!

. جيدٌ ما تقوله حضرتك، يا أبتِ وصديقي الفائق الاحترام. كم أشعر بالتقدير لعظمة الكنيسة المقدسة، الحقيقية، وكم أعاني من الألم لأن الله لم يرزقني بالأبناء الذين كنت سأجعلهم ينصرفون فقط لخدمته...

كان فيرناندو يستمع ويفكر.... ويفكر.... كانت المدينة ملآى بالأديرة والكنائس، في كل أسرة كاهن أو راهبة. كان الناس يقدمون في الأعياد الدينية كل ما لديهم، وهم يتبرمون من أن الكنائس قليلة وصغيرة. وفكَّر.... ترى ماذا سيحصل لهذا العالم لو قام جميع الناس بتقديم ما يملكونه إلى الكنائس، وإذا قام جميع الآباء بتفريغ

أبنائهم فقط من أجل خدمة الله؟

.... يتفرغون لخدمة الله، وللحياة الأبدية، مبتعدين عن العالم الكريه.... وأضاف أحدهم:

. مقابل بضعة أيام بائسة على هذه الأرض البائسة، مقابل بضع ساعات بائسة نخصصها لشعائرنا المقدسة، نكسب نعمة الأبدية. لنغيّر هذا العالم القبيح المليء بالإغواءات الشيطانية الدنيئة، في سبيل الفوز بالنعيم الأبدي للحضور المقدس.

..أين هم أولئك الذين يجرؤون على الشك بمثل هذا الاختيار؟ أروني هؤلاء الذين سيهلكون في ظلمات الخطيئة!

كان جميع الرجال يهزون برؤوسهم موافقين، وقد أخذ يوحد فيما بينهم شعور بكراهية هذا العالم.

. إن الأمر لكذلك، يا صديقي المحترم؛ ليست هناك عظمة بعيداً عن الله. عظيمة هي كاثوليكيتنا المهيبة، لأنها تخدم الكنيسة. جيدٌ أن يبلغ الرجال النجاح، لكن ليس على الطريق الخاطئة. إن من يدرسون الفلسفة يرتكبون خطيئة العجرفة، والذين يقرؤون الأدب الدنيوي يقترفون إفساد الروح....

وفكّر فيرناندو، كل هؤلاء الناس يعيشون منغلقين على أنفسهم طوال أيامهم، وعندما يخرجون لتناول المرطبات في بيت أحد الأصدقاء، يتحدثون عن العالم بهذه الكراهية. هل العالم هو السيّئ، أم أنهم هم السيئون؟

.... هل أن الانشغال غير الطيب للروح، هو ما يأتي بمتعة أخرى، غير المتعة الإلهية؟ وهل صحيح أنه ليس هناك علم آخر غير العلم المقدس، ولا أي نشاط إنساني غير ممارسة الشعائر والحياة الدينية!..

كانت الأفكار تضج في روحه وتحرك مشاعره بصورة متضاربة، وأصبح رنين أصواتهم يتجاوز طاقته على الاحتمال، وأرهقه الطغيان المتواصل للموضوع الديني

وأثار توتره.

ودون أن يودع أحداً، انسحب خارجاً من الصالة.

.... العلم هو الشكل الأخير لإغواءات الشيطان كي يكسب النفوس المتفاخرة.... عَبَر إلى البهو، مشى بضع خطوات، ثم اضطجع على الأرض، قريباً من جذع شجرة النخيل الغارقة في زرقة السماء الصافية. ولم يشأ أن يفكر في أي شيء.

كان التفكير يشكل إغواءً له، كتحريض لإخضاع الحياة إلى مبدأ، إلى نظام، إلى قاعدة. أخيراً، فكر باتخاذ قرار، والقرار كان الاستغناء عن الكثير من الأمور الممكنة والمرغوب بها.... ثم، الأفضل الآن هو الاستمرار في الاستلقاء على الأرض دون التفكير في أي شيء.

كان يذهب مع بيرناردو إلى الجامعة، ويترافق لدى الخروج منها مع بعض زملائه للتحدث أو للذهاب في نزهة إلى الحقول القريبة. عرَّفه بيرناردو ببعض الطلاب: غاسبار لويث، الذي كان يدرس علم اللاهوت، وأنطونيو ثيلينا، الذي يتابع دراسة الحقوق، وخوسيه سالغيرو، طالب الطب، وكارلوس إيرون، الذي كان يدرس الغناء والموسيقا.

كانوا، عندما يذهبون في نزهة، يتناقشون، ويسرقون الفواكه، ويصطادون العصافير؛ لكن الطباع والميول الشخصية كانت متفاوتة فيما بينهم.

وأحياناً كانوا يتحدثون عن رغباتهم فيما يودون أن يصبحوا عليه.

ـ أنا، في الجيش ـ قال بيرناردو.

كان أنطونيو ثيلينا قد بدأ يشعر بعقم دراسة الحقوق، وبالملل من أكوام القوانين وتفاصيل المرافعات وتدقيقات المفسرين وبلادة المبادئ.

ـ أنا، أي شيء ما عدا إجازة الحقوق! إنها دراسة لا معنى لها. أن تمضي

حياتك وأنت تعقّد حياة الآخرين، ليست هذه مهنة محببة إليّ.

ويركضون. ويتعرقون.

. أنا سعيد بأني قد فرّغت نفسي للعلوم الإلهية . قال غاسبار لويث .، أستطيع الاستغناء عن العالم دون أسف. أشعر بأن هذا هو الاختيار الحقيقي. أفضل ما في الإنسان روحه، وهي التي تقربه من الله.

عندئذ قاطعه سالغيرو، السطحي، المتهور، العنيف، بادئاً باستعراض معارفه الأولى في الطب:

. هذه أفكار قديمة وتافهة. الإنسان مكون فقط من الجسد. ابحثوا لديّ أين هو مكان الروح في جسمي. ابحثوا عنها، ولنرَ إن كنتم ستعثرون عليها.

تدخّل الآخرون وهدَّؤوا من حدة النقاش، ولكي يتم تجاوز هذا الأمر بسرعة، انطلق إيرون، الذي لا تعنيه الأمور المادية ولا الروحية، يغني بصوته الجميل أغنية رشيقة لطيفة.

عاد الجميع للجري واللعب تحت أشعة الشمس الحارقة؛ لكنّ الأفكار استمرت تضطرم وتتفاعل في بال فيرناندو، الذي كان مستاء بسبب ما حصل.

ذات يوم، وكان النقاش بين سالغيرو ولويث قد تجاوز الحدود المعتادة، تماسك الاثنان بالأيدي، فتحلق الآخرون حولهما لمشاهدتهما وهما يتعاركان، مع تحريضهما بالصرخات والدفع بالأيدي.

. اضربه على رأسه! اضربه بقوة!!

تمزقت سترة سالغيرو، أما الآخر فقد سال الدم من أنفه، ولاحظ زملاؤهما أن غاسبار لويث لم يفعل شيئاً للدفاع عن نفسه. كان يتلقى الضربات ويتحملها دون أية ردة فعل، حتى تعب المعتدي من توجيه لكماته إلى هذه الكتلة الساكنة، فتوقف.

توقف، وأصلح قدر الإمكان من وضع سترته، مرّر كفيه فوق شعره المبعثر، ثم

عاد واتجه من جديد نحو المهزوم وصرخ في وجهه:

. جبان، لا تستطيع أن تنفي كونك ابن كاهن. من منكم رأى أحداً يسمى لويث؟ ابن كاهن! كاهن! جبان!!

أدار الآخرون ظهورهم للويث بحركة ازدراء، واصطحبوا سالغيرو وهم يعلقون ساخرين من ذلك الذي أسيئت معاملته،.. فانزوى، ثم مضى وحيداً في الاتجاه المعاكس.

انفصل فيرناندو عن المجموعة وأسرع الخطى للحاق بلويث، الذي فوجئ بأن أحداً رغب بمرافقته. كان أحمر الأنف، مجروح الفم، عيناه تختنقان بالألم.

لم يستطع فيرناندو منع نفسه من سؤاله:

. لماذا تركته يعاملك بهذه الطريقة السيئة؟ لماذا لم تضربه أنت أيضاً؟

. أنا دافعت عن نفسي في البداية.

. أجل، في البداية نعم، لكن فيما بعد؟

صمت طالب اللاهوت، إلاّ أن صمته زاد من انفعال فيرناندو.

. كان عليك أن تضربه بصورة أكثر قسوة مما فعل. كان عليك أن تقتله. جميعهم جبناء. لماذا لم تفعل ذلك؟

أخيراً، تكلم الشاب المسكين، بصوت متهدج ومتضرع:

. كنت أُفضّل أن لا أتحدث في هذا الأمر. أولاً لأن ذلك ربما يكون تفاخراً من قبلي، وثانياً لأني لا أعرف إن كنتَ ستفهمني. لكن، لا بأس؛ سأقول لك: أنا دافعت عن نفسي في البداية، إذ لم أكن آنذاك على حقيقتي، بل كان ذلك الحيوان الذي في داخلي. بعدئذ، أجل، كنت أنا فعلاً، وعند ذلك أدركت أن تلك الضربات إنما كانت توجه إليّ من قبل العالَم، وأن تلك الأيدي التي كانت تضربني إنما هي الأيدي المادية

للعالم، راحت تضرب الفكرة المقدسة التي أحملها؛ لذلك لم أستمر في الدفاع عن نفسي. فكرت بالله وبدأت استمتع ببهجة الشهداء، ولو أني كنت قد قُتلت لتحققت سعادتي.

لم يشأ فيرناندو أن يطرح مزيداً من الأسئلة. أطلّ الغسق الأحمر، الأخضر، البنفسجي، الذهبي. سار إلى جانب الفتى الآخر، الضعيف والصامت، جاهداً في محاولة فهم ما سمعه. العالم يسيء معاملة الروح، المادة تخوض المعارك ضد الله، الغسق البهي، الشمس العظيمة، الأشجار الكثيفة، الأنهار، الحيوانات، البشر، هم أعداء الله. الله لا يتحدث إلا مع الروح. الله هو الطريق الوحيدة، وإليه يمكن الوصول بالزهد أو بالشهادة.

الرفاق الآخرون، الأقوياء، الأغبياء، الذين يريدون أن يصبحوا عسكريين، كانوا قد ذهبوا معاً، وهو مضى مصطحباً هذا المسكين المعذَّب. تخلى عن الآخرين، عن السيئين، الماديين. التخلي عنهم أو أن يكون ضحية لهم. كان اختياراً جيداً أن يبقى في الجانب الأفضل. اختيار الروح.

دخلا شوارع المدينة، كانت الأضواء الصفر تبزغ من النوافذ.... توقفا عند إحدى الزوايا.

قال فيرناندو بصدق:

. ثق بي. إني أفهمك وأنا صديقك، وأريد أن نتقارب أكثر.

لم يجب الآخر بشيء، فشدَّ على يديه ومضى. وصل فيرناندو إلى المنزل مليئاً بفيض من مشاعر لم يسبق له أن أحس بها.

في الممر، كانت دونيا آنا ماريا تصلي، ودون بيرناردو يردد وراءها جاثياً على ركبتيه، وإلى جواره بيرناردو، وعلى مسافة قليلة منهم مجموعة الخدم العبيد.

جثا على ركبتيه في ركن منزو، بصمت. ومع ذلك، لاحظ أن بيرناردو كان

يراقبه بابتسامة خبيثة. واستمرت السيدة المحترمة تردد بصوت متمهل:

"السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة، الرب معك. مباركة أنت في النساء ومباركة ثمرة بطنك سيدنا يسوع المسيح".

وكان الكورس يردد وراءها بتمتمات مرتبكة.

لم يكن فيرناندو يصلي، كان فقط يتلهى بسماع ما يدور دون أن يعير انتباهاً كاملاً لما يقال. أغلق عينيه، وأحسّ وكأنه غارق في طوفان من المياه. لم يكن يصلي. لم يكن يفكر. بالكاد كانت تتداعى في ذهنه بعض الصور السريعة.... مجموعة الرفقاء الذين كانوا يبتعدون وهم يغنون على الطريق. أخته إينيس، الصامتة، بعينيها الكبيرتين الشاردتين. ذلك الركن من الـ"آلتار" حيث المسيح بلباس راعٍ وهو يجر خروفاً، وقد كُتبت الكلمات التالية:

"افرحوا معي، لأني وجدت خروفي الضائع! أقول لكم إنه هكذا يكون في السماء فرحٌ بخاطئٍ واحدٍ تائبٍ أكثر من تسعة وتسعين بارّاً لا يحتاجون إلى توبة"!

انتهت الصلاة المسائية، واقترب بيرناردو منه. رآه، فبقي صامتاً وتركه يتكلم.

. لماذا ذهبت مع الكاهن الصغير وليس معنا؟ لا تمشِ معه، سيعتقدون أنك غبي. هذا الكاهن الصغير هو شخص جبان.

كاد فيرناندو يجيبه، لكن شعوراً مريحاً بدأ يملأ نفسه دفعه إلى أن يصمت. تركه يكمل شتائمه، ودون أن ينطق بكلمة، مضى إلى غرفته.

بدأ يحب الوحدة، والاستغراق في التفكير. كان بقاؤه وحيداً يوفر له متعة ابتعاده عن العالم. كانت الوحدة محرضاً من أجل انتصار الروح، ومن أجل الانتقام من الجسد.

خطرت له فكرة أن يُمضي الليل وهو يتوب إلى ربه. تناول وسادة من فوق السرير وألقى بها إلى الأرض ثم جثا فوقها وبدأ يردد الصلوات اليومية. تراتيل بطيئة

تخرج بطريقة آلية لا تكاد تتصل بالنوايا. وكان في اللحظات التي يصمت فيها، يشعر بثقل الصمت الجاثم على امتداد المدينة النائمة. وفجأة أخذ يطلق جميع الصلوات التي يعرفها، أعادها خمس مرات، عشر مرات، كان كل ذلك مجرد ضجيج بلا طائل، ليس باستطاعته التأثير في صاحب القدرة الإلهية. أَحَسّ بأن هذه الصلوات لم تكن آنئذ ذات أي معنى. بدأ يشعر بالتعب، وأخذ الصمت المطبق يدعوه إلى النوم. في لحظات الصمت، في داخله، كان هناك صوت خافت يضع موضع الشك مدى فعالية هذه التوبة. ربما أنه خاطئ كبير؟ ألم يكن مثيراً للضحك، ألم يكن ذلك ندماً طفولياً؟ قرر أن يزيح الوسادة ويستمر جاثياً على ركبتيه فوق الأرض القاسية. بدأ يردد التراتيل التي تمجد الله وتتحدث عن سيئات الناس. ماذا لو أنه يكتفي فقط بالمرور في عز الظهيرة، إلى جوار تلك الأديرة التي تملؤها الأشجار ويخيم عليها الصمت والبرودة المنعشة؛ وسرعان ما استبعد هذه التصورات، إذ فوجئ بأنه أخذ يفكر كثيراً بالأمور السارّة. كان لديه الإحساس بأن جسده وروحه يتصارعان، وأن هذا قد يحرمه من نِعم الله. خطرت له حينئذ فكرة معاقبة نفسه وأن يؤدبها تأديباً قاسياً؛ تناول حزاماً جلدياً، طواه، عرّى نصفه العلوي؛ فعَبْر الألم يمكن له الحصول على النعمة؛ وبدأ ينفذ الفكرة. وعندما خاف من أن يوقظ الآخرين بصوت الضربات، توقف عن متابعة هذا التأديب. لكنْ عادت تلح عليه فكرة أن شيئاً ما يعترض طريقه إلى المغفرة. كان قد سمع حديثاً عن القديس أنطونيو، الناسك الذي خاض معارك ليلية كبيرة مع الشيطان. توصل إلى ما يشبه اليقين بأن الشيطان كان يعمل ضد هدايته، وأنه كان قريباً منه في هذه الليلة. في الـ"آلتار" كان قد سمع من الزنوج الكثير من الحكايات عن الشياطين، التي انطبعت في ذاكرته بطريقة مرعبة؛ مزيج من جميع الحيوانات المخيفة والمثيرة للاشمئزاز: وجه ضفدع، جناحا خفاش، جلد ثعبان، يدا قرد. كما سمع منهم أيضاً عن الشيطان الذي يسحب أرواحاً إلى الجحيم بالقوة، وبطريقة لا تقاوَم؛ إنها أرواح بائسة تندفع بعنف يتطاير بلهيب أزرق وأصفر. سيطر عليه الخوف. تصور أن من إحدى الزوايا المظلمة سيظهر له هذا الوحش الرهيب. أيُّ صوت من الأثاث، أيُّ صرير من أحد الأبواب، كان يسبب له الذعر. كان في حالة رعب وهلع. الشيطان يدور من حوله،

يترصده،.. آي!

من ذلك الركن الصغير، من تلك الزاوية المظلمة، بجانب طرف السرير، خرج شيء كما لو أنه فأر، كما لو أنه جرذ، كما لو أنه خنزير. لا! لا! كان شيئاً يتعاظم ويكبر بطريقة تسبب الدوار، أصبح شيئاً كما لو أنه الغرفة بكاملها، كما لو أنه برج، عشرة أبراج! وجه ضفدع، جلد ثعبان، كان يقترب منه. آااا ي ي ي!!!.

استيقظ فجأة. كان نائماً فوق أرض الغرفة. أحس بعظامه تؤلمه. من خلال النافذة كان الظلام قد أخذ يتبدد مع اقتراب الفجر. رسم على صدره إشارة الصليب، وشعر بأن فرحاً بدائياً يملؤه لأنه ما زال حياً، لأنه ما زال على وجه هذه الأرض ولم يُختطف إلى الجحيم.

في الأيام التالية، اقتصرت لقاءات فيرناندو على لويث. يخرجان معاً، يصليان، يذهبان إلى الكنائس لتلاوة القراءات الدينية، يتحدثان حول الدعوة إلى الله وإلى خدمته.

تنامى إعجابه بتلك الروح المنضبطة والحارة. لا شك في أنه قد عرف كيف يختار الحياة الحقيقية. كانت تشرق من كلماته، من تصرفاته، من كل شخصيته، هالات من السلام والطمأنينة والبهجة الهادئة. كان غاسبار لويث بالنسبة إليه نموذجاً يجدر الاقتداء به. كانا يتكاملان، يتفاهمان، يتحادثان، يقرأان: ".. وأَعتبرُ كل شيء نفايةً، لكي أربح المسيح..". ".. من يتبعني لا يتخبّط في الظلام".

وصل إلى حد التفكير بأن يتفرغ للحياة الدينية، وأن يكتب إلى دون سانتياغو، وأن يدخل كطالب مستجد في إحدى الرهبانيات. لكن،... ومثلما دخل بصورة مفاجئة إلى طريق الله، فقد خرج منها أيضاً بصورة مفاجئة. كانت تصطرع في روحه اتجاهات متضاربة.

في تلك الأيام، كان الذين يموتون وهم خاطئون، لا يخلصهم من الجحيم إلا شراء الوثيقة البابوية الخاصة بالأموات، وكانت الأسرة التي تدفع قيمة هذه الوثيقة تطمئن إلى أن فقيدها سوف لن يعاني من التعذيب الأبدي.

وكانت هناك حالات الناس الفقراء الذين ليس لديهم ما يدفعونه لشراء الوثيقة، ويريدون إنقاذ النفس الغائبة من العقاب الرهيب، وكانوا، تحت ضغط هذا الألم الشديد، يدورون في المدينة لاستجداء ثمن الورقة العجيبة.

في أصيل أحد الأيام، وكان فيرناندو جالساً يقرأ في فناء المنزل، سمع صوت خطوات قريبة في الدهليز، ثم ضربات محمومة على الباب.

. باسم الله، افتحوا!

نهض مستغرباً تلك الأصوات غير المعتادة، وفتح: ثلاث سيدات في ثياب سود، شاحبات، باكيات، تحدثن متفجعات في وقت واحد:

. من أجل رحمة الله، أيها السيد، جئنا نتوسل في سبيل الحصول على وثيقة الموتى.

. أيها السيد، والدنا توفي، ولا نريد، لا، لا نريده أن يصبح من الهالكين! قدِّم لنا إحساناً.

. سيكون الوفاء من عند الله. أعطنا شيئاً.

وقف حائراً أمام هذه الكلمات المبتذلة المتدفقة من أفواههن.

. لكن، ما هذا؟ لماذا؟

. خلِّص نفساً مسكينة من الجحيم. أيها السيد!

السماء لها ثمن. لم يتمكن من التعبير عن نفسه. وجد نفسه أمام موقف ملتبس. كانت أصواتاً مرتعشة، مؤثرة. أراد أن يسأل، أراد أن يجيب، لكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة. شعر باضطراب هائل.

جاءت دونيا آنا ماريا التي سمعت أصوات توسلهن. أخرجت قطعاً نقدية صغيرة وقدمتها إليهن قائلة:

. من أجل العبور السعيد لهذه النفس المسكينة. أيتها الأخوات.

. الوفاء عند الله، أيتها السيدة.

ابتعدت الثياب السود مع النشيج، وضاعت وسط المارّة. عادت دونيا آنا ماريا إلى الداخل، وبقي فيرناندو واقفاً دون حراك، صامتاً، مذهولاً. لقد عايش صدمة عميقة.

كانت هذه رحمة الله!

خرج إلى الشارع مسرعاً، يكاد يركض، وصل إلى الحقول. أخذ ينتزع الحشائش، ويعض على يديه، كانت لديه رغبة بالصراخ إلى آخر حدود الصراخ. كان كمن حُطّم له شيء ثمين. أحس بنفسه مهمَلاً، مضطَهداً، مخذولاً. كان يتمنى لو يبكي لموت أحد، موته هو نفسه. هذه كانت رحمة الله!

شعر بالحقد تجاه كل الأمور التي كان قد أحبها: الكنائس، الكهنة، المدينة المتدينة، لويث، ثم الله الذي كان على جميع الأفواه من أجل كل شيء.

وبدأ يشعر بالمودة تجاه بيرناردو وكذلك تجاه الرفاق الآخرين. كانوا شباناً بهائم، أفظاظاً، أجلافاً، إلاّ أنهم، على الأقل، ليسوا مخادعين، لا يدفعونه إلى أوهام مصطنعة. كان ضرورياً له أن يقترب منهم مجدداً، أن يعود إلى الحياة العارية.

خلال الفترة التي كان فيها تحت سيطرة أفكار الحياة الدينية تخلى عن اللقاء بهم بصورة شبه تامة. بالكاد كانت هناك حوارات سريعة في المنزل مع بيرناردو، أو لقاء ما، في قاعات المحاضرات، مع الآخرين.

لكن شيئاً ما تغير لدى الجميع. هؤلاء الذين كان يتوقع فرحتهم بعودته لمشاركتهم الحياة اللامبالية. لقد وجدهم متجهمين، وبمعنى ما، قلقين، يتحدثون بطريقة متكتمة. وأثارت هذه الأجواء الغامضة استغراب وفضول فيرناندو.

ذات يوم، وقد نفد صبره، قرر أن يطلب من بيرناردو توضيح هذا الموقف. ماذا حدث؟ ما هو سبب ذلك الاضطراب الغامض الذي هُمْ عليه؟

. الأمر لا يتعلق بك، فيرناندو. إنه يتعلق بأناس يعيشون في هذا العالم: أنت تعاشر رؤساء الملائكة. ربما فيما بعد.... سنرى....

جعلته هذه العبارات المتكلفة يحس بأنه وحيد.

وجاءت بعض الأحداث لتكسر رتابة الحياة في المدينة وتثير انتباه فيرناندو.

صباح أحد الأيام، تجمّع الناس في الساحة الكبيرة على صوت طبلٍ ومنادٍ. وقف أحدهم فوق منصة وتلا أمراً من الحاكم العام "غيفارا فاسكونثيلوس" يعرض فيه مبلغ ثلاثين ألف بيسو لمن يأتي برأس الخائن، عدو الله والملك.

كان فيرناندو يقف وسط الجموع؛ وقد أحاط بالمنصة بعض الرجال المسلحين، الذين كانوا، بين حين وآخر، يعمدون إلى استخدام أعقاب البنادق للتخفيف من ضغط حشود الرجال، أما النساء فكنَّ يرسمن إشارة الصليب على صدورهن.

إلى جانب فونتا وقف رجل فظ يقضم بصلة مع قطعة خبز. أخبره بما يجري:

. يا رجل. أتعرف حضرتك أن هذا اللعين ميراندا [١] قد أشهر السلاح ضد الملك؟ ضد الملك!!

وخلع الرجل الذي كان يقضم البصلة قبعته احتراماً لذكر لفظة "الملك".

.

---

(١) Sebastián Francisco de Miranda، رائد الكفاح التحرري الفنزويلي. ولد في كاراكاس يوم ١٧٥٠/٣/٢٨، وتوفي في سجن كارّاكا بمدينة قادس الإسبانية يوم ١٨١٦/٧/١٤.

. إنه خلاسي لئيم. جاء ليسرق ويقتل. ستقتص منه قوات صاحب الجلالة.

لم يجد فيرناندو ضرورة لمتابعة الإصغاء إلى ذلك الجار الذي تفوح منه رائحة كريهة، والذي لم تكن إيضاحاته ذات قيمة، لكنّه استمر يراقب تلك الجموع الصاخبة، التي تعالى صراخها:

. أجل، اقتلوه!، اجلبوا رأسه!

فوق المنصة، انطلقت من جديد صرخات أخرى تطالب بالاقتصاص، إلاّ أن ضجيج الجموع لم يكن يسمح بالاستماع بوضوح.

فجأة استل أحدهم من تحت إبطه لفافة ورقية طويلة، بسطها أمام الجميع. كان رسماً لوجه قبيح مشوه: عينان ترتفعان كثيراً فوق أنف أفطس، فم كبير جداً، حاجبان صغيران وضيقان، شعر مبعثر وأشعث.

صرخ صوت: "ما أبشعه! ما هذه البشاعة! احرقوه!!"، تناول رجل آخر من

أحد الجنود قطعة خشب مشتعلة، وبحركة وقورة مثيرة للضحك، أشعل بها ذلك الرسم، والتهبت الورقة وسط صراخ الرجال وهيجانهم وتدافعهم للحصول على بعض بقايا الورقة المحترقة، بينما اندفع الجنود لتفريقهم بأعقاب بنادقهم.

أثارت الصرخات ولهيب الورق لدى فيرناندو أفكاراً كان قد نسيها. الاستشهاد. ذلك الرسم الرديء الذي حل محل رجل كان هو الذي يجب أن يُحرق، وأن يعاني من العذاب، العذاب من أجل أن يربح النعمة الإلهية. ذلك الرجل الذي هو عدوٌّ لله.

أقلقته هذه الأفكار وأغرقته في المزيد من الغموض الذي كان يملأ روحه.

لم يكن يدور في المدينة حديث آخر غير الحديث حول هذا الإعدام الرمزي، وحول الرجل الذي كان هدفاً له.

أثار هذا الهيجان مخيلته. كان يستعيد في ذاكرته الرسم المخيف لذلك الرجل الذي التهمته النيران، الرجل الملعون الذي تجرأ على أن يكون عدواً للأمور الأكثر

قدسية. راح يتصور أنه سيلتقيه بين لحظة وأخرى، فيشعر بالخوف من رؤيته التي ستكون شيئاً مرعباً؛ الخوف من حضوره المؤذي، بل والمدمِّر. كان قد سمع في حلقات الثرثرة أن ميراندا هو Criollo [١] عاش لسنوات طويلة خارج البلاد؛ ثم قرر القدوم مع بعض القوات لاغتصاب سلطة الملك.

في المساء، في منزل دون بيرناردو، كان هناك لقاء لنفس الأصدقاء الذين اعتادوا بين الحين والآخر تناول المرطبات معاً: الرجل العجوز ذو السالفين الطويلين، الكاهن المتشدق، وأناس مهمون آخرون.

دخل فيرناندو على أطراف أصابع قدميه، ثم توقف في الممر، يستمع.

. من المنطقي . قال الكاهن .، أن كل أولئك الذين يتبعونه هم خاطئون خطيئة مميتة،.. بل وأكثر من ذلك، فهم ولا شك سيحرمون من الكنيسة..

. هذا ما سيحصل، يا صديقي النبيل، هذا بالضبط. مَلِكنا هو نعمة من عند الله، والخونة الذين يحاربونه إنما يحاربون الله وسينالون عقابهم.

. ليس هذا فحسب، فميراندا يشترك مع فرنسا في الدنس، وهي لا شك ملعونة من الله. لقد قرأ الكتب السيئة التي تريد أن تستأصل كل ما هو مقدس، ولأنه خائن لا بد من أن يعاقب. والوقوف ضد الله وضد الملك هو الدنس الأكبر..

كان فيرناندو يتأمل هذه الأفكار. لقد تجرأ ميراندا على محاربة الله ومحاربة الملك. هذا لا يصدق. ربما كان لديه سبب عميق لارتكاب جريمة غير مألوفة كهذه. فلقد سبق أن مر هو نفسه بحالة حقد غامض ضد ما هو مقدس.

---

(١) . Criollo كلمة أُطلقت للدلالة على من كان يتحدر من أصل إسباني، ووُلد في فينزويلا.

.. لماذا، نحن المخلوقات البسيطة، لا نتحاور، بل فقط نطيع ونعبد. الأخطاء التي يرتكبها الملوك هي أخطاء مفيدة، يسمح بها الله. ليس للإنسان، المخلوق غير المعصوم عن الخطأ، أن يكون قاضياً إزاء أعمال الملوك الذين ينصّبهم الله....

لم يكن يعرف عن الملوك إلا أموراً مبهمة. كان يظن أنهم لابد وأن يكونوا شيئاً مختلفاً عما هو بشري، فهم متفردون، طوال القامة، بعيدون، مشرقون. لا يجوز أن تفعل أمام الملك سوى الجثو على الركبتين.

.... جلالته هو الانعكاس والصدى للسلطة المقدسة.

. هذه هي المسألة . أكّد الكاهن .، ولهذا، فليست هناك جريمة أكبر من

جريمة الخائن ميراندا. يداه ملطختان بدم ملك فرنسا (١)، إنه خائن للخالق.

. وخائن لشعبه . أضاف دون بيرناردو بصوت رصين .، لأن هذه الغزوات السفيهة دُفعت قيمتها من قبل البروتستانت الإنكليز لتسليمهم هذه المناطق..

لم يشأ فيرناندو أن يستمع أكثر من ذلك. مشى دون أن يُحدث أي صوت، وفي رأسه ضوضاء لا يمكن إيقافها. ميراندا. الإنكليز. دم الملوك. الشيطان. الرسم المحترق في الساحة العامة. الملوك. الله. ميراندا. الشيطان.

إنه دوار حقيقي. من هو هذا الرجل المخيف الذي جاء ليعكر حياة الجميع؟

لقد شاهد وجهه القبيح المحاط باللهب،.... والأيدي الملطخة بدم الملك.... من هو هذا الكائن المرعب الذي جاء كاقتصاص وعقاب.

---

(١) . كان يقال إن ميراندا شارك في الثورة الفرنسية. ومن خلال يومياته ومراجع أخرى يتبين أنه كان في مرسيليا خلال شهر شباط من عام ١٧٨٩. وخلال شهر حزيران من نفس العام انتقل إلى لندن في محاولة للحصول على دعم من أجل استقلال أمريكا اللاتينية. عاد إلى باريس في ٢٣ آذار من عام ١٧٩٢. وانخرط في القوات الثورية كضابط ميداني كبير.

. هل تريد أن تعرف من هو ميراندا؟ . قال له بيرناردو ذات يوم بشكل مفاجئ.
هز برأسه موافقاً، لأن الخوف اللاشعوري عقد لسانه.

. أجل؟ حسن. عند الظهيرة ستعرف ذلك. لكن هذا أمر سري جداً، احذر الحديث عنه أمام أحد.

وفي وضح النهار، أخذه بيرناردو. كان قلبه يرتعش. خرجا من كاراكاس، عبرا بعض الحقول حتى وصلا إلى ما يبدو أنه كان معصرة قديمة لقصب السكر.

برج نصف متهدم، بعض الجدران الآجرية القديمة، بقايا مستودع. وفوق كومة من الحجارة كان يستلقي شاب بدين، بدا أنه نائم، لكنْ، ولمجرد وصولهما إلى داخل السور، نهض منتفضاً وصاح بصوت أجش:

. أين هو الماء؟

توقف فيرناندو مذعوراً ظاناً أنه مجنون، إلا أن بيرناردو أجاب:

. تحت الأرض.

وعاد يسأل من جديد:

. أية كلمة توقظك؟

. حرية!

. ادخلا.

وعاد الشاب الفتيّ، بعد أن انتهى من استجوابه، إلى متابعة الاستغراق في

أحلامه، بينما دار الاثنان حول مجموعة من الألواح الخشبية القديمة، ثم رفعا لوحاً مموهاً وهبطا سلماً، ليصلا إلى قبو فسيح يتسرب إليه بعض الضوء من كوى مرتفعة تحجبها قليلاً بعض الشجيرات. طاولة قديمة في الوسط يتحلق حولها نحو عشرين شاباً بين واقف وجالس على الأرض أو فوق بعض أدوات حراثة قديمة.

كانت عيون عشرين وجهاً جاداً تراقبه من خلال الضوء الشحيح لذلك الكهف. ملأه شعور مزيج من المتعة والقلق. لقد انقضّت عليه المغامرة الغامضة دفعة واحدة. حكاية لص، مجتمع سري، رجل يمسك بأسرار كبيرة. عادت تغزوه مملكة الطفولة، كان يتفرج على كل ما هناك بإشراقة طفل.

على الجدران، أوراق ملآى بالرسوم، إحداها تمثل امرأة تمسك بين يديها بسلسلة حديدية محطمة وتحتها كلمة: "حرية"، وأخرى لراية صفراء وزرقاء وحمراء؛ ثم هناك رسم لميراندا، الذي كان غاية في الجمال، على نقيض ذلك الوجه البشع الذي أحرقوه في الساحة الكبيرة.

أمتعه المشهد.

التفت بيرناردو إلى شاب يجلس فوق صندوق خشبي إلى جوار الطاولة.

. المواطن الرئيس، أقدم إلى حضرتك أخانا الجديد، المواطن فيرناندو فونتا.

كانت هي المرة الأولى التي يسمع فيها كلمة "مواطن"، وبدا له ذلك بسيطاً وجميلاً.

توجّه الرئيس إلى الجميع قائلاً بنبرة احتفالية:

. هل توافقون أيها المواطنون، على أن يكون المواطن فيرناندو فونتا أخاً لنا وابناً جديداً للحرية؟

وافق معظمهم.

. أيها المواطن، باسم الوطن والحرية، أنت أخونا، من الآن وحتى الموت!

لم يعرف فيرناندو كيف يجيب. شعر كما لو أنهم قد عمَّدوه، وربطوه إلى الأبد بشيء ربما يكون رهيباً. اقترب بصمت من كلٍ منهم مصافحاً، ثم جلس إلى جانب الجدار بوجه مترقب.

سأله الرئيس:

. أيها المواطن، هل درست مبادئنا؟

هز فيرناندو رأسه نافياً.

. أين وُلدت؟

. في الـ "آلتار"، إحدى مزارع القصب.

. أين تقع هذه المزرعة؟

. في آراغوا.

. أين تقع آراغوا؟

. في إقليم كاراكاس، من الحاكمية العامة لفينزويلا.

. لا، ليس الحاكمية العامة، بل وبكل وبساطة، فينزويلا. فينزويلا هي وطن، وأنت ملتزم بأن تقدم له حياتك. جميع الذين وُلدوا فوق هذه الأرض هم إخوتك، وفي سبيل رخائهم عليك أن تكافح. وجميع الذين وُلدوا خارج هذه الأرض هم أجانب وليس لهم الحق في السيطرة عليها أو التدخل في شؤونها، فهي أرضنا.

أخذت هذه الكلمات تدور في أحاسيسه. كان يعرف أن أرض الـ"آلتار" هي له، لكنْ لم يخطر له على الإطلاق أن بينه وبين باقي المناطق التي يضمها اسم فينزويلا قد يكون هناك أي رابط عميق لدرجة تلزمه بالتضحية بحياته.

كان شعوراً غامضاً بعض الشيء، لكنه مع ذلك، كان مريحاً بمعنى ما. كل أولئك الناس الذين يولدون في هذه اللحظة فوق تلك الأرض، التي لا يكاد يعرف منها

إلا أجزاء قليلة، هم مرتبطون به، وسيعمل مسروراً من أجلهم حتى ولو أنه سوف لن يلتقي بهم على الإطلاق. هذا هو الوطن، دماء البشر تتوحد وتمتزج بهذه الأرض الفسيحة والمترامية. تتوحد وتتعاطف مثل جسد واحد.

أحس بأنه قد ارتبط برباط وثيق. بدأ يشعر بأن هؤلاء الذين يحيطون به هم أناس مختلفون، هؤلاء الذين توحدهم مشاعر الأخوة. أحس بفيض من مشاعر المحبة تجاههم، كان يود لو يقبّلهم جميعاً، وأن يعبّر لهم، بطريقة غير معتادة، عن مشاعره الصادقة.

عاد صوت الرئيس:

ـ المواطن أمين السر، ابدأ بقراءة حقوق الإنسان.

أخرج هذا الذي دعاه بأمين السر، من تحت إحدى الأحجار، دفتراً صغيراً، هو نسخة من ترجمة حقوق الإنسان والمواطن، المطبوعة من قبل نارينيو[١] بصورة سرية في بوغوتا.

فتح الدفتر وبدأ يقرأ بصوتٍ طالبٍ خجول:

ـ إعلان حقوق الإنسان والمواطن. المادة الأولى. الناس يولدون ويعيشون أحراراً ومتساوين في الحقوق. الفروقات الاجتماعية لا يمكن أن تقوم إلا بناء على المصلحة العامة.

ـ من يريد أن يتولى التعليق؟ ـ قاطعه الرئيس.

ـ أنا ـ أعلن أحدهم.

كان فتى نحيلاً، ذا شعر أسود مسترسل.

---

(١) ـ هو المناضل الكولومبي Antonio Nariño. ـ المترجم ـ

. الطبيعة، . بدأ دون تردد . جعلت أبناءها متساوين. يولدون بأجهزة متماثلة، ويتشكلون بطريقة واحدة، لهم نفس الغرائز ، وتحركهم رغبات متشابهة.

كانت الغالبية تصغي، بعضهم انخرط في نقاشات جانبية. أما فيرناندو فكان يتابع باهتمام، وهو ما تطلّب منه جهداً استثنائياً. هذه الأفكار تفتح أمامه آفاقاً لم تكن معروفة لديه. كانت ثقافته كلها تقوم على عدم المساواة، وكان كل ما خَبِره في حياته يمثل عدم المساواة: الملك، الحاكم العام، أبوه، العبيد، النبلاء، الأنذال، البيض، الخلاسيون...، كان جميع أولئك الناس، الذين يحيطون به، على تنوع تراتبيتهم، يرفضون هذه الأفكار.

. في الطبيعة، بالأصل، كانت تسود المساواة، أي، كانت تسود السعادة والعدالة والرخاء. لكن، منذ أن تأسس المجتمع، وحلّت تلك اللعنة، جاء عدم المساواة. الحلف الاجتماعي جلب نتائج غير عادلة، لقد تخلى عن الطبيعة وخلق هذا الشيء المرعب الذي هو عدم المساواة. العقد الاجتماعي أعلن إصلاحاً عميقاً، هذا الإصلاح لا يمكن أن يكون أمراً آخر غير المساواة.

أثارهذا الحديث بعض الصخب.

. المجتمع هو شيء مريع.

. تحيا المساواة!

. يسقط الملوك!

اقترب الشاب النحيل وجلس إلى جوار فيرناندو. استمر هذا في تأملاته، كانت لديه الرغبة في الإفصاح عن شكوكه، لكن طبعه الجبان منعه من ذلك. أخيراً، غامر، وهو يحس بالارتباك والخجل:

. هل تتلطف بأن توضح لي قليلاً ما قلته. لم أفهمه جيداً.

أجابه الآخر بسرعة:

. بكل سرور، المسألة بسيطة جداً، وهي تتعلق بمبادئ شبه بدهية. انظر. في الطبيعة، الكائنات، ضمن كل نوع، متساوية. في المجتمع الإنساني، الأفراد ليسوا متساوين. الطبيعة هي من صُنع الله، بينما المجتمع هو من صنع الإنسان. ليس من الصعب معرفة من مِنَ الاثنين هو الذي تاه.

تريث فيرناندو للحظات، ينظم أفكاره قبل أن يجيب.

. أنا أعتقد، عكس ما تقوله، أن جميع المخلوقات تفصح عن عدم المساواة. لا تملك الحيوانات جميعها القوة نفسها، لا تعيش جميعها بنفس الطريقة، ولا تتساوى في مقدرتها على الدفاع عن نفسها،...

يرتفع فجأةً صوت الذي كان يقرأ، مؤكداً: إن منطلق أية سلطة إنما يكمن في الشعب...

حتى في السماء هناك درجات، في العقاب الإلهي هناك درجات...

. هذه الملاحظات ليست ذات قيمة كبيرة. لا تنس حضرتك أن معظم الكتب الدينية قد كُتبت لخدمة الملوك، وبالتالي فهي تحتوي على المبادئ المفضلة لديهم.

.. .... أفضل برهان هو أنه من الممكن... ما يمكن أن يحصل، يحصل داخل الطبيعة، وكل ما يحصل داخل الطبيعة هو طبيعي. ثم من الممكن أن....

...... يجب أن يكون الأمر نفسه بالنسبة للجميع،.... ثم إنه طبيعي..

فيرناندو لم يُوَفَّق في الردّ بالصورة التي كان يتمكن منها الآخر.

. أنا أعرف أن الحق إلى جانبي. غير أني، فقط في هذه اللحظة، لا أستطيع توضيح وجهة نظري. وجهة نظرك ليست صحيحة. حضرتك بالذات كدت تقول إن عدم المساواة ليس طبيعياً، ومع ذلك فهو أمر موجود.

...... الوطن هو الرابط الأكثر قدسية . هتف أحد الموجودين بصوت مرتفع . فيه يتوحد الدم، والملكية، والحب، والاعتزاز، والحماية.

الشاب الذي كان يقرأ أخذ يصيح بصوت أعلى:

. جميع المواطنين، متساوون أمامه، يُعاملون بصورة متساوية....

هتفت المجموعة:

. يحيا الجنرال ميراندا!

وعاد هذا الاسم يثير قلقه مرة أخرى. إلى جواره كان شاب يتحدث:

. ميراندا هو الوحيد الذي يعمل حقيقةً من أجل الوطن.

أحكم الغموض سيطرته على تفكيره. غرق في تأملاته؛ ودون أن يدقق كثيراً فيما سيقول، سأل:

. هل هو خائن أم لا؟

. خائن؟! إطلاقاً! ميراندا يناضل فقط من أجل أن يكون لنا وطن. هل ترى حضرتك هذا العَلَم؟ . وأشار بإصبعه إلى الورقة التي رُسمت عليها راية صفراء وزرقاء وحمراء . هذا هو علمنا.

تأمّل فيرناندو هذه الراية، ثلاثة ألوان بسيطة، ثلاثة ألوان تمثل الوطن الذي بدأ يولد. الوطن الذي بدأ ينهض للتو. تذكر ألوان قوس قزح تملأ السماء. تأمّل الألوان الثلاثة وبدأ يشعر بالانجذاب إليها. في تلك الألوان، المرسومة بصورة سيئة على قطعة الورق التي أمامه، كان يتمثل الوطن.

. إنها جميلة. من الذي صممها؟

. ميراندا. جاء بها في أولى حملاته. روى لي ذلك رجلٌ ممن كانوا معه على ظهر المركب.

كان فيرناندو، وهو يستمع إلى هذه الحكاية، قد بدأ يغيب من أمامه، شيئاً فشيئاً، مشهد القبو والناس الذين يصيحون. وشعر وكأنه يشاهد ما يستمع إليه:

المركب يتقدم باتجاه الخليج الصغير. والشمس بدأت تشرق بأشعة شُقرٍ فوق الروابي الخضر والبحر الأزرق الصاخب. سُمعت أصوات إصدار الأوامر. أخذت القوات تستعد، وتجهز المدافع..... كانت أضواء الصباح تنعكس على الحراب التي تتقدم فوهات البنادق. وبصوت حازم وقوي انتظمت جميع الصفوف، وخرج، من خلال فتحة على سطح المركب، رجل ذو وقار يشع منه الهدوء. كان يرتدي زي جنرال، بقبعة زرقاء محاطة بشريط ذهبي، وبنطال أبيض وحذاء أسود خاصٍ بأيام المعارك، وتحت ذراعه سيف ذو رأس معقوف. وقف للحظات ساكناً منتصباً؛ كانت الريح تهب من أعماق الكاريبي. حيّا ومشى إلى السارية الكبرى. هناك، تناول من أحد الجنود تلك القطعة القماشية ذات الألوان الثلاثة، وبدأ يرفعها رويداً رويداً حتى بلغت أعلى السارية. سُمعت صيحة: "نار"!، واهتزت أجواء البحر والجبال مع قصف المدافع، وخفقت الألوان الثلاثة النقية مطلّة بقدسية على الأرض الفسيحة التي بدأت تتغير.

كانت مشاعر فيرناندو تضطرب، وجسده يرتعش مثل تلك الراية التي تخفق. رأى ميراندا فوق متن المركب وهو يرفع العلم، والورقة ذات الرسم البشع واللهب الذي تتناثر معه بقاياها المحترقة...

انتهت القراءة، بدؤوا يتكلمون، وبدأت التعليقات.

. المواطن فونتا، تحت هذا الصندوق الذي تجلس فوقه هناك كتاب. هل تسمح بأن تناولني إياه.

رفع الصندوق. كان تحته كتاب أصفر قديم، كُتب على غلافه باللغة الفرنسية:

"العقد الاجتماعي، أومبادئ الحق السياسي، بقلم ج. ج. روسو". أخذه إلى الطاولة بكثير من الحرص ثم عاد إلى مكانه.

طلب الرئيس الصمت، وبدأ يترجم النص الفرنسي بصعوبة، وبطء: "وُلد الإنسان حراً، ومع ذلك فإنه يعاني من الأصفاد. عندما يعتقد أنه يمتلك الآخرين فإنه يصبح

عبداً أكثر منهم. كيف حصل هذا التبدل؟ لا أعرف. من هو الذي يمكنه أن يجعل من ذلك أمراً مشروعاً؟ أنا أعتقد أن بالإمكان وضع حل لهذه المسألة".

جميع الأفكار، جميع المفاهيم التي تضمنتها هذه القراءة استُقبلت بحماسة كبيرة. بدأ الموجودون يتناقشون ويتجادلون ويعلقون، وكان صوت الرئيس يضيع أحياناً في خضم هذا الضجيج.

لم يكن أحد منهم يفكر في الجوهر الحقيقي لهذه المبادئ، فقط كانوا يقبلون بها أو يرفضونها بحماسة.

علَّق أحدهم بصوت واثق:

. نعم، هذا الإنسان الذي وُلد حراً لماذا لا يستمر كذلك؟ الحيوانات، الأشياء، جميعها حرة....

. أجل، لو عاشت البشرية دائماً في كنف الطبيعة . أضاف آخر . لما عرفت العبودية.

طغى الصخب على الجميع، وبالقرب من فيرناندو كان بعضهم يتناقش حول أفضل نظام للحكم.

. لا شك . قال أحدهم . أنه النظام الديمقراطي. حكم الجميع من أجل الجميع. الجميع ملوك والجميع مواطنون.

. الحكم الديمقراطي هو التعبير عن الإرادة العامة....

أخذت هذه المفاهيم الجديدة تتردد في خاطره، المواطن، الديمقراطية.... شعر بالرغبة في أن يستعيدها بصوت منخفض، مثلما يشعر الطفل بالرغبة في أن يلعب بلعبة جديدة؛ وأن يرددها، وأن يقولها للآخرين، وأن يسمعها تواصل همسها في أذنيه. وبصورة لا شعورية راح يستعيد في ذهنه أحاديث أصدقاء السيد بيرناردو لاثولا. وبصورة لا شعورية أيضاً، أخذ الارتياب يساوره.

.... الديمقراطية ستكون هي سعادة الشعوب....

لم يستطع أن يفهم كيف استطاع البشر أن يعيشوا هذا الزمن الطويل محرومين من السعادة، بينما كان بإمكانهم وضع حد لذلك بمجرد إرسائهم الديمقراطية.

.... لو تحققت لأصبحوا سعداء وكأنهم ما زالوا يعيشون في أحضان الطبيعة.

وعقّب فيرناندو:

. حسن جداً! لكنْ، كيف يمكن تحقيق هذا التغيير؟

. بكل بساطة! مثلما تحققت، وحتى الآن، جميع التغييرات. أن يتعرف الناس عليها. بالإرشاد، بتقديم الأمثلة، مثلما تعرفوا على المسيحية. من المستحيل، حين يعرف الناس مزايا الديمقراطية، ألاّ يطالبوا بها في الحال.

. إذن، وبناء على هذا، كل ما يلزم هو أن ننشر هذه الفكرة.

. أجل. هذا سيكون كافياً. حركة الديمقراطية ستكون مذهلة. وبين ليلة وضحاها، ولمجرد إدراك طبيعتها وحقيقتها، سيتغير وجه العالم.

شيئاً فشيئاً، بدأ الضجيج يخفت، والنقاشات تهدأ، والصمت يتسلل إلى المكان.

انقطع صوت المُحاضر فجأةً، كما لو أن نافورة ماء توقفت. وخيّم التعب على الجميع.

وفي النهاية، تحدث الرئيس معلناً اختتام الاجتماع. وأخذ الجميع يتفرقون ضمن مجموعات صغيرة كي لا يثيروا انتباه أحد.

ودع فيرناندو الجميع مصافحاً، وخرج، بدوره، مع برناردو.

مع خروجهما من عتمة القبو، اغتسل وجهاهما بأشعة الشمس التي كانت تميل نحو المغيب، وتناديهما إلى ملء صدريهما بنسمات الحقول النقية.

في غمرة الانفعالات والأفكار، لم يتحدث أي منهما إلى الآخر. سارا هكذا الى أن بلغا مدخل المدينة، واستمرا كذلك وهما يعبران أحياءها حتى وصلا إلى المنزل. كان الظلام قد بدأ يهبط، وفوق ذرى شجرة النخيل كانت الشمس تلملم آخر لمساتها.

خلال الليل، وعندما حلت ساعة التعبد المعتادة، مثل باقي الليالي، عندما يبدأ الخوف يملأ قلب فيرناندو من أن يصبح أسيراً للشيطان، تناول وسادة وجثا فوقها على الأرض واستغرق في صلواته.

كانت المدينة صامتة ونائمة، والقمر ينثر في الفضاء ضوءاً رمادياً، ولا تُسمع سوى أصوات الضفادع في أغانيها الحزينة الرتيبة التي لا تنتهي.

صلّى، وصلّى، لذلك الله الذي يحبه ويبغضه، لذلك الله الذي يستمتع بالمعاناة في سبيله. صلى لذلك الله وهو يرتجف ويرتعد.

. أبانا، أرجوك أن تعمل على ولادة الوطن، وأن تجعله يولد قوياً وجيداً. أرجوك، يا أبانا، من أجل جميع البشر الذين يعملون على إقامته، من أجل جميع أولئك البعيدين، الذين لا أعرفهم والذين هم إخوتي إلى الأبد. أبانا الذي في السموات....

على غصن إحدى الأشجار كان عصفور يغرد أغنيته الليلية.

كان يفكر في الوطن، في السهول، في الجبال، في البحر. كل تلك الأرض الواسعة النابضة بالحياة كانت تناديه، وكانت في انتظاره..

- ٥ -

كان من الضروري أن يغادر المدينة. لقد مات دون سانتياغو. كما أن على فيرناندو الآن أن يتولى الإشراف على العمل في الـ "آلتار".

ودعه دون بيرناردو ودونيا آنا ماريا وبيرناردو، بكثير من الأسف. كان قد أمضى الأيام الأخيرة في وداع رفاق لقاءات القبو. إنه يعود ممتلئاً بحرارة أفكاره الجديدة، وعارضاً أن يتعاون من مكانه العائد إليه، وبأقصى إمكانياته.

خرج ممتطياً بغلته، بخطواتها البطيئة، يرافقه العبد الذي كان قد جاء لإخباره. ألقى نظرته الأخيرة على المدينة، على بيوتها المنخفضة، على سقوف القرميد القرمزي، والأبراج التي تحتضن الأجراس، والأجواء الكسلى، وحفيف أوراق الأشجار، والناس الذين يسيرون دونما عجلة من أمرهم.

كانت نظرته تبحر في كل شيء: الساحة الكبرى، الأديرة، الشوارع، كل تلك الأشياء التي ساعدته في اكتشاف نفسه.

همز بغلته، وانطلق في طريقه.

خلال عبوره الطرق الجبلية المكتظة بالأشجار البرية، راح يتحدث مع العبد.

. كيف حال الأملاك؟

. جيدة يا سيدي!

. كيف يجري تنظيم العمل؟

. يستمر كما كانت الحال عليه يا سيدي، لقد ترك دون سانتياغو كل شيء بين يديّ الوكيل الحالي.

. وهل يعمل بشكل جيد؟

. أجل يا سيدي!

. من هو؟

. أحد الموَلَّدين. بريسينتاثيون كامبوس. نعم، سيدي.

. من أي مكان هو؟

. لا أعرف. أعتقد أنه غريب. جاء ذات يوم ولم يكن يعرفه أحد وكلّفه دون سانتياغو بالعمل.

. آها. وأختي؟

. الصغيرة إينيس بحالة جيدة جداً، يا سيدي، حفظها الله.

...... وصل دون فيرناندو فونتا إلى أعلى التلة المطلة على الـ"آلتار".

هنا كانت المملكة الرائعة لطفولته. خرج جميع العبيد لاستقباله، مع نسائهم، وكذلك الوكيل. كانت أخته إينيس بانتظاره في أعلى الدرج. وجدها قد أصبحت امرأة، وازدادت ملامحها جمالاً وحلاوة وصفاء. أخذ الخدم العبيد يكيلون له المديح ويمطرونه بالأدعية، بعضهم قبَّل قدميه، وبعض آخر قبَّل يديه، النسوة طلبن له من الله التوفيق، وبعض الصغار الذين كانوا يرونه للمرة الأولى راحوا يختبئون مرتجفين وراء الكبار.

قابل فيرناندو الجميع بطريقة ودود، ضاحكاً من مبالغاتهم في الترحيب به، وأمر بأن يرتاحوا من العمل في اليوم التالي احتفالاً بعودته.

الوحيد الذي كان يقف منزوياً عنهم، دون ترحيب حار، بل وبوجه قاسٍ، فظّ، كان الوكيل. راقبه فيرناندو بشيء من الاستغراب. كان رجلاً رياضياً، طويل القامة، ذا حضور بهيّ، شعره أجعد، بشرته برونزية، يرتدي ثياباً بسيطة من القماش الأبيض وهو ما كان يزيد من مظهره القوي. اقترب منه فيرناندو.

. هل أنت الوكيل؟

. نعم سيدي، بريسينتاثيون كامبوس في خدمتك.

. حسنٌ؛ أتمنى أن تتابع معي مثلما كنت مع والدي.

صافحه، ثم صعد الدرج، وعانق إينيس التي كانت تبكي من الفرح.

هكذا عاد فيرناندو فونتا إلى الـ"آلتار".

وكان توقيت عودته جيداً، إذ لو أنه تأخر في ذلك فلربما كان عليه أن يعود بطريقة أخرى.

في كاراكاس حدث العديد من الأمور الاستثنائية: في١٩/٤/١٨١٠ استقال الحاكم العام "إيمباران" (١).

في ٥/٧/١٨١١ أُعلن استقلال جمهورية الولايات المتحدة الفينزويلية. وبدأت الحرب. وكان ميراندا قد عاد إلى الوطن محاطاً بهالة من الاحترام بفضل سنوات كفاحه الطويلة.

لقد أزفت اللحظة التي لطالما حلم الشباب بحلولها لانطلاقهم إلى العمل العظيم. كانت تصل إلى الـ"آلتار" أخبار الأحداث، وكان فيرناندو يتابعها باهتمام كبير. فكّر مراراً بالتخلي عن عمله في الزراعة، والانخراط في العمل من أجل الجمهورية، إلا أن توسلات إينيس كانت تتغلب على طبعه المتردد، فيتوقف عن التفكير بذلك.

---

(١) . Vicente Emparan (١٧٤٧ – ١٨٢٠)، تولى "الحاكمية العامة" منذ أيار ١٨٠٩ حتى ١٩ نيسان ١٨١٠.

وجاءت أوقات سيئة. تمزقت الحياة السهلة والمنتظمة في المستعمرة، وأخذ أبناء الإسبان يشعرون، للمرة الأولى، بمأساة الحرب.

لقد بدأ الهلاك... دُمِّرت قرى، ونزح الناس، وتشتت الرجال، ومات الأصدقاء.

أنطونيو ثيلينا، طالب الحقوق، خرج مع حملة "المركيز ديل تورو" [١] ضد الملكيين في الغرب، وخوسيه سالغيرو، طالب الطب الذي تعارك مع لويث، ذهب مع قوات" فيّابول" [٢] باتجاه الجنوب.

اشتعل حريق الحرب الهائل في جميع أرجاء فينزويلا، والرجال الذين لم يسبق لهم أن بذلوا نقطة دم واحدة، شعروا بحرارة تلك النشوة. كانت هناك روح متوثبة قد استيقظت في النفوس.

وفي غمرة هذه الحرب، جاءت مأساة من الطبيعة. يوم الخميس المقدس، ١٨١٢/٣/٢٦، وعلى امتداد المسافات من الساحل وحتى جبال الأنديس، اهتزت الأرض وارتجت من أعماقها، وتصدعت بصورة مخيفة، وكأن فمها راح، هو الآخر، يطلق صرخاته. تهدمت مدن وقُتل عدد كبير جداً من الناس.

كانت الكنائس غاصة بالمؤمنين الذين راحوا يستذكرون عذاب يسوع، عندما، وفجأة، سيطر الاضطراب والدمار، وسرعان ما ساد صمت القبور. مدينة مثل "لاغوايرا" لم يسلم منها سوى بيت واحد، مساحات شاسعة لم يبق فيها أثر لقرية، قلعة باراخاس تهدمت بأكملها، آلاف الجنود الجمهوريين طُمروا داخل معسكراتهم.

---

(١) .Francisco Rodriguez del Toro، (١٧٦١ – ١٨١٦)، عم زوجة بوليفار، ومن الذين وقّعوا على وثيقة الاستقلال في ١٨١١/٧/٥.

(٢) . Manuel Villapol، (١٧٦٩– ١٨١٤)، أصله من إشبيلية. ناضل من أجل استقلال فينزويلا.

حدث ذلك، بالضبط، يوم الذكرى السنوية لحركة العصيان الأولى ضد الحكومة الإسبانية. وتشاء الظروف أن الأهالي الملكيين، الذين يعيش معظمهم بعيدين عن المناطق الجبلية، كانوا الأقل تأثراً بالأضرار الجسيمة التي وقعت، في حين أن الجمهوريين، الذين تعيش غالبيتهم عند سفوح الجبال، أصابهم خراب شامل.

هذا الزلزال الذي دمَّر المنازل، أفقد الأرواح توازنها. فالناس الذين يملأ نفوسهم التعصب، ويؤمنون بالخرافات، فسّروا تلك الإشارات على أنها عقاب إلهي لأولئك الخونة الذين تمردوا على ملك إسبانيا، هكذا كان يقول الكهنة الذين وقفوا أمام أنقاض الكنائس، بينما كانت جموع الناس تصلي وتستغفر بصوت عالٍ، نادمة تائبة.

...... فضلاً عن العقاب الأبدي، عقاب ينالونه على الأرض. ملعونون هم، ملعونة أرواحهم، ملعون سقوطهم، ملعونون جميع أولئك الذين يعادون الملك، لقد سحقهم الله كالدود القذر.

المدن المدمرة، التي كانت جميلة وساحرة، لم يتبقَّ فيها غير جثث تتفسخ في العراء، وأناس فقدوا صوابهم يتضرعون إلى الله، ولصوص ينتهزون فرصة هذه الفوضى العارمة. ضابط إسباني هو "دومينغو دي مونتي فيردي" [١] استغل تلك الحالة الكارثية التي وصلت إليها القوات الجمهورية، واستطاع الوصول، خلال أيام قليلة، مع قوات كان يتزايد عددها تباعاً بانضمام المتعصبين إليها، إلى حيث كان

الجنرال فرانثيسكو دي ميراندا، الخصم القديم، مع بقايا قوات حائرة، فاقدة للفعالية،

---

(١) . Domingo de Monteverde y Ribas (١٧٧٣ – ١٨٣٢)، من جزر الكناري، كان ضابطاً في سلاح البحرية الملكية الإسبانية. وصل إلى فنزويلا قادماً من كوبا أوائل عام ١٨١٢. حارب خلال الجمهورية الأولى، واتصف بالقسوة الشديدة. انتصر على ميراندا وأجبره على الاستسلام واعتقله وأرسله إلى قادس بإسبانيا. أصبح حاكماً عاماً لفنزويلا منذ أيلول ١٨١٢. جُرح خلال المعركة الكبرى (١٨١٣)، وغادر إلى إسبانيا، حيث مات.

تملأ نفوسها المرارة.

كانت أياماً قاسية.

تابع فيرناندو فونتا من الـ"آلتار"، بكثير من القلق، مسار المعركة، مفكراً في إمكانية مشاركته فيها، لكنه كان عاجزاً عن اتخاذ قرار، كان يتمنى لو أن أحداً ما يلزمه بذلك دون أن يستطيع الرفض. كان يصل إليه الكثير من الأخبار ممن كان بإمكانهم معرفة ما يجري، كان يسأل، ويستمع إلى آرائهم....إلا أنه توصل، ذات يوم، إلى قناعة مختلفة، كان يشعر بالخوف، والإحساس بما يقرب من فقدان العزيمة.

قال له بريسينتاثيون كامبوس:

. لماذا لا تشارك في الحرب؟ سلِّح الرجال واذهب للمشاركة مع ميراندا.

أحس بأنه متهم، وسرَّع الاضطراب وجيب قلبه. لا، الحرب لا.

كانت الأحداث قد سيطرت على مشاعر الجميع، ولم يكن بإمكان أحد البقاء غير مبال. لقد هلك جميع الأصدقاء.

غاسبار لويث، طالب اللاهوت، مات تحت أنقاض إحدى الكنائس يوم الزلزال. عندما علم فيرناندو بالأمر، لم يتمكن من أن يتفادى التفكير في أن روح غاسبار لابد وأنها قد أصبحت راضية بذلك الاستشهاد الذي تطلع إليه بشوق بغية الوصول إلى النعمة الإلهية.

بيرناردو لاثولا، بعد استسلام "ميراندا" ودخول "مونتي فيردي" كاراكاس، ولأن اسمه كان موضوعاً على قائمة المطلوبين المشتبه بهم، غادر إلى إحدى القرى القريبة من الـ"آلتار" واستمر على اتصال بفيرناندو.

زاد دخول "مونتي فيردي" الموقف خطورة. بدأت الملاحقات وعمليات الانتقام، وراح الرفاق القدامى يشي بعضهم ببعض آخر. أناس من عديمي الضمير قاموا بإعداد قوائم بأسماء عدد كبير من الأشخاص بغرض الاقتصاص منهم وسلموها إلى

القائد الإسباني، الذي نكَّل بهم من أجل تثبيت سلطته. الرئيس القديم لأبناء الحرية، وشى به شاب سيّئ كان قد استُبعد من حضور الاجتماعات، فسُجن وجعلوه يقر بأسماء الذين كانوا يشاركون في هذه الاجتماعات، فألحقوهم به. أما "حقوق الإنسان" والنسخة الثمينة لكتاب "روسو" فقد صودرت بسبب كونها مدرجة على لائحة الممنوعات، إذ لم يكن يسمح لـ "كتب الحكايات التي تتناول أموراً دنيوية خرافية وقصصاً مختلقة" بدخول البلاد. كثيرون أخفوا أشياءهم الثمينة ومجوهراتهم في مخابئ خاصة، وغيروا أماكن سكناهم تحت أسماء مستعارة، أوغادروا البلاد.

كان الألم يعتصر أولئك الناس الذين اضطروا إلى ترك أماكن سكناهم، لقد كانت أياماً ملعونة، دون أية إمكانية للإحساس بالطمأنينة. كانت المشاعر المتطرفة تتنامى في النفوس: الحب أو الكراهية بصورة مطلقة، محبة أو كراهية الجمهوريين، أو القوطيين من الإسبان والمتحدرين منهم الذين كانوا في خدمة الملك. لقد بدا، بعد ذلك الهدوء الطويل في المستعمرة، وكأن لحظة كرنفال الجنون قد أزفت.

مع استماع فيرناندو إلى تفاصيل تلك الأحداث، أخذ حماسه القديم يستيقظ من جديد، ومع ذلك، فإن عائقاً غريباً كان يمنعه عن الفعل، الذي كان راغباً به إلاّ أنه لم يكن قادراً على التحرك باتجاهه؛ ومع ذلك فقد كان ينتظر؛ كان ينتظر بنفاد صبر هائل، شيئاً لم يكن هو نفسه يعرف ما هو. من الظل، كانت سكّين تقطّع أوصال الحياة.

كارلوس إيرون، ذلك الفتى اللامبالي، الذي كان يغني الأغنيات الجميلة والخفيفة، انخرط مع القوات الوطنية التي اتجهت نحو الغرب، وخلال تبادل لإطلاق النار، وقع أسيراً بين أيدي إحدى فصائل قوات مونتي فيردي، بعد الزلزال، عندما كان الناس يملؤهم الخوف من أن الله قرر إبادتهم.

كان يقود تلك الفصيلة رجل سكّير، يعزز أوامره إلى الجنود بضربهم بالسياط. كانوا ثلاثين من الحفاة الهزيلين.

عندما وقع أسيراً، كان شبه عارٍ، جريحاً في إحدى ذراعيه، وقد أنهكه التعب. اصطحبه قائد الفصيلة مع اثنين من جنوده وساروا به مسافة طويلة إلى أن وصلوا إلى إحدى القرى. كان الجرح والسير الطويل والتعب عذاباً يفوق القدرة على الاحتمال.

هناك، كان المشهد عجيباً: جميع البيوت مدمرة، أكوام من الأعتدة والألواح الخشبية والحطام، تتناثر بينها أسرّة وصناديق خشبية ووسائد ومطابخ مقامة على عجل كتلك التي تقام في مخيمات الأناس الرُحَّل، وحَوْل المواقد كان هناك من يتناول طعامه، لكنَّ العدد الأكبر من الموجودين كان مستغرقاً في صلواته بصوت مرتفع.

وفجأة أثار انتباههم قدوم هذه المجموعة الصغيرة، تركوا كل شيء واقتربوا للتفرج على هذا الأسير.

أخذوا يتفحصونه بنظرات بدائية، وعيون تملؤها مشاعر العداء.

نظر كارلوس إيرون إلى تلك الجوقة التي اقتربت منه: رجال ونساء نصف عراة، قذرون، مسلحون بالهراوات، راحوا يصرخون: "ليمت المتمرد! ليمت الخونة! مبارك سرك المقدس!".

كانت أيديهم متشنجة وعيونهم غاضبة وصيحاتهم تصم الآذان، ونسي الفتى المسكين تعبه وآلام جرحه أمام كلاب الصيد المخيفة التي أحاطت به.

. ليمت المتمرد! لِ يـ يـ يـ م م مُت!!

بعض النسوة كُنَّ يصلين جاثيات على ركبهن تحت أشعة الشمس المحرقة وهن يضربن بقوة على صدورهن، وشعرهن الأشعث يملؤه الرماد.

أطلق قائد الفصيلة صيحة أسكت بها كل ذلك الصراخ:

. حسن، إذن، ماذا تريدون؟ أن يموت أم لا؟

عوت الأصوات:

. أن يموت! أن يموت! أن يموت!.

ضحك الرجل السكير فَرِحاً بهذه المجموعة المستسلمة لكلماته.

. حسن، إذن، كيف تفضلون، أن أقتله أنا، أم أن تقتلوه أنتم؟

. نحن! نحن نقتله!

ومع أن النسوة كن منصرفات إلى صلواتهن، إلاّ أنهن اقترين في تلك اللحظة.

. أجل، يجب أن تقتلوه! يجب أن تقتلوه! وأن يذهب إلى نهايته، إلى الجحيم!

التفت الرجل إلى إيرون مبتسماً:

. حسن، وأنت ما رأيك؟

كان الرعب، والغضب، أكبر من قدرته على الإجابة، كان مطوقاً بالصيحات والعيون والأيدي التي تتطاول إليه بشراهة.

. أطلِقاه، إذن! صاح الرجل بالجنديين.

وتنفيذاً لأوامره، أطلق الجنديان أسيرهما وسط هؤلاء الناس.

عند ذلك، لم يعد إيرون يرى شيئاً، كانت قبضات وهراوات وأحجار تنهال عليه من كل جانب. في البداية، كانت هذه الضربات تنزل به آلاماً لا تُحتمل، لكنه، ومن ثم، لم يعد يحس بشيء، وكأنما هم يضربون جسداً ميتاً. سقط فوق كومة من الأحجار منهكاً خائر القوى.

. ليمت المتمرد!!

مد يده للإمساك بقدم أحدهم فعاجله هذا برفسة في صدره. كان الدم ينزف من كل ناحية في جسده، كان يغطي وجهه وأشلاء ثيابه ويتسرب من بين أصابعه. كان مثل جرذ يراد الإجهاز عليه. راح يصرخ، ويشتم، ويتوسل....

. ليمت المتمرد!!!

أقدام وأيدٍ وعصي وأحجار، لم يكن يستطيع التخلص من وابل الضربات، راح يزحف على الأرض بحثاً عما يمكنه أن يحتمي به.

أحدهم أمسك بدعامة خشبية ثقيلة، وبكل ما لديه من قوة عضلية وتعصب وكراهية، ألقى بها على رأسه الغارق بالدماء، فقضى عليه.

كان فيرناندو يشعر بالرعب وهو يتصور هذا المشهد، وهذا المصير الذي انتهى إليه ذلك البائس.

في الـ"آلتار"، كانت أعمال الزراعة مستمرة، لكنّ الأيام تغيرت. كانت تمر عبر تلك الأملاك مجموعات من الرجال الذاهبين للانضمام إلى الوحدات المسلحة، وكان فيرناندو، خلال حديثه إليهم، يطلع على ما يجري. في البداية، كان معظمهم من الوطنيين؛ كانت كاراكاس بيد مونتي فيردي، والثوار يهربون خوفاً من الانتقام.

. القوطيون يرتكبون الفظائع.

كانوا ذاهبين إلى حيث يتجمع الثوار، قريباً من غرناطة الجديدة.

روى له بعض الهاربين:

. الجنرال سيمون بوليفار قادم على رأس حملته. خرج من كوكوتا ويتقدم باتجاه الأنديس.

كان فيرناندو قد سمع حديثاً عن سيمون بوليفار هذا، الذي كان بعض رفاقه في العاصمة قد عرفوه. كان قد خسر موقعة بويرتوكابيّو عندما كان كولونيلاً في قوات ميراندا. الآن بدأ حملته.

. وهل تظن حضرتك أنه سيستطيع الوصول؟

. من يدري!

كثيرون من أولئك الرجال الذين كانوا ذاهبين للانخراط في الحرب، أظهروا حماساً هائلاً حيّر فيرناندو.

. يجب قتل جميع الإسبان. إن لم ننته منهم فسوف لن تنتهي الحرب.

. والأسرى؟

. أيضاً، جميعهم! النساء والشبان والشيوخ.

. ستكون هذه قسوة فظيعة.

. أية قسوة؟، هذه ليست قسوة! نحن هنا لا نلعب. إما أن ننتهي نحن من القضاء على القوطيين، أو أنهم سيقضون علينا. لو أن الجنرال ميراندا كان قد شدد قبضته، لكانت الحرب قد انتهت منذ زمن، بينما الآن....

وأشار الشخص الذي كان يتحدث، بحركة من يده دلّت على مدى تدهور الأمور.

. الآن ماذا؟

. الآن لا بد من أن يُقتل الكثيرون.

واستمر فيرناندو في تلقي الأخبار من العابرين...

وحدثت تحولات، وأخذت حملة بوليفار تسير نحو النصر. كانت شعبيته قد بدأت تنتشر في كل مكان. ثم...، لقد انتصر بوليفار. بوليفار دخل كاراكاس.

الآن أصبحت تمر عبر الـ "آلتار" مجموعات قوطية هاربة.

لم تكن تُسمع غير حكايات القسوة التي تمارسها قوات المنتصر. كان بوليفار قد أطلق نداءه "الحرب حتى الموت"، "الحرب بلا رحمة" (١).

. المتمردون يقتلون الجميع، والوطن يكاد يتحول إلى مقبرة.

. الجندي الذي يأتي بثلاثين رأساً لإسبان ستتم ترقيته إلى رتبة ضابط. إنها مسألة غاية في الوحشية!

. لم يبق أي إنسان في قريته. الجميع فروا هاربين.

كانت هذه الأخبار تلقي بثقلها على فيرناندو. لقد بدا له وكأن الجميع ماضون إلى الهلاك.

في الرابع عشر من تشرين الأول، جرى في كنيسة سان فرانثيسكو بكاراكاس الإعلان عن سيمون بوليفار محرراً لفينزويلا. وفيرناندو الذي لم يكن يعرفه، كان يتخيله. ذلك الرجل الفتيّ والجريء قد أُعلن، وبصورة رسمية، محرراً للبلاد. المحرر. وسرت في جسمه رعشة عميقة.

واستمرت مجموعات القوطيين بالمرور، وكل منها تحمل معها حكاية أكثر رهبة من سابقتها... في "لاغوايرا"، وخلال يوم واحد، قُتل ثمانمائة أسير بالسلاح الأبيض. وكان الدم يجري متدفقاً عبر الخندق المحيط بالسور باتجاه البحر الأخضر.

---

(١) ـ أطلق سيمون بوليفار نداءه "الحرب حتى الموت": Guerra a Muerte ضد الإسبان والكناريين، رداً على المجزرة التي قام بها مونتي فيردي وضباطه عام ١٨١٢مع ضياع الجمهورية الأولى. ولأسباب روائية، جمع أوسلارييتري هذه الفترة مع فترة الكفاح من أجل الجمهورية الثانية عام ١٨١٤، التي وقعت فيها مجزرة رهيبة ارتكبتها القوات الملكية الإسبانية بقيادة خوسيه توماس بوفيس.

. في الحياة ليس هناك إلاّ، أن تكون فوق، أو أن تكون تحت. من هو فوق هو الحي، ومن هو تحت هو الجبان.

ابتسم الكابيتان الإنكليزي أمام هذه المقولة الفظة. كان يستلطف ذلك الرجل القاسي، الذي تتسم حركاته وتصرفاته بالثقة والقوة.

. فإذن، كامبوس، ما رأي حضرتك بهذه الحرب؟.

لم يجب بريسينتاثيون في الحال. مسح على شعره بيده مخففاً من حدة اندفاعه في النقاش. وأخيراً، تكلم:

. هذه حرب ستصل إلى مرحلة،.... الآن هناك قتلى كثيرون، إنها الحرب الآن. الحرب هي لقتل الناس!

. هل حضرتك تحب الحرب؟

أجاب مراوغاً:

. هذا يتوقف على....

وضرب بيده على ظهر حصانه ضربة قوية جعلته يثب مثل موجة بحر.

كان الضابط الإنكليزي يتأمله بكثير من الانتباه.

. اتبعني من هنا . صاح كامبوس منطلقاً بحصانه .؛ سنصل إلى بئر جيدة.

كان الاثنان ينطلقان معاً باكراً وسط تلك الأملاك الزراعية الواسعة.

بدا الكابيتان سعيداً بصحبة الوكيل، ورأى فيه شخصية مثيرة للفضول والإعجاب.

حذّره "فونتا"، مراراً، بصورة مواربة، من الاطمئنان إلى كامبوس، الذي قد يصل

به الأمر إلى الاعتقاد بأنه يتساوى معه في القيمة والأهمية. لكنَّ الإنكليزي لم يُعر الأمر أية أهمية، لم يكن مبالياً بمسألة كهذه، وفضلاً عن ذلك، فقد كان منجذباً إلى تلك الطبيعة المفعمة بالحيوية، التي هي النقيض لطبيعة فيرناندو.

كان يعرف مدى قسوة بريسينتاثيون كامبوس مع الخدم العبيد؛ إلاّ أنه لم يكن يشعر بالميل إلى مؤاخذته. كان في أعماقه دافعٌ غامض للاعتقاد بجواز أن يسود القويُ الضعيف. تصرف معه في البداية بحذر، لكنَّ هذا الحذر زال منذ لقائه الأول به، بسبب مظهره الرجولي الواضح.

هو الآن يستمتع بصحبته.

وصلا إلى ضفة نهر الزجاج الذي يستظل بحقول البامبو الخضر الكثيفة فيمتزج خرير الماء بنسمات هواء منعشة.

. هذه هي . قال الوكيل وهو يترجل برشاقة من فوق ظهر حصانه .؛ هذه هي، هذه البئر ممتازة وماؤها لذيذ المذاق.

كانت المياه تتدفق من الأعماق إلى سطحها الضيق والجميل، والشمس تبسط أولى أشعتها فوق التخوم المجاورة.

ترجل الإنكليزي وأخذ يخلع ثيابه، شعر برغبة ملحة بأن يتعرى وسط هذه الطبيعة البكر المدهشة.

. هذا أجمل من جميع مدن العالم!

انتهى من خلع ملابسه وقفز مندفعاً إلى الماء كحيوان ظمآن.

. ألم يستفزك الماء للقفز إليه، كامبوس؟

. الآن لا، ربما بعد قليل.

مكث الإنكليزي في الماء وقتاً طويلاً، تملؤه البهجة.

. حضرتك لا تعرف ما الذي يعنيه هذا، لأنك تعيش وسط الطبيعة. لكنْ أنا، أنا القادم من المدن المتعفنة، أنا أعرف قيمته!.

خرج من الماء، وخلال ارتدائه ملابسه، تابع حديثه:

. أنت لطيف معي وأود أن أقدم إليك هدية.

. لا داعي لذلك.

. لا، سأقدم إليك هدية. وستكون مسدساً إنكليزياً من النوع الممتاز. وسيجعلك تتذكرني.

. شكراً . قال بريسينتاثيون كامبوس بلا حماس.

وفي العودة، أطلقا العنان لحصانيهما حتى بلغا المنزل. وعند أسفل الدرج، ترجل الإنكليزي.

. انتظرني. سأعود حالاً.

صعد إلى غرفته. ولدى نزوله مر بالقرب من فيرناندو، الذي كان جالساً يكتب في البهو، ثم تابع إلى حيث كان ينتظره الوكيل.

ناوله المسدس المصنوع من الفولاذ اللامع، المرصع بالأصداف والمزدانة قبضته بنقوش رائعة.

. هذا لحضرتك! احتفظ به وتذكّر الذي قدمه إليك.

ومن غير أن ينتظر جواباً، تركه وصعد.

سار بريسينتاثيون كامبوس صامتاً، مع الحصانين، يجرب حركة المسدس وهو غارق في أفكاره.

عندما عاد الانكليزي، سأله فيرناندو:

. ما الأمر؟

. لا! لا شيء! نزلت كي أقدم مسدساً لكامبوس.

. آ! أهديته مسدساً؟ أمر سيّئ. كان عليك ألاّ تفعل ذلك. هذا سيجعله يزداد ادعاء.

. لا أظن ذلك.

. إنه يبدو لحضرتك إنساناً جيداً، أما بالنسبة إليّ فلا.

. بالنسبة إليّ نعم! أنا أثق به في أي أمر بلا تردد.

في هذه اللحظة خرجت إينيس إلى البهو.

. عمَّ تتحدثان؟

. عن الوكيل . قال فيرناندو بشيء من الفتور.

. آ! لعله قد ارتكب أمراً شائناً جديداً.

. لا . أجاب الإنكليزي باسماً . إطلاقاً. فقط أهديته مسدساً، وكنا نتحدث عن ذلك.

ابتسمت إينيس واتخذت لنفسها مقعداً إلى جانب أخيها.

كان شحوبها لطيفاً ورقيقاً تبرز من خلاله عينان سوداوان كبيرتان.

. هل تعزفين لنا شيئاً . رجاها الكابيتان. استجابت، نهضت بلطف ودخلت إلى الصالة، جلست إلى البيانو وبدأت تعزف لحناً هادئاً وشاعرياً.

توقف فيرناندو عن الكتابة، وجلس الإنكليزي على مقعد وثير وأغلق عينيه.

حلقت الموسيقا بنغمات بسيطة وصافية تحمل إلى النفوس الدعوة إلى استرجاع ما في الذاكرة من أمور بعيدة ومنسية.

مع توقف العزف، اقترب الانكليزي من البيانو.

. شكراً جزيلاً. حضرتك تعزفين بصورة رائعة.

ابتسمت وهي غير مصدقة ما تسمعه.

. هل ترغب حضرتك في أن أعزف المزيد؟

وأخذت تعزف نشيداً دينياً خاصاً بالاحتفالات، ذا إيقاعات صغيرة تتناغم مع ارتعاش ملامس البيانو.

. أتعرفين حضرتك؟ هذا يذكرني ببلدي إنكلترا.

توقفت عن متابعة العزف.

. أيام الأحد، مع آلات الأرغن في الكنيسة، يؤدي الناس أناشيد كهذا. الناس الطيبون! ثم يذهبون إلى الحقول لتمضية يومهم، حقول تغطي أرضها الحشائش، والقلاع تشمخ فوق الروابي. يذهبون في عربة كبيرة مطلية باللون الأصفر، تجرها خمسة أحصنة.

ويتنهد قبل أن يضيف:

. إنكلترا العجوز والحلوة!

كانت إينيس تحب أن تستمع إلى ما يرويه الإنكليزي من ذكرياته واشتياقه، فهذا يدخل إلى نفسها الفرح. كانت تعيش دائماً وحيدة في البيت الكبير الصارم، يحيط بها أناسٌ وقورون وغير مكترثين، ولم يكن ما في روحها من أعماق ومشاعر يجد له أي منفذ. الرجال الوحيدون الذين عرفتهم هم أبوها، القاسي؛ وأخوها، غير المكترث؛ ثم الأقل مرتبة، بريسينتاثيون كامبوس، الذي كانت تشعر تجاهه بالنفور والازدراء؛ والعبيد، الذين ليسوا رجالاً، ولا أشياء، ولا حيوانات.

ذلك الكابيتان، جورج دافيد، الأشقر، الرقيق، الأنيق، الذي زار كل تلك البلدان،

والذي لم يكن يجلس إلى المائدة في المساء إلا مرتدياً سترةً عسكرية طويلة ذات كُميّن مطرزين، إنه مخلوق استثنائي لم يسبق لها أن تعرفت بمثله.

تنهدت وهي تتحدث إليه، وبفضول الأنثى سألته:

. وهل هناك الكثيرات من السيدات الجميلات في إنكلترا؟

. أجل، هناك الكثيرات. في نهر التيمس تمر مراكب جميلة تنقل فتيات مرتديات ثياباً زاهية الألوان وهن يمسكن بمظلات شمسية صغيرة. ضفتاه تغطيهما حدائق خضر تملؤها أشجار وارفة، تحلو تحت ظلالها رواية الحكايات. في إنكلترا عدد كبير جداً من الجنّيات يفوق ما في سائر بلدان العالم.

ضحكت بطفولة وسعادة.

. هل قرأتِ حضرتك شيكسبير؟

لم يسبق لها أن سمعت باسمه، كانت تعرف فقط كتب الدين وآلة البيانو.

هزّت برأسها نفياً.

. كلا؟ للأسف.. أعماله ملآى بما يحلّق بالفتيات إلى عالم الأحلام. حكاية تيتانيا، وحكاية ميراندا....

شعرت بالسعادة في ذلك الحوار، الطافح بالحنان. لم تعرف في السابق شخصاً مثيلاً له. كان عذباً لا يشبه الآخرين، وفي الوقت نفسه، كان صلباً وقوياً، ويتحدث أيضاً عن الحرب مثل الآخرين. كان قد شارك في الحروب في أوروبا، ويروي حولها قصصاً رهيبة عن أشخاص يحتضرون وهم يكتبون بالدم كلمات الوداع لحبيباتهم؛ عن جنود كان عليهم الاختيار بين البقاء إلى جانب أمهاتهم أو التضحية من أجل الوطن. كان وحده، وليس غيره، من يعرف أشياء تثير متعة الاستماع. حكايات حول الرجال الذين كانوا ينتحرون في قصص حب؛ حول قطاع الطرق؛ حول القباطنة القراصنة الذين كانوا يسيطرون على المجتمعات الإنسانية؛ أحاديث حول باريس، وحول مدن

إسبانيا وإيطاليا، وعن لندن والأماسي في مسرح "درووري لين"، وعن ثياب "مدام ريكامييه"، وقبعات "جورج برومل"؛ لم يكن له مثيل في إلقائه باللغة الإنكليزية، وهو ما كان يترجمه من ثم بكل مودة.

...... إنها عينٌ، عندما تتأمل الأشياء، تذهّبها....

ليس من أحد بهذه الجاذبية.

. للأسف! فشيكسبير يمتلئ بالأحلام الرائعة. في أحد أعماله هناك سكّير، سمين جداً وكذاب وكسول ولص، اسمه فالستاف، السير جون فالستاف، وضع شيكسبير فالستاف ذات ليلة في غابة كان يرقص فيها السِّلْف الأخضر والجنيات الصغيرات الرائعات.

كانت تصغي مثل طفلة.

. وما هو السِّلْف؟

. السِّلْف. آه، من الصعب إيضاح ذلك!، هو أزرق، مائل إلى الخضرة، مثل ذباب دوّار الشمس، يخرج خلال الليل في مجموعات كبيرة، ويرقص، ويلوث بأرجله كل الزهور. ذات مرة، أعلنت النملات الحرب عليه..

كانت تتابعه بعينيها الكبيرتين العميقتين، المذهولتين.

ظهر بالباب أحد الزنوج.

. الغداء جاهز.

تنهدت، مع هذا القطع المفاجئ للحظات السعادة التي كانت تصوغها كلمات هذا الإنكليزي.

دخل فيرناندو إلى الصالة.

. هل ننتقل إلى الطعام؟

نهضا.

. آنسة إينيس، تعلّمي الانكليزية، وعندما أعود ذات يوم إلى إنكلترا، أبعث إليك بجميع أعمال شيكسبير، وبذلك سوف لن تشعري بالوحدة إطلاقاً.

خلال تناول الغداء كان فيرناندو والكابيتان يتحادثان:

. أتعرف حضرتك، انتهيت للتو من الكتابة إلى بيرناردو، من الضروري أن يوافيني بالأخبار حول أوضاع الحرب وعن رأيه فيما علينا أن نفعله.

. حسن جداً. لقد مضى على وجودي هنا بعض الوقت، ولم يتم إنجاز شيء بعد. ثق أنه يضايقني كوني لم أتمكن حتى الآن من القيام بأي تحرك.

. لا تقلق. ما زال في الوقت متسع لكي نفعل شيئاً. الأمر ينتهي خلال يومين أو ثلاثة أيام.

. ماذا من جديد يا ترى؟

. لا شيء. الأمور ما تزال على حالها. عاد القوطيون مجدداً إلى موقع القوة. لقد استولوا على السهل مع ذلك المدعو "بوفيس" (١)، الذي يتقدم زارعاً الرعب. وليس من المستغرب أن يخسر الجمهوريون.

. لهذا علينا ألاّ نتباطأ. أنا لم آتِ لأي أمر آخر. متى ستتلقى حضرتك جواب

---

(١) . José Tomás Boves (١٧٨٢-١٨١٤). أحد أكثر الضباط قسوةً من بين الذين حاربوا إلى جانب الملكيين ضد الجمهوريين خلال حرب الاستقلال. وُلد في مدينة أوفييدو بإسبانيا، وقُتل في إحدى المعارك بمنطقة أوريكا.

بيرناردو؟

. ربما في هذه الليلة بالذات.

بعد الغداء، ذهب فيرناندو إلى معصرة قصب السكر، بينما تمشَّت إينيس مع الكابيتان إلى الغابة الصغيرة التي تغطي سفح الرابية. بقيا صامتين برهة طويلة غارقين في تأملاتهما أمام حقول القصب ودخان البرج الصغير والجبال البعيدة.

سألته بسذاجة:

. لماذا جئت حضرتك؟

. هل الأمر يثير اهتمامك؟

. لا . كذبت بدلال . أسأل لمجرد السؤال.

تنهد بطريقة مبالغ فيها. ومثل سائر رجال أوروبا في عصره، كان يعيش ويتفاعل مع الأمور بصورة رومانسية. كان يتلذذ بالظهور أمام الآخرين كشخصية غريبة وغامضة، تلاحقه الآلام وتقوده الأقدار.

. أنا على يقين من أني رجل تطارده اللعنة. أحب الحرية، وأمضي مكافحاً من أجلها عبر العالم. ذات يوم، في زاوية ما، سأموت وحيداً، دون أن يكون هناك من يُغمض لي عينيّ.

كانت هذه العبارات بالنسبة إلى الكابيتان مبتذلة وتافهة، سمعها ورددها مراتٍ لا حصر لها، كما قرأها في جميع الكتب إلى درجة الإشباع. أما بالنسبة إليها فكانت عبارات استثنائية جديدة وبالغة الدلالة، أثارت تعاطفها العميق مع هذا الرجل الذي تطارده اللعنة ويجتاز أرجاء العالم بحثاً عن المخاطر لمجرد حبه للحرية.

. أنا ليس لديّ غير الألم. رأيت أناساً كثيرين وبلاداً كثيرة ولست أملك سوى الألم. ألم الحياة، وألم الموت، وألم تذكّر الأشياء التي سوف لن أراها أبداً.

أثار هذا لديها الرغبة بالبكاء.

. أتعرفين، آنسة إينيس، ما هي الأشياء الوحيدة التي بقيت لديّ، والتي ترافقني؟

. لا. ما هي؟

. الأغنيات. الأغنيات التي استمعت إليها في بلاد بعيدة، من امرأة مرت بالقرب من أحد المعسكرات. لقد بقيت هذه الأغنيات معي، ذهبت معي. عندما كنت قادماً إلى هنا، قبل أن تقلع السفينة، رست لعدة ساعات في مرفأ غير معروف. وأنا على ظهر السفينة رأيت المدينة التي لم تكن تضيئها سوى مصابيح قليلة متناثرة؛ وعندما بدأنا نبتعد عن رصيف المرفأ، فجأة، ودون أن أعرف من أين، وصل صوت يشدو بأغنية. لقد أثَّر فيَّ ذلك.

استمر الصوت حتى غابت عنا كل الأضواء، عندها أحسست بالكآبة. كان صوتاً بسيطاً وحزيناً. ما أزال أتذكر شيئاً من تلك الأغنية.

هل تودين أن أغنيه لك؟

. لا! لا! لا!

كانت في غاية التأثر وتعرف أنها لو استمعت إليه يغني لأجهشت بالبكاء.

وبعد لحظات من الصمت:

. عندما سأغادر، عندما ستكونين قد نسيت هذا الرجل الذي حلت عليه لعنة، سأتذكر الألحان اللطيفة التي عزفتِها. سيسعدني أن أتذكرها.

كان يقول ذلك على سبيل الملاطفة، لكنّها كانت تصغي إليه بأعماق مشاعرها.

تعللت بعذر ومشت وتركته وحيداً. سارت مسرعة، مستسلمة لبكاء مرير. كان انفعالاً لا تدرك سببه. بكت، وبكت، يغلبها شعور عميق بالحاجة إلى من يواسيها، مثل طفلة تحتاج الى أحد ما يغمرها بحنانه وبكلماته المحبة الرقيقة. أحدٌ ما، لا!

الكابيتان دافيد، بيديه اللطيفتين، اللتين تزدادان بهاءً مع كمّيه المطرّزين. كانت تبكي من أجله. إنه وحيد، يهيم على وجهه عبر العالم في سبيل الحرية، يتذكر الأغنيات التي سمعها خلال ترحاله. كانت تتمنى لو ترافقه، وتتابع حياتها معه، ولا تفارقه أبداً. كانت تدرك أن الحياة معه ستكون الفرح الذي لا حدود له. كانت تتمنى لو أنها تعاني من أجله وأن تصبح ضحية في سبيل حبه. كانت تبكي وتبكي. إنه رجل استثنائي، بسالفيه الطويلين، الأشقرين كالعسل، وسترته الطويلة الليلكية، ومسدساته المزدانة بالنقوش، وحكاياته عن البلدان المدهشة.... ومع ذلك، فإنه سيغادر ذات يوم، بعيداً، ولن يعود أبداً، وعندما سيصبح وحيداً سيتذكر الأشياء التي كانت تعزفها على البيانو، سيتذكرها عندما سيصبح غير قادر على الاستماع إليها مرة أخرى. بكت. إنه وحيد ويقول إنه قد حلّت عليه لعنة. لسوف تتبعه حتى آخر العالم، طائعةً، مُحبة.

لا تطلب غير هذا. وفي وجهها الذي ازداد شحوباً، كان الألم يملأ عينيها الكبيرتين.

في المساء، لم تشأ النزول إلى غرفة الطعام. لم يكن هناك غير الكابيتان وفيرناندو.

كان العبد الذي أُرسل إلى منزل بيرناردو لاثولا للمجيء بالأخبار قد عاد.

المصابيح الفضية الخمسة تضيء غطاء المائدة المصنوع من القماش الفاخر والصحون ذات الرسوم الزرق، وظلال الأيدي تتوزع فوق أدوات الطعام المعدنية النظيفة، والعبيد يقومون بالخدمة بملابسهم البيض.

. يقول بيرناردو إن كل شيء قد جرى الإعداد له بصورة جيدة. وإن اجتماعاً سيعقد غداً في القرية.

. من سيحضره؟

. جميع الذين تعاهدوا على العمل معاً. معظمهم من مالكي العقارات في المنطقة. في اجتماع الغد سيتم إقرار الخطة الواجب اتخاذها.

. ما تعداد هؤلاء الرجال؟

. حوالي الألف، وهناك أناس كثيرون سينضمّون إليهم في طريقهم.

. وهل تعتقد حضرتك أن الأمر سيكون على درجة من الجدية؟

. أعتقد ذلك، وغداً سنعرف ذلك بصورة أكيدة.

. أترغب حضرتك بأن أحدثك بصراحة؟ . قال الإنكليزي . أنا لست مطمئناً على الإطلاق. يكثرون من الحديث ومن التحضيرات، المفروض أن نكون قد وصلنا إلى اتخاذ القرار، فكلما تأخرنا في ذلك سيكون الأمر أكثر صعوبة.

كان فيرناندو مرتاحاً إذ التقى من هو قادر على دفعه إلى العمل.

بعد انتهائهما من تناول الطعام، انتقلا، وكما هي العادة كل مساء، للجلوس معاً في البهو. تحادثا وعلّقا على الأخبار التي جاء بها العبد:

رجل غير معروف، اسمه بوفيس، قام في السهل على رأس قوات من الفرسان بهجوم رهيب ضد القوات الجمهورية، إنه يقتل ويخرّب في طريقه مثل وباء مرعب.

. يدعونه بالشيطان، أينما يمرّ، يقتل، يسرق، يحرق. إنه أخطر من طاعون.

. أمرٌ عجيب . قال الكابيتان . يبدو أنه شجاع وجريء بصورة مدهشة. أتمنى لو أعرفه.

تابعا حديثهما قليلاً، ثم صعدا إلى النوم. أطفأ العبيد الأنوار وغرق كل شيء في الظلام والصمت.

وفوق، كانت إينيس في غرفتها تنام وهي تحلم أحلاماً متوترة، مستحيلة، تخترقها سفن شراعية سود هائلة.

عند الفجر، سُمعت أصوات صهيل الخيل. وانطلق فيرناندو والكابيتان دافيد، يصحبهما عدد من العبيد، مع أول ضوء لذلك الصباح الضبابي النديّ.

- ٧ -

شمس الصباح تغمر المكان بلحيتها الزجاجية الشقراء.

خرج بريسينتاثيون كامبوس إلى البوابة وجال بعينيه عبر ألوان الطبيعة الزاهية. جاءت الكلاب إليه وهي تنبح بفرح وتلعق يديه. وقف، بمظهره الفظ، وقميص نصف مفتوح يكشف عن صدره، ويداه الخشنتان تطبقان على حزامه الجلدي. أخذ نفساً عميقاً وشعر بسيطرته الكاملة.

قريباً منه، كان اثنان من العبيد يكومان الذرة بحركات إيقاعية متناسقة، وعلى مسافة أبعد قليلاً، عند إحدى السواقي، كان عبيد آخرون يغسلون حصاناً، وفي البعيد كانت تمر عربات كبيرة تجرها الثيران.

سار بخطوات بطيئة، والذين يمر بهم يحيونه باحترامٍ خائف:

. طاب يومك، دون بريسينتاثيون.

ونساؤهم اللواتي كن في غمرة العمل، وأولئك الذين كانوا يغسلون الحصان المتضايق من برودة الماء:

. طاب يومك، يا سيدي.

مشى باتجاه الجدران المطلية بالكلس الأبيض الناصع، بين الأشجار، وفوق الحشائش الندية.

. طاب يومك.

اقترب من أحد الجدران، كان أحد العبيد نائماً، تقدم منه على رؤوس أصابع قدميه وأيقظه بركلة مفاجئة، استدارت كتلة الجسد الأسود بذعر وأنين مختنق، ثم

نهض العبد، متذللاً، متجهاً إلى العمل:

. طاب يومك، دون بريسينتاثيون.

التمعت ابتسامة على وجهه المتغطرس. اجتاز الجدران البيض ووصل إلى البوابة العريضة لسكن العبيد، توقف. في الداخل، كان المكان مظلماً، رطباً، مثيراً للاشمئزاز، تنبعث منه رائحة لا تطاق لثياب بالية متعفنة وعرق نتن، وكأنه وكر لحيوانات لاحمة؛ رائحة كريهة بشعة كانت تلفظها تلك البوابة فتفسد نضارة ذلك النهار المشرق، رائحة حياة سفلى وقذرة. تملّكه إحساس بالتقزز، ورغبة طاغية، بأن يدمرهم، بأن يخرجهم بضربات السوط لتطهير أجسادهم، بأن يقتلهم جميعاً ويضرم النار في ذلك الوكر المقرف. كانت رغبة تدفعه إليها طبيعته النزّاعة إلى البطش والسيطرة، التي لا تتحمل المهزومين والجبناء. كان قوياً، والحياة تبرر له ذلك. لابد من أن ينزل بهم ضربات رهيبة بالسياط...

تابع سيره. عادت الابتسامة تملأ وجهه القاسي. صفان من الشجيرات ذات الأوراق الخضر اليانعة كانا يحفان به على الجانبين.

الآن يمر أمام منزل الأسياد المُلاّك. لقد غادر المالك والكابيتان دافيد عند الفجر متجهين إلى القرية.

كان يشعر بالازدراء تجاه المالك، كان يرفضه بصورة غريزية، ويعرف كم هو متردد وخجول. أما هو، فلم يكن يعرف غير المضي في الطريق الذي يختاره ولو كان يقود إلى الهاوية. يظن المالك أنه قوي بينما هو ليس كذلك، ويظن أنه ثوري وهو ليس كذلك، ويظن أنه ذكي وهو ليس كذلك، ويظن أنه سيد وهو ليس كذلك. كان بريسينتاثيون كامبوس يحتقره. "فلننزع تلك القطعة من الأرض . لا، لنذهب إلى الحرب. . لا!" إلى الحرب؟.... كان خائفاً!....

كم هي مسألة ممتعة وجميلة هذه الحرب.... حصان جيد، رمح جيد، ميدان فسيح، وأناس أمامك!... ابتسم ابتسامة واثقة. لم يكن ذاك سيداً حقيقياً كي يصدر إليه

الأوامر.

تابع مشيته. مر من تحت شجرات جوز الهند الباسقة القريبة من مدخل المنزل.

كان الإنكليزي ينتمي إلى صنف آخر من الرجال، إنه مع الحرب، لكنها حرب لا يفهمها كامبوس: حرب بِزيّ موحد جميل، لها جنرالات تملأ صدورهم الأوسمة، وفرق موسيقية تعزف الأناشيد. لم يكن باستطاعته أن يفهم ذلك، فالحرب بالنسبة إليه هي رمح وحصان، وما عدا ذلك فمجرد عوائق وعقبات، ليس هناك زيّ موحد بل صدور عارية، وليس من موسيقا إلا الصرخات؛ وليس من جنرال إلا ذاك الذي يحمله في داخله.

كان يشعر بقوته وبقدرته على اقتحام كل ما يمكن أن يقف في طريقه.

مضى صاعداً الرابية باتجاه المنطقة المنبسطة منها حيث المساحات المزروعة.

كانت أشعة الشمس الطازجة تلتمع فوق صفحة الأرض الخضراء، وتحت قدميه تتقصف الأوراق الجافة المتساقطة. اقترب من المعصرة، حيث كانت تتصاعد من برجها خصلات من الدخان الأسود، وتفوح رائحة الدبس.

شاهده العبيد يقترب منهم بخطواته الواثقة فداخلهم شعور بالغمّ.

. طاب يومك، دون بريسينتاثيون.

وتسابقت أصواتهم إلى تحيته. تابع سيره بكبرياء وخيلاء، كان يشعر بأنه سيد كل هؤلاء الرجال وسيد كل شيء، ويود لو يحطم ويدمر كي يضع قوته موضع اختبار.

. طاب يومك يا سيدي.

كان هذا إسبيريتوسانتو، العبد الكسول، الهزيل، الثرثار. كان قد تجاوزه قليلاً، لكنه استدار إليه بصورة مباغِتة:

. اجرِ بسرعة، جهِّز لي الحصان، واجلبه. لكن بسرعة.... تحرَّكْ!!

وانطلق العبد بسرعة البرق. كان صوته يقع على أولئك الرجال مثل ضربات السياط ويجعلهم يمتثلون إليه مذعورين. كان يشعر بالرضا لتسيّدهم ولأن عليهم أن يطيعوه.

إنه رجل تكوَّن كي يأمُر. لم يكن يريحه أن يتلقى الأوامر من أي شخص كان، ومجرد تفكيره بأن دون فيرناندو يصدر إليه الأوامر كان يثير لديه نوبة من الغضب.

رأس أسود آخر انحنى له:

. طاب نهارك يا سيدي.

. اجرِ، هاتِ لي ماء، ماءً نظيفاً للشرب.

وانطلق الأسود مسرعاً. ابتسم فَرِحاً وهو يراقب هذا السلوك الجبان. وعاد العبد مع إبريق ملآن بالماء البارد.

. تفضل سيدي.

تناول الإبريق، شرب جرعتين وسفح ما تبقى على الأرض. كل ذلك الجري كان من أجل هاتين الجرعتين. لكنه كان يصدر الأوامر.

. شكراً سيدي .، وانطلق مسرعاً بالإناء الفارغ، سعيداً بأنه يبتعد عن الوكيل.

عاد إسبيريتوسانتو يجر حصاناً. أخذه منه كامبوس، تفحص تجهيزاته، تفقد السرج والركاب، ثم امتطاه بقفزة رشيقة. وبدأ الحصان يقفز متوتراً، والفارس يجلده بالسوط في الوقت الذي يكبحه باللجام. انتصب الحيوان الحانق فجأة على قائمتيه الخلفيتين مثل برج شامخ، ووسط سحائب الغبار التي كانت تثيرها حوافره أخذ الحصان يقفز بعشرات الأشكال والحركات المبهرة والمثيرة.

توقف العبيد عن متابعة العمل وهم يتأملون تلك القوة المنطلقة والمهيمنة.

ابتسم بريسينتاثيون كامبوس، وأطلق العنان لحصانه ليجري بكل حرية، بينما كانت تفر بمحاذاته مساحات القصب الكثيفة الخضر. كان يشعر بسيطرته المطلقة. إنه حصان جيد، حصان جيد من أجل الحرب، ووراء الرمح المستقيم ذراع قوية ثابتة، ووراء الذراع القوية حصان بالغ السرعة. كم هو ملائم للحرب.

وشاهده العبيد يختفي بعيداً وسط الحقول المترامية. إنه بحاجة إلى أن ينال منه التعب، وأن يفرّغ شيئاً من طاقته. كان موضوع السيد المالك يجثم على صدره، والغضب الذي كان يملأ نفسه إنما هو بسبب الشخصية الجبانة لدون فيرناندو. لكنه الآن يشعر بنشوة القوة.

شاهده العبيد يعود فسارعوا متظاهرين بالانغماس في عملهم. إنه يقترب، وها هو قد أصبح أمامهم.

يجلجل صوته وهو يخاطب العبد القريب منه:

. اصعد إلى فوق! اقرع الجرس واجمع لي كل الناس! الكلّ! هيّا!

صعد العبد، وبينما كان الباقون منصرفين إلى العمل، بقي هو وحيداً فوق حصانه. وخلال برهة قصيرة انطلق صوت قرع الجرس ليملأ الفضاء ويتردد صداه في كل جانب. وسارع الجميع إلى القدوم حتى من أقصى أطراف المزارع البعيدة.

كان الجرس يقرع بجنون، وصخبه يسري في الدماء مثل نشوة الخمر، والرؤوس السود تتزايد حشودها حول هذا الرجل البرونزي الذي كان ينتظر بفارغ الصبر. وفجأة توقف الصوت وصمت، لتبقى فقط وشوشات وهمسات تتساءل عما دعا إلى هذا الاجتماع غير المتوقع.

كانت أشعة الشمس تسقط عمودية.

. أحضرْ لي حربتي ومسدسي.

وسرعان ما عاد إسبيريتوسانتو مع الغرضين المطلوبين. وبكل هدوء وضع

كامبوس مسدسه في حزامه، وأمسك باللجام بيده اليسرى، بينما قبض على الحربة باليمنى.

تابعه الرجال بنظراتهم بصمت مطبق.

ثم عاد صوته يجلجل مسيطراً.

. لن يستمر العمل بعد اليوم. اليوم سنذهب جميعاً. سنذهب إلى الحرب. أنتم جنودي. خذوا حرابكم واتبعوني.

تجمّد العبيد في أماكنهم للحظات حائرين، مندهشين من هذا القرار المفاجئ.

. هيا! اجلبوا الحراب!

أخذ البعض يتهيأ لإطاعة الأمر عندما تقدم أحد العبيد الأقوياء باتجاه الوكيل وخاطبه بلهجة واثقة:

. حضرتك الوكيل، أجل سيدي، لكنك لست المالك. المالك ليس هنا، وليس لك الحق في أن تخرجنا بهذه الطريقة.

كان الآخرون ينظرون فقط إلى الحصان المتحفز وإلى بريق الحربة في يد الوكيل، الذي سرعان ما عاجل العبد بطعنة في رقبته أنهت حياته.

حُسم التردد، وأسرع الجميع إلى جلب أسلحتهم وعادوا على الفور. عند ذلك راح بريسينتاثيون كامبوس يتفحصهم. كانوا مائة رجل بملابس متنوعة الأشكال والألوان، أنصاف عراة، حفاة، يتكئون على حرابهم من التعب، بعضهم قوي، وآخرون هزيلون ومرضى.

تفرس فيهم جيداً ثم بدأ يختار وينتقي من بينهم:

. أنت، بيدرو، وأنت، رامون، وأنت، ناتيفيداد، وأنت، ثيريلو، وأنت، خيسوس، ستكونون ضباطي. أنا الرئيس.

وتوزع الشبان الخمسة الأقوياء الذين اختارهم على المجموعة.

. أنتم ستصدرون الأوامر إلى هؤلاء الناس وفقاً للتعليمات التي ستتلقونها مني.

وبدأ الضباط الجدد يمارسون سلطتهم بأن أخذوا يجلدون العبيد الكسالى والخائفين على ظهورهم، حينها انطلق صوت غاضب من أعلى المنزل:

. ما الذي تفعله هناك، كامبوس، مع هؤلاء الناس؟ من الذي قتل هذا الرجل؟

كانت إينيس تقف على الشرفة وقد أدهشها ما تراه.

. أنا لا يحاسبني أحد، لا أنتِ ولا أي إنسان آخر . أجاب . جهّزوا هؤلاء الرجال للانطلاق، واتبعوني!

عندما رأته يمضي غير مكترث، ومعه جميع العبيد الذين انتزعهم من عملهم بالقوة ودون أي وجه حق، فقدت أعصابها وأخذت تصرخ مهتاجة:

. خائن! قاتل! لص!!

تطايرت الصرخات الذاهلة فوق رؤوس هذه القوات الصغيرة التي كانت تمضي مبتعدة، يتقدمها حصان كامبوس.

. قاتل!! جبان!! خائن!!

كان قراراً مفاجئاً. وهذه شقيقة المالك، أسرة المالك، صرخة المالك تستمر بمطاردته بكل ما لديها من طاقة.

. انتظروني هنا. سأعود سريعاً.

واستدار ليتوجه مسرعاً نحو المنزل، تدفعه عاصفة من الغضب.

. لص!! خائن!!!

شعر بأن على هذا الصوت أن يتوقف، أن يموت، لم يعد يستطيع تحمل

سماعه.

صعد الدرج الخارجي. إنها المرة الأولى التي يتجرأ فيها على الدخول إلى مقر إقامة المُلاّك. لم يسبق له إطلاقاً أن تجاوز الممر الخارجي.

صعد بخطوات عازمة على أمر ما، مَرَّ بالبهو حيث اعتاد فيرناندو الجلوس للقراءة. دخل إلى الصالة ذات الأثاث الأحمر، والبيانو، والمقاعد الوثيرة، واللوحات.

. قاتل!!

كان هناك بابان. توجه إلى ذاك الذي في الجانب الأيسر. وجد نفسه في الركن المخصص للصلاة، أمام العذراء التي يضيئها نور خافت. دفع الباب بعنف، ثم توجه إلى الباب الذي في الجانب الأيمن، اجتاز غرفة الطعام: طاولة محاطة بمقاعد جلدية عالية، ركن صغير يزدان بالورود، ورود حمر من النوع الفاخر تغمر رائحتها المكان.

. خائن!!

كانت الشتائم تخترق الجدران لتغوص في دمه الفائر، والصرخات الغاضبة تهبط عليه من فوق عبر الدرج، حيث كانت إينيس، بوجهها الذي ازداد شحوباً، وعينيها اللتين ازدادتا سواداً واتساعاً، وجسمها الذي ينتفض غضباً واهتياجاً.

صعد إليها. وهناك أوقفه شيء ما في اللاشعور، وقف يتأملها بنعومتها، ويشبع نظراته من ذراعيها الرقيقتين، وجسدها المتحدر من أسرة الملاّك الأسياد.

. جبان!!

فقد رشده، وتابع اندفاعه إليها مثل مجنون. وأمام هذه الهجمة المتوحشة تراجعت مذعورة إلى داخل غرفتها.

لم يكن إنساناً: كان كتلة من العنف المنفلت المدمّر.

طاردها، حاصرها في زاوية الغرفة، ووقف أمامها، وعيناه تقدحان كراهية، ينظر

إليها من الأعلى إلى الأسفل.

كانت تشعر بأنها مجروحة ومهانة، لكنها في الوقت نفسه عاجزة أمام ذلك الوحش الذي لطالما نظرت إليه كحيوان مع شعور متسلط يدفعها إلى إهانته وإلى معاملته بصورة سيئة بقدر ما تستطيع.

الآن هو في مواجهتها، متغطرساً وغاضباً. شقيقة المالك السيد.

. عبد خائن، وتتجرأ على التطاول ضد أسيادك! عبد نذل!!

لم يستطع أن يتمالك نفسه. أخذها من قميصها فتمزق كاشفاً عن صدرها، وراح يصرخ بصوته الأجش وهو يكيل لها الضرب:

. هذا ليس جسد عبد، يا تافهة، أنا لست عبداً. أنا رجل حر. أنا لست عبداً لجبان مثل أخيك. هذا جسد رجل فحل!!!

خلع قميصه وانقض عليها كما ينقض حيوان على فريسته، وأكمل بأصابعه المتشنجة انتزاع ما تبقى من مِزق ثيابها إلى أن عرّاها بالكامل. ثم، وبضربة من يده الثقيلة، ألقى بها أرضاً.

شمخ بعضلات جسمه البرونزي، وصوته يدوّي:

. هذا جسد حر، مثل جسدك. هذا جسد رجل فحل!!

زحفت على الأرض تحاول إخفاء عريها تحت السرير.

كانت تشعر بالعجز والاستسلام في مواجهة هذه القوة التي لا مجال لقهرها. عارية ومهزومة، بكبرياء محطمة، أمام ذلك المنتصر. امتزج لديها الغضب بالألم.

وانخرطت في بكاء يائس.

. قاتل!! نذل!!

كان صوتها يتقطع بالنشيج، الذي ملأ بريسينتاثيون كامبوس بإحساس جديد مفاجئ.

إنه لم يعد الآن أمام دونيا إينيس، لم يعد أمام شقيقة المالك. كانت امرأةً عارية تبكي.

شعر بالتحرر من بعض ثورة هيجانه، وراح يتأملها بتأنٍّ؛ الجسد الأبيض بخطوطه الرائعة تضيئه العينان.

اقترب منها، حملها بين ذراعيه وأخذ في تقبيلها بينما هي تنشب فيه أظافرها وتضربه بيديها الواهنتين.

. اتركني! اتركني! أيها العبد!

استمر يقبلها بنهم، ويداه تتلمسان كل موضع من جسدها الناعم والفاتر. قبّل فمها المتشنج من الغضب، وعينيها السوداوين الغارقتين بالدموع.

كان هو رجلاً، وهي كانت امرأة.

. نذل!!!

في الأسفل، كان العبيد ينتظرون. انتظروا طويلاً.

عندما خرج بريسينتاثيون، نظروا بذهول إلى قميصه الممزق ووجه المليء بالخدوش وعينيه الحمراوين وشعره المتشعث.

ابتسم بعضهم بخبث، لكنْ سرعان ما هدر صوته المرعب من جديد:

. ثلاثة رجال لإشعال حريق في المنزل، وعشرة آخرون لإشعال حرائق في المزارع.

وانطلق الضباط للإشراف على تنفيذ الأوامر.

لحظات واندلعت ألسنة نيران هائلة وراء الجدران البيض، بعد أن قُذفت محتويات براميل الكحول على كل ما هو خشبي. كان لهيباً أزرق، أحمر، شاحباً، ينعقد ضفائر من جحيم، تمتزج بأشعة الشمس اللاهبة.

كما أخذت النيران تتصاعد من جميع أرجاء المزارع لتلتهم كل شيء بنهم وشراهة.

...... وعاد الجميع.

امتطى بريسينتاثيون كامبوس حصانه.

. هيا، لننطلق!

وانطلقت هذه القوة الصغيرة عبر المزارع التي كانت تغمرها الحرائق. ومع ابتعادها، بدت المزارع وكأنها غابة من نيران تتزايد اتقاداً واتساعاً. وعادت ابتسامة الرضا تملأ أسارير بريسينتاثيون كامبوس.

ومن وراء كامبوس كانت المجموعة تسير دون أي انتظام، وأصوات هامسة تعلق على هذه الأحداث الغريبة. كان صامتاً لا يتحدث إلى أحد، كما أن أحداً لم يكن يجرؤ على التحدث إليه.

مع حلول المساء كانوا قد اجتازوا مسافة غير قليلة، ووصلوا إلى القرب من إحدى القرى الصغيرة.

أمر كامبوس بالتوقف، وأرسل رجلاً لاستطلاع بعض المعلومات. لم يكن قد قرر بعد ماذا سيفعل، فحتى هذه اللحظة كان يسير بلا أي تصور. كان يعرف فقط أنه ذاهب إلى الحرب، لكنه لم يكن يعرف بعدْ ما إذا كان سيصبح ملكياً أم جمهورياً.

وخلال انتظار عودة مبعوثه، نادى أحد ضباطه:

. أنت، ناتيفيداد، تعال إلى هنا.

. بأمرك، أيها الرئيس.

. ما هو رأيك بهذا الموضوع؟

. أي موضوع؟

. نعم؟ هذا الذي نحن بصدده.

خشي ناتيفيداد الإجابة بما لا يتوافق مع ما يرغب به كامبوس.

. كل شيء على ما يرام. لكن أليس بالإمكان الحصول على بعض الراحة؟

. نحن الآن في موقع مرتفع، ناتيفيداد. الذين هم في موقع منخفض يمكن لهم أن يرتاحوا.

ضحك الضابط بمكر؛ ضحك الاثنان سعيدين بأفكارهما الخائبة.

. حسن، ناتيفيداد، لكنك لم تفكر بمسألة هامة. أي جانب علينا أن نتخذ؟

. ماذا يعني أي جانب؟

. نعم؟ أي جانب؟ أي هل سنكون قوطيين أم جمهوريين.

صمت ناتيفيداد برهة قبل أن يجيب:

. حسن، سيدي. وما هو الفارق بين الاثنين؟

. الفارق كبير! كيف لا! ألا تعرف: القوطيون علمهم أحمر ويصيحون: "عاش الملك"!

. هكذا!

. بينما الثوار علمهم أصفر ويصيحون: "عاشت الحرية"!

. آه! جميل! وماذا نختار؟

أحد الضباط الآخرين، ثيريلو، وكان يستمع إلى الحوار، اقترب.

. لم ينادِني أحد، إلاّ أني سأدلي برأيي. هذا كلام لا معنى له. ما الذي سيقدمه لنا الثوار؟ الحرية؟ إنّا نمتلكها!

. هذا صحيح أيضاً . عقَّب ناتيفيداد.

. والوطن؟ . أضاف بريسينتاثيون كامبوس ضاحكاً.

. أي وطن؟، ليس هناك وطن مع كل هذا الذي أعانيه! ماذا قدَّم الوطن إليّ؟! هذه المسألة تستخدم لمجرد إخافة الشباب. إذا سمحت لي، سأقدم هذه المقارنة.

. هاتها.

. حسن، بالنسبة إليّ، موضوع الوطن مثل موضوع الحب. ألا ترى حضرتك أولئك الناس الذين يعشقون، ويلهثون خطوة وراء خطوة ثم لا يحصلون على شيء؟ الأمر نفسه. الوطن مجرد لهاث، مجرد حسرة.

ضحك الجميع بصخب مبتهجين بهذه المقارنة.

. آه، إنه ابن زانية هذا الـ ثيريلو!

. من ناحيتي . قال ناتيفيداد .، أنا لديّ وجهة نظر. القوطيون مضى عليهم وقت طويل في السلطة، لذلك فقد أصبحوا أغنياء ومتخمين. ومعهم، هناك إمكانية للحصول على شيء. أما الثوار فهم بحاجة إلى من يعينهم أكثر من حاجة اليتيم، ومع هؤلاء الناس ليس هناك ما يمكن تحقيقه سوى الجوع.

في تلك اللحظة عاد الرجل من مهمة التجسس: ليس لدى القرية الكثير مما يمكن أن تقدمه. الناس قلة وعُزَّل، وهناك حانة فيها الكثير من أنواع الأطعمة.

بعد أن استمع كامبوس إلى هذه المعلومات، تحدث إلى مجموعته:

. حسن، إذن، هيّا يا شباب، ولنر ما إذا كان هذا صحيحاً! هذه القرية القريبة

خالية من السلاح، وفيها أشياء كثيرة. سنذهب لتطويقها ثم الدخول إليها من منافذها دفعة واحدة، شاهرين الحراب ونحن نصرخ بأعلى أصواتنا كي نبث الرعب في قلوب الناس. حسن، إذن، اتكلنا على الله!

توزعوا ضمن مجموعات صغيرة في اتجاهات متعددة لتنفيذ الخطة.

عندما اطمأن كامبوس إلى أن جميع الأمور على ما يرام، اتجه إلى أحد المنافذ الموصلة إلى القرية، وأطلق من مسدسه عدة طلقات في الهواء، فاندفعت المجموعات من كل اتجاه مع صرخاتها المدوية.

هرب السكان المساكين ليختبئوا في بيوتهم ظناً منهم أنهم يتعرضون لإحدى الغزوات الهائلة. لقد بلبلتهم صيحات المهاجمين المجلجلة.

. عاش الجنرال كامبوس!!...

. أيتها العذراء... أنقذينا!

. يعيش بريسينتاثيون كامبوس!!

. ليتبارك السر المقدس!

وصل بريسينتاثيون كامبوس إلى الساحة: فضاء مربع الشكل يغطيه العشب. أرسل عدداً من رجاله إلى جميع أرجاء القرية يدعو الأهالي للاجتماع في الساحة.

خرج الناس الخائفون بكثير من الحذر وهم ينظرون إلى هؤلاء الغرباء بعيون مذعورة. كانوا، بمعظمهم، من كبار السن والنساء والأطفال. أما الشبان فكانوا قد جُنّدوا للذهاب إلى الحرب. كانت لديهم معلومات مبهمة عما يحدث في البلد، ويجهلون تماماً ما الذي سيحل بهم، ومن الذي سيغزوهم. كان هناك مَن ظَن أن رئيس هؤلاء الزنوج هو الجنرال ميراندا، وآخرون اعتقدوا أنه بوفيس شخصياً، وتفاقمت مخاوفهم.

عندما التأم جمعهم، أو بدا أنه كذلك، تحدث إليهم كامبوس من فوق ظهر حصانه:

. أيها السادة، أنا الجنرال بريسينتاثيون كامبوس. لن أوقع بكم أي أذى. عليَّ أن أنظّم رجالي، وأحتاج إلى مساعدتكم. أحتاج إلى مواد تموينية، وأحصنة، ومال، وأناس. من هم أعيان القرية هنا؟

راح الناس يتهامسون بصوت منخفض دون إعطاء أي جواب، ويتبادلون النصح والتصورات، محاولين التملص عن طرق المراوغة.

وسرعان ما بادرهم كامبوس بلهجة مختلفة.

. أرى أنكم سوف لن تفعلوا أي شيء بالحسنى. لا بأس. إنْ لم يتقدم إليّ أعيانكم، سأحصل بالقوة على كل ما أريد من هذه القرية، ثم أُضرم فيها النار!

وفي الحال، تقدم منه رجل ذو شعر أبيض.

. لا يا سيدي. لا ضرورة لأن تفعل هذا. يمكننا أن نتفاهم بطريقة أخرى. سنعطيك ما تحتاجه، لكنْ دون أن توقع بنا أي أذى.

. موافق . أجاب كامبوس، وهو يترجل عن حصانه.

لقد انتصر. كان سعيداً. هذا أول اعتراف علني بسلطته.

تفرقت الحشود.

وجاء إليه نفس الرجل متابعاً حديثه.

. إذا أردت، تفضل معي لأستضيفك في منزلي. إنه أفضل منزل هنا.

وافق مرتاحاً، ومضى الرجل أمامه ليدلّه على الطريق.

وفي الطريق أوقفته امرأة مسنة ذات وجه أبله.

. اسمع، يا ابني، أنتم من الثوار أم من القوطيين؟

وعندما لم يجبها، تقدم منها أحد العبيد فنهرها وأبعدها.

في ذلك المساء بالذات، بدأت تصل الإمدادات والمؤن إلى البيت الذي اتخذه كامبوس مقراً له: أكياس الفاصولياء والذرة، موز، عشرة أحصنة وخمسة عجول.

وبالإضافة إلى ذلك جمعوا الكثير من المال، جاء بعضه كعطاء، وبعض آخر سرقه الجنود.

وفي الليل احتفلوا بانتصارهم.

أقاموا في الساحة موائد المشروبات الكحولية، وأحضروا ضارباً على الطبل. أشعلوا الشموع، وكانت النجوم كلها تضيء، وأفواه الزنوج، الذين تحرروا من خجلهم، التمعت بأسنانهم الضاحكة، وراحوا يتحرشون بالنساء بأسلوب فاحش.

أفرغوا جميع الأواني الملآى بالـ "كانيا" (١). وسرى الكحول في أوصالهم، فانطلقوا يرقصون ويتدافعون منتشين. بعضهم أخذ يرفع النساء ويتقاذفهن وسط صرخاتهن المذعورة. رقص الجميع، حتى الأطفال والعجائز.

---

(١) . Caña مشروب كحولي من قصب السكر. والكلمة تعني أيضا القصب نفسه. . المترجم .

ووسط كل هذا الصخب مع الضربات القوية على الطبل بقبضات الأيدي، كانت الصرخات تدوّي:

. يعيش بريسينتاثيون كامبوس!

بدأت الليلة تلملم ظلالها. وشيئاً فشيئاً راحوا جميعاً يتساقطون منهكين من السكر. وفي الصباح كانوا راقدين فوق العشب كالجثث.

عند الظهيرة، أعاد كامبوس تنظيم رجاله استعداداً لمتابعة المسير. جمع من كان قد بقي من الشباب في القرية، وأخذ معه مزيداً من الحراب وثلاث بنادق. في المقدمة كانت الأمتعة والمواشي وبعض الحيوانات المحملة بالأغراض والمؤن، ثم انطلق الضباط على أحصنتهم وكذلك عدد من الجنود، بينما تبعهم الآخرون وهم يصخبون، ودون أي انتظام.

ومن جديد، ها هي السهول المنبسطة. كانوا سعداء، ويشعرون بأنهم أحرار وأقوياء. بدؤوا يشعرون بالاحترام تجاه رئيسهم، الذي يعود إليه الفضل في هذه الحياة الرائعة. كان شجاعاً، وجريئاً، ولطيفاً. لم يكن بمقدور أحد سواه أن يتولى قيادتهم.

كان أحد رجاله، الذي بعث به على حصان للاستطلاع، عائدا بأقصى سرعة:

. هناك قوات قادمة.

. أناس كثيرون؟

. كثيرون.

. أي علم يحملون؟

. الأحمر.

أمر بريسينتاثيون كامبوس مجموعته بالتوقف، وتقدم منفرداً حتى تجاوز أحد المنعطفات.

شاهد مجموعة صغيرة قادمة، ترتدي زياً موحداً ومزودة بالبنادق. أطلقت المجموعة صوتها إليه للتوقف، إلاّ أنه تابع تقدمه باتجاهها دون أن يستجيب لها.

. من يعيش؟

أطلق العنان لحصانه دون أن يتفوه بأية كلمة ولم يتوقف إلا قبالة العلم الأحمر، وأخذ يتأمله بعينين ثابتتين.

. من يعيش؟ . جاءه السؤال مرة أخرى.

استدار بصورة مفاجئة باتجاه رجاله:

. عاش الملك!

كان الاجتماع قد بدأ منذ الصباح الباكر في منزل دون "بيرناردو لاثولا" ولم يتم الوصول إلى اتفاق. كان معظم الحاضرين من ذلك الصنف من الرجال الذين يتعاملون بحذر مع الأمور التي لها صلة بالشأن المالي، ويفضلون التريث إلى حين اتضاح الحالة في البلاد، تجنباً لتعرضهم إلى أية مخاطر.

شعر فيرناندو بحالة من الرضا بسبب الموقف السلبي الذي اتخذه الآخرون. مَن أيَّدَ الحرب كانا فقط بيرناردو والكابيتان دافيد.

. لا يمكن الانتظار إلى ما لا نهاية. يجب أن تُقدم النجدة بالضبط حين الحاجة إليها. والآن، إذ يحتاج إليها الجمهوريون، هو الوقت الذي علينا فيه أن نتحرك . قال بيرناردو.

أحد الملاّك، وهو رجل مسنّ وغني، تحدث بدوره:

. أجل، أيها الشاب، ربما تكون على حق، لكنْ قد نكون نحن كذلك أيضاً. الأمر ليس بهذه البساطة. إنها آلاف كثيرة من الأموال سأخاطر بها، وكذلك أراضيّ وعبيدي، وحتى حياتي نفسها، لا بد من أن نضع في الحسبان، أنه لو انتصرت الثورة فسأنفق أموالي في جميع الأحوال، وإن فشلت فإن القوطيين سيدمرونني.

وقال رجل آخر:

. إضافة إلى ذلك، يجب النظر إلى الأمور كما هي. علامَ يعتمد الجمهوريون؟ ربما على الأموال التي بحوزتنا، فهم بحالة مزرية، ويموتون جوعاً، ولا يملكون شيئاً على الإطلاق. البلد بكامله عاد مرة أخرى إلى السيطرة الإسبانية. ويبدو لي أن التدخل الآن هو مجرد عمل جنوني.

. بوفيس انتهى من إخماد الثورة.

قال الإنكليزي:

. أجد أنكم تناقشون ما لم نأتِ لمناقشته. جميعنا متفقون على ضرورة مساعدة الجمهوريين. ما يجب علينا الآن تحديده هو كيف ومتى يجب تقديم هذه المساعدة.

. أيها السادة . أكَّد بيرناردو .، الأمر ليس عملاً تجارياً، إنه أمر يتعلق بالقناعات. أنا على ثقة من أن أيّاً منكم لا يمكن أن يفكّر بالتقتير في لحظات على هذه الدرجة من الأهمية.

عندئذ تدخل رجل كان يجلس صامتاً طوال الوقت وهو يعرك شفتيه بيده الغليظة. تحدث متمهلاً ومؤكداً على كل كلمة من كلماته:

. حسن، أنا، من ناحيتي، أعرف ما الذي عليّ القيام به. لا تدخلوني في أي حساب. أنا ليس لدي ما أفعله مع الجمهوريين، ولا مع البلد، ولا مع أي شيء من هذه الحكايات. أنا ذاهب إلى حقولي للعمل، فعلينا أن نرى الأمور كما هي في الواقع، بِغض النظر عما هو هذا الواقع. من قبل، مع الإسبان، كان حالنا أفضل، كانت هناك الأموال، وكانت هناك التجارة، لكن إلى أين سيوصلنا هؤلاء الجمهوريون! قل لي، ماذا سيكون شأن العملة؟ وعلى من سيقع الأذى؟ وهذه الحرية التي ستعطى للعبيد، هذه الأكوام من الزنوج الكسالى والمتهالكين. إنهم لا يحترمون الناس ولا ملكياتهم، لقد سبق لهم وتولوا السلطة مرتين ولم يفعلوا شيئاً. في البداية، جاء الجنرال ميراندا، الذي تعوزه الكفاءة، ولا يصلح لشيء؛ والآن هذا البوليفار، والذي ليس، هو الآخر، بأفضل من سابقه. مع هؤلاء الناس لا يمكن المضي إلى أي مكان!

. إنه أمر سيّئ . عقَّب بيرناردو . أن تناقش الأمور بهذه الطريقة. أنت لا تعرف شيئاً عما تتحدث به، فلا ميراندا كانت تعوزه الكفاءة، كما تظن، ولا بوليفار هو كذلك أيضاً. إنه لأمر بائس ألاّ تفكر سوى بما في جعبتك من حفنة نقود.

انتصب الرجل غاضباً.

. لا تصعّد الأمور، ولا تدفعني إلى الصراخ! أنا أفعل بأموالي ما يعجبني؛ ولن أعطيها إلى أي متمرد ميت من الجوع، لن أدعهم يسرقونني!

أراد برناردو، الذي ثارت أعصابه، أن يذهب بالأمر إلى نهاياته، لولا أن تدخل الآخرون وهدّؤوا الأجواء، بينما استمر ذلك الرجل يهمهم ويستنكر.

...... أخيراً ساد الهدوء.

. لم يكن ضرورياً أن تدفع بالأمور إلى هذا الحد.

. إنه دائماً هكذا. بهذه الفظاظة.

ومع ذلك، فإن ما حصل قد عكّر النفوس. وكان من الواضح أن موقف الأكثرية هو إلى جانب ذلك المعترض.

كانت تتنازع فيرناندو مشاعر الخوف والاضطراب. ويدرك أن موقف ذلك المخلوق الذي ينتمي إلى نوع من البهائم، هو الذي يساوره في أعماقه بصورة غير واضحة. كان يفضل حياته الهانئة والمترفة في الـ"آلتار" على الذهاب إلى الحرب؛ فعلى الرغم من إدراكه لأهمية ذلك الاندفاع وتلك التضحيات الطيبة، إلاّ أن روحه كانت ميتة وجبانة. فهو، الذي جاء بغرض حث الآخرين على الحرب، لم يتكلم مرة واحدة، وأصغى برضا إلى جميع أولئك الذين كانوا يمعنون في التهرب، وكاد يصل إلى الشعور بالرغبة في أن تُرفض الفكرة.

عاد المالك المسنّ الذي كان قد تحدث في البداية، إلى الحديث من جديد.

. جيد، أيها السادة، لابد من معرفة ما سنقوم به. فيما يتعلق بي، يبدو لي من المناسب أن يقرر كل واحد ما يفكر به. الذين يودون التدخل في الحرب عليهم أن يقولوا ذلك، والذين لا يودون التدخل عليهم أن يقولوا ذلك أيضاً. أنا، من جهتي، أعود إلى التأكيد بأني لا أعتقد أن الأمور حالياً ملائمة لمثل هذا التدخل، لكن، وفي كل الأحوال، ولو أني لن أتدخل، باستطاعتي أن أقدم مساعدة بسيطة من المال، كي لا

أدع مجالاً لأن يتقوّل عليّ أحد أية أقاويل.

. إذن . قال الكابيتان دافيد . لا بد من أن نعرف من هم الذين سيذهبون، ومن هم الذين لن يذهبوا، فمن غير الممكن إرجاء اتخاذ القرار، من يود الذهاب فليقف.

وعلى الرغم من أن أحداً لم ينهض واقفاً، فإن الاقتراح استقبل بصخب من التعليقات. وبعد انتظار قليل، عاد يؤكد:

. فلنر، أيها السادة، ليقف الذين اتخذوا قرارهم بالذهاب.

استمر ضجيج الأصوات من غير أن يتحرك أحد. إلى أن نهض أحد الشبان.

. أنا!

ثم شاب آخر كان يجلس قريباً منه:

. أنا!

. حسن جداً، إذن هناك اثنان، لِنَرَ، أيها السادة.

من إحدى الزوايا المتطرفة نهض رجل ذو شاربين كثيفين:

. وأنا أيضاً!

بعد أن شاهد فيرناندو هؤلاء الشبان الذين توالى وقوفهم بدأ يتخوف من أن تنتصر فكرة الحرب.

. مَنْ أيضاً؟ . سأل الإنكليزي.

وقطع المشهد دخول أحد الزنوج.

. يسألون عن السيد فيرناندو فونتا.

. مَنْ؟

. أحد العبيد من الـ"آلتار".

ونهض فيرناندو ليخرج مسرعاً.

في الخارج كان إسبيريتو سانتو، أشعث، يلهث، عيناه جاحظتان من الخوف والإرهاق، وبحشرجة لا تكاد تسمع:

. سيدي! سيدي!

كان من الواضح أن شيئاً رهيباً قد حدث كي يأتي هذا البائس على هذه الصورة من الذعر.

. ماذا! ماذا حصل؟

. سيدي! الـ "آلتار"....! البنت إينيس...!

. ماذا؟ تكلَّمْ!

كانت أنفاسه المرهقة تمنعه من الاستمرار في الكلام.

. بريسينتاثيون كامبوس،... يا سيدي،... دَمَّرَ...

. ماذا؟

. دَمَّر. أحرق الأملاك.

كان أمراً مفاجئاً. ذلك الرجل الذي كان بالنسبة إليه شخصاً كريهاً، قام بعمله التخريبي.

لم يكن يتحدث عما كان يتوقعه منذ زمن. وشعر بحجم ذنبه.

. لكن، ماذا فعل؟ إسبيريتوسانتو! قل لي! تكلَّمْ!

. لقد دَمَّرها، يا سيدي، لقد دمَّرها، لقد أحرق الأملاك.

الـ "آلتار"، الأرض القديمة لآبائه، أحرقها هذا الدخيل، لو أنه يقع بين يديه فيقتله.

. أين هي إينيس؟

. الطفلة إينيس أيضاً، يا سيدي!

. كيف؟ أيضاً ماذا؟

. أيضاً، يا سيدي، اغتصبها بريسينتاثيون كامبوس. ياللفظاعة، ياللفظاعة يا سيدي!

أحس فيرناندو وكأنه سيُجَنّ. أخته، أراضيه، كل شيء دمره ذلك الوحش. وداهمته حالة من اليأس. لقد دمروه ولم يكن بإمكانه أن يفعل شيئاً. لقد دمَّروه. دمروه. سيولد العالم وينتهي ألف مرة إلاّ أن ما حصل سوف لن يتغير. لقد دمّروه، بعيداً عن متناول يديه، وعن مقدرته على فعل أي شيء.

لقد دُمِّر. دُمِّر. الآن يدرك كيف يباد الرجال في الحرب. الآن يدرك كيف يُطعن الأطفال بالحراب، وكيف يقوم "بوفيس" بتقطيع أوصال الرجال كي يتفرج على الأحشاء البشرية وهي ما تزال تنبض. إنه يشعر بالكراهية، وبعطش يحرق جسده. بريسينتاثيون كامبوس. كان عطشاً لا حدود له ولا تخفف من حدته سيول من الدماء. كم هو أمر في غاية البساطة أن يُقتل رجل. كم أنها مسألة في غاية البساطة أن يُقتل مائة مرة. شعر برغبةٍ طاغية في أن يدمِّر.

كان إسبيريتوسانتو يرتعد من الخوف أمام ذلك الغضب المحتقن.

. ياللفظاعة، يا سيدي!

. وتتحدث عن فظاعة أيها المعتوه؟

وحَدَّق في ذلك الزنجي الهزيل البائس الذي انبطح أمامه على الأرض من الإرهاق ومن الرعب وقد أصبح هدفاً لكل هذا الغضب المتفجر.

. وأنت؟، لماذا لم تقم أيضاً بالتدمير وبالسرقة؟

كان شعور طاغٍ بالكراهية يسيطر عليه، ورغبة جامحة في أن يفجر ما في نفسه، أن يدمِّر، أن يسمَع أصوات الأنين، أن يسمع أصوات التوسلات.

. أنت، أيها الزنجي الجبان، لم ترتكب ذلك بسبب خوفك!

لم يعد باستطاعته التمييز، كان الغضب يجتاحه كالحُمَّى، وانقض على المسكين بيدين مرتجفتين وأطبق بهما على عنقه الناحل.

. يا سيدي! ماذا تفعل يا سيدي؟ أرجوك!

رفعه عن الأرض وهو يهزه مثل دمية، حتى كاد يختنق.

. سيدي، إنك تقتلني!، ستقتلني.... آ آ آ ي ي ي!!

صوت الصرخات أخرج برناردو والإنكليزي وآخرين، وتمكنوا، بجهد كبير، من تخليص ذلك العبد وإنقاذه.

. ماذا يجري؟.. ماالذي يجري؟.. ما الذي حصل؟

وبعد أن هدأ فيرناندو قليلاً، غرق في ردة فعل طفولية. أملاكه المدمرة، وأخته المسكينة، وغَلَبه النشيج.

. ما الذي حصل؟

. ماذا يجري؟

وبينما أخذ إسبيريتوسانتو يحاول توضيح الأمر للآخرين، قال فيرناندو للإنكليزي، وهو ينتحب:

. أرأيت، كابيتان، هذا الخائن بريسينتاثيون كامبوس؟ لقد دمّر لي كل شيء. لقد قضى عليّ. وأختي الصغيرة المسكينة!

راح الإنكليزي يواسيه، بينما اقترب بيرناردو منهما:

. لماذا لا نذهب إلى هناك لنرى بأنفسنا ما الذي حدث؟ سأذهب أنا أيضاً.

. هذا أمر جيد جداً . أجاب الكابيتان .. إسبيريتوسانتو، جَهِّز الأحصنة.

. هذا اللص، كابيتان . تابع فيرناندو .، هذا اللص الذي دمر لي كل شيء. لماذا؟ لماذا؟

جاء الزنجي بالأحصنة. ساعَدوا فيرناندو بالركوب، وانطلقوا مسرعين تملؤهم الرغبة بالوصول بأسرع ما يمكن، مع استمرار بكاء فيرناندو المتوتر والمتشنج، الخارج عن سيطرته.

كانت بقايا خيوط الشمس قبيل الغروب تزيّن الطبيعة: التلال المرتفعة، مزارع القصب، السُهُب الضاربة إلى الحمرة. وتذكّر الإنكليزي أولى زياراته إلى الـ"آلتار".

. دون بيرناردو . سأل الكابيتان .، ألم تتعرف ببريسينتاثيون كامبوس؟

. أجل، التقيته في القرية ذات مرة.

. ألم يكن يبدو عليه أنه إنسان مخلص؟

. لا أتذكَّر. لم أفكر كثيراً في هذا الأمر.

. أما أنا فقد فعلت. كنا نخرج في المزرعة معظم الأيام. عرفته عن قرب، لم يَبدُ عليه أنه يفعل أمراً كهذا.

. ربما كان يتظاهر أمامك بخلاف حقيقته.

. لا. أنا متأكد من هذه الناحية. لم يكن يتظاهر أمامي. كان عفوياً وطبيعياً. وكذلك كان بحضور الآخرين. ترك لديّ انطباعاً بالقوة، وبالثقة.

.. هذه القوة الخارقة، التي أصبحت الآن مدمِّرة. وتذكَّر ضحكته الباردة التي

تكشف عن أسنان حيوان مفترس، وصلابته الحديدية فوق حصانه المتوثب، وعينيه الملتمعتين وهو يتحدث بصوته الأجش: "من هو فوق، هو الذي يحيا...".

كان فيرناندو، في الوسط، على حصانه، غارقاً في أحزانه.

. خيانة! خيانة فظيعة!....

وصلوا إلى تخوم الـ"آلتار". ليس هناك أي أثر للحياة، فقط كانت تفوح رائحة الجمر. كان بيرناردو أول الواصلين إلى أقرب التلال المطلة على المكان، حيث يظهر المشهد العام.

معظم ما كانت تغطيه المزارع أصبح متشحاً بالسواد؛ ومن البعيد كانت ألسنة من اللهب ما تزال تتصاعد. منزل المُلاّك انهار تحت سقوفه، وبين الحطام بدت بقايا بعض الجدران وقد تفحمت مثل أحجار الموقد.

كان فيرناندو يتقدم ببطء. بقعة سوداء كبيرة هي ما أصبح يبدو هناك، تتناثر في أرجائها شرارات من رماد جذوع الأشجار المحترقة.

ومع تأمله لما يرى، كان الألم يتفاقم.

. يا إلهي! كيف يمكن أن تحدث جريمة كهذه؟

همز حصانه فتقدم باتجاه المنزل، وتبعه الآخران. وترجل الثلاثة حول أكوام الحطام.

كان المبنى قد انهار بصورة كاملة: المواد الخشبية متفحمة، وأكوام من الحجارة، وبقايا دخان لم تخمد آثاره بعد.

. إينيس! أختي! أختي الصغيرة! إينيس! أين أنت؟

كذلك أخذ الآخرون ينادونها، يبحثون عنها.

وسط كل ذلك الدمار المحترق لم يسلم غير مكان مبيت العبيد وغرفة الوكيل

الصغيرة.

انتبه بيرناردو والكابيتان إلى خروج نحو عشر زنجيات من باب سكنهن يبكين ويندبن، فاتجها إليهن.

. يا مريم الطاهرة، ما هذه الفظاعة!

. أين هي دونيا إينيس؟ . سأل بيرناردو.

. يا مريم الطاهرة! لقد بحثنا عنها في كل مكان، ولم نعثر عليها.

. في كل مكان؟ . عاد يسأل.

. آه، أجل يا سيدي! في كل مكان، في كل مكان.

ثم أخذن يتسابقن إلى الحديث:

. كم كانت سيدة طيبة!

. يا يسوع، كم كان ذلك عملاً جباناً!

. نحن، وخلال الحريق، دخلنا إلى هنا.

. لكن انظر، لقد بحثنا عنها فعلاً.

. فليحمها الله.

. من المؤكد أن ذلك اللص الكبير قد أخذها معه!

أراد بيرناردو أن لا يدع مجالاً للمزيد من إثارة فيرناندو فيما لو اقترب منهن وشاهدهن على هذه الحال، فطلب منهن: ابقين هنا. ولا تخرجن! واصمتن!

وعدن إلى الاختفاء في الداخل وهن يسحبن معهن أصواتهن النادبة.

وعاد الاثنان إلى فيرناندو الذي جلس على الأرض يجهش يائساً أمام فداحة ما

حصل.

. هذا هو كل ما بقي لي من منزلي. كل ما كان بحوزتنا طوال حياتنا حطمه هذا المتوحش.

راح الإنكليزي يجول بين الأنقاض. هنا كان منزل الآنسة إينيس: الصالة الكبيرة، الصور القديمة في ركن الصلاة، البهو الصغير ذو الورود. لقد كان ذلك. أثار سخطه هذا التدمير الأعمى. البيانو الذي كانت تعزف عليه الآنسة إينيس نغماتها الطفولية. الآنسة إينيس المسكينة، التي كان يحكي لها حكايات عن الجنيات. بدأ يملؤه شعور من الحنان الرقيق، والإدراك بأنه كان قليل الاكتراث. كان يتحدث إليها لكونها المرأة الوحيدة التي كان يلتقيها في ذلك المكان. لم يكن يشعر بأي ميل تجاهها؛ ومع ذلك، فهو الآن يتألم لهذه المأساة التي دمرت حياتها الهشة. كانت امرأة مسكينة تملؤها الأحلام والآمال، التي حطمتها هذه الضربة المفاجئة. والآن، وقد أصبحت بعيدة، وربما قد غابت إلى الأبد، أصبح يتذكرها بكل هذا الحنان.

كان يتذكر كم كانت رقيقة، مدللة، قادمة من عالم آخر، لتسقط بين ذراعي بريسينتاثيون كامبوس المتوحش. تصورها في ذلك الرعب وهي تطلب العون والنجدة، دون أن يأتي أحد لإنقاذها. تذكر إصغاءها الطافح بالمودة وهو يروي لها حكاياته التي يحفظها عن ظهر قلب، والتي لطالما رواها لمعارفه، والتي تملأ الكتب الرومانسية، وتستعاد مع أناس غير مبالين، ولا حصر لهم. أما هي فكانت تتابعها بكل ذلك الاهتمام الحار. وربما أنها كانت قد بدأت تحبه.

هذه هي أنقاض ما كان عالمها، هذه هي النهاية، نهاية عالمها. كل هذا كان يضج في ذاكرته: عالمها الذي بددته هذه المأساة الرهيبة.

لقد دمّرها بريسينتاثيون كامبوس ودمّر عالمها.

كان يتذكرها وهي تعزف ألحاناً بسيطة على البيانو القديم. "وكيف يكون السِّلْف؟" مع كل التفاتة كان يرى أمامه لونها الشاحب وعينيها السوداوين العميقتين.

وها هو مرة أخرى إلى جانب فيرناندو الذي ما زال جالساً على الأرض، غارقاً في نشيجه.

لقد أدرك أنه كان بالنسبة إليها أكثر مما كان بإمكانه أن يتوقع، وأنَّبه ضميره على عدم اكتراثه، وآلمه أن تكون مشاعره الآن غير قادرة على فعل شيء.

شعر بأنه قد اقترف خطأ، وعليه التزامٌ بتصحيحه، عليه أن يمحو جرم غيابه، وأن يُقْدم على عمل غير عادي. وفي لحظة، ودون أي تردد، قال لفيرناندو:

. لي الشرف أن أطلب يد شقيقتك.

وردَّ فونتا الذي كان مشتت الأفكار:

. ماذا؟

. إذا عثرنا على الآنسة إينيس، بودي الزواج منها.

وبصوت كما لو كان يصدر من بعيد، أجاب:

. شكراً جزيلاً، كابيتان، شكراً جزيلاً.

ساد صمت، وشعر الإنكليزي أنه تصرف بطريقة عادلة، والآن عليه فقط أن يجعل بريسينتاثيون كامبوس يدفع الثمن.

اقترب بيرناردو:

. كابيتان، أعتقد أنه لم يبق لدينا هنا ما نفعله.

. وأنا أعتقد ذلك أيضاً.

. إذن، فلنعد إلى القرية؟

وقاطعهما فيرناندو الذي كان يسمعهما:

. عودا أنتما وحدكما.

. وأنت ماذا ستفعل؟ . سأله بيرناردو.

وأفصحت كلماته عن حالته غير الطبيعية:

. أنا؟ الأمر الوحيد الذي بقي لي هو أن أذهب إلى الحرب. لن أذهب إلى أية جهة أخرى. سأذهب إلى الحرب. هذا هو ما سأفعله الآن.

. إنْ كان الأمر كذلك، فسأرافقك.

. وأنا أيضاً . قال الإنكليزي.

. نذهب إلى المنزل . قال برناردو .، نجهز أنفسنا ثم نخرج بما أمكن من السرعة.

وبشيء من الغضب قال فيرناندو:

. لا! لقد قلت لا! لا أريد الذهاب إلى القرية، أنا ذاهب إلى الحرب، والآن حالاً.

كانت تسيطر عليه ثورة عصبية. نهض وامتطى حصانه.

وعاد الإنكليزي يقول له:

. لن تذهب وحدك، ولا بأية طريقة. أنا سأرافقك.

مضى فيرناندو مبتعداً، وكأنه لم يسمع شيئاً، وراح يهبط منحدر الرابية. امتطى الآخران حصانيهما، وانطلقا للحاق به.

خرجت الزنجيات من باب مسكنهن، ولاحظ فيرناندو ذلك، فصاح بهن من أعماق آلامه:

. أنتن حرائر! اذهبن.

. سيعوض عليك الله يا سيدي.

. ليحفظك الله.

. ليباركك الله.

واستمرت أصواتهن ووجوههن تحوم وراءه فوق المنحدر.

سار فيرناندو برهة قصيرة، ثم توقف.

. في أي اتجاه نذهب؟

. في الجنوب يتقدم القوطيون. بوفيس استولى على كامل السهل . قال بيرناردو .؛ لكنْ باتجاه فالنسيا هناك جمهوريون.

. فلنذهب إذن في ذلك الاتجاه.

وخيّم صمت مطبق لا يسمع فيه إلا وقع حوافر الخيل، بعد ذلك الذهول الذي أحدثه ما شاهدوه من دمار، وبعد القرار المفاجئ الذي بدَّل خططهم، وحتى حياتهم نفسها.

كانوا يتحركون متجاورين فوق ظلالهم التي ألقت بها الشمس أمامهم فوق الأرض الترابية الصفراء، ترافقهم سلسلة من التلال التي تتخللها بعض الوديان الخضر والجداول المائية الصغيرة.

. أين سنمضي الليلة؟ . سأل الكابيتان.

. في ماغدالينو . أجاب بيرناردو .، هي قرية صغيرة وسنتمكن فيها بالتأكيد من الحصول على بعض الأخبار.

كانت الساعة قد بلغت الخامسة بعد الظهر، عندما بدأت تلوح لهم من بين الأشجار بحيرة تاكاريغوا حيث تحمل الأنهار إليها خريرها، فيرتاح وينام؛ وبعد ضفافها الخضر تمتد مياهها الزرق الصافية، وفي الأفق البعيد الواسع تبرز بعض جزر خضر بأشجارها الباسقة، وأسراب لقالق تحوّم مهتدية بأشجار جوز الهند.

كان الإنكليزي مذهولاً أمام الطبيعة الخلابة: السماء الصافية التي تميل إلى

الاحمرار في اتجاه الغرب، المياه العميقة، الأشجار الكثيفة، الجو النقي.

ساروا بمحاذاة ضفة البحيرة، تغمرهم ألوان الشفق التي امتزج فيها الأزرق والأخضر والبنفسجي والأحمر الوردي. ثم بدأ الظلام يتسلل، والألوان تتلاشى في طياته، بينما صدحت أصوات العصافير، والتمعت فوق صفحة الماء الزرقاء الداكنة حراشف سمك السردين.

وسرعان ما أطبق الظلام على المكان، ليبقى فقط ضوء شحيح ينبعث من النجوم البعيدة.

كان صوت فيرناندو ما يزال يُسمع بين حين وآخر، من خلال تنهداته المتألمة:

. أختي. أختي المسكينة.

وبدأت تطل من بعيد أضواء إحدى القرى.

. ماغدالينو . قال بيرناردو .، ثم توجه إلى الآخرين قائلاً: أنتما تعرفان ولا شك، لابد من الحذر الشديد، إذا ما سأل أحدهم، علينا أن نجيبه بأنّا جئنا لشراء المواشي.

سطع القمر، وبدأت تظهر تفاصيل الأشياء، الجدران البيض، الأسيجة، عيون القطط فوق الأسطحة.

ظهر من أحد البيوت نور مميَّز. اتجهوا إليه. كانت حانة.

مجموعة من الرجال داخل الحانة كانوا يشربون ويتحادثون. انتبه أحدهم إلى وصول الغرباء الثلاثة، وساد صمت مفاجئ، ثم خرج ووقف يتأمل وجوه القادمين للحظات.

. السادة غرباء؟

. أجل. نحن عابرون، وقد هبط علينا الليل خلال طريقنا.

. لماذا لا تترجلون وترتاحون؟

ثم فاجأهم بصياحه:

. فيليبيرتوووو!! تعال واهتم بأحصنة السادة!

وخرج شاب هزيل مسرعاً، وأخذ الأحصنة الثلاثة من ألجمتها وهي تصهل بعد أن تحررت من ثقل فرسانها.

وبينما كان الرجل، الذي بدا أنه صاحب الحانة، يستقبل القادمين الثلاثة، راح ذلك الشاب يصفُق بكفه أكفال الأحصنة وهو يقودها إلى المعلف.

دخلوا، يتقدمهم صاحب الحانة. سقف منخفض وقنديل زيت يعبق منه الدخان، ومائدة طويلة دون غطاء، إلى جانبيها مقعدان طويلان، ثم خزانة للأطعمة والأواني الخزفية، وفوق منضدة الخدمة برميل صغير وأقراص جبن.

تابع من كانوا في الداخل، وهم أشخاص عابرون وعمال زراعيون، دخول هؤلاء الثلاثة، وتفحصوهم بنظرات يمتزج فيها التوجس بالغطرسة.

قدم لهم صاحب الحانة مقاعد صغيرة من الجلد غير المدبوغ، وهو يتحدث إليهم:

. إذن، حسن، بإمكان السادة أن يستريحوا هنا. هذه هي أفضل استراحة في القرية. هنا يبيت جميع الناس العابرين.

. شكراًَ جزيلاً . أجاب بيرناردو .، وسنكون شاكرين أيضاً لو أمكن أن تقدم إلينا شيئاً نأكله.

. كيف لا . قال صاحب المكان، وهو يعطي تعليماته اللازمة.

بمجرد أن جلسوا واستقروا، أخذوا يتفحصون وجوه الأشخاص الذين كانوا يحيطون بهم. ليس هناك زنوج، معظمهم من الخلاسيين، مع قلة من البيض. كان أكثرهم يتمنطق بالمدي الطويلة التي تستخدم في العمل الزراعي.

لاحظ بيرناردو أن نظراتهم عدائية، وحاول أن يكسب مودتهم، وطلب:

. قدِّموا كؤوساً للشباب على حسابي.

وسارع صاحب الحانة ليملأ كؤوس الكانيا لجميع الموجودين، فأفرغها هؤلاء الرجال بجرعة واحدة، وشكروه بصوت فاتر مُهَمهِم. مسحوا شفاههم بظهور أكفهم الغليظة، ثم بصقوا بطريقة فظة.

عاد بيرناردو إلى التحدث إليهم:

. حسن، أيها الشباب، أنا أود صداقتكم. سأقدم إليكم كؤوساً، نشربها معاً من أجل ماغدالينو، القرية التي هي غاية في اللطف.

. شكراً جزيلاً . غمغم بعضهم.

بعد أن شربوا كؤوس الكحول هذه، بدأت تختفي من وجوه معظمهم نظرات العداء، عندها حاول بيرناردو أن يفتح معهم الأحاديث. شاهد بالقرب منه "ثامبو" (١) أشيب الشعر يجلس القرفصاء مستنداً إلى أحد الجدران. قال له:

. لماذا لا تشاركنا الشراب، أيها العجوز؟ أنا متأكد من أنك لا تأكل

---

(١) . Zambo هو الشخص المزيج بين الزنوج والهنود. . المترجم .

الـ "آلبيسته" (١) لكن ليس من أنك لا تتناول الكحول.

ضحكوا جميعاً مبتهجين بهذه المداعبة.

كان فيرناندو والكابيتان دافيد يشاركان، لكن دون تدخّل في الحديث.

انتهر بعضهم هذا الـ "ثامبو"، الذي كان يبدو عليه الاكتئاب:

. ما حكايتك، أيها الـ "ثامبو" العجوز؟، وكأن أحداً قد كال لك الضربات!!

. تعال وشارك الجميع، وكفاك همهمات.

وسط هذا الصخب، كان صاحب الحانة يقدم الطعام للأصدقاء الثلاثة: لحم مقلي وموز مقلي وإبريق من الـ"غوارابو".

خلال تناول الطعام، طلب بيرناردو "آغوارديينته"(٢) لجميع الرجال.

كانت ملامح العداء قد اختفت نهائياً، وأصبحوا يتسابقون إلى تقبل هذه الضيافة.

وصاح الـ "ثامبو" وهو ما زال في ركنه:

. حفنة من الجياع، الذين يموتون جوعاً. إنكم لا تستحقون أن تعامَلوا إلا مثل الكلاب!

أجاب الآخرون عليه بالضحك والسخرية.

تجرأ الـ "ثامبو" على التوجه بالحديث إلى بيرناردو، وبطريقة متبجحة:

. حسن، أيها السيد. وحضرتك ما الذي جئت تفعله هنا؟

---

(١) . Alpiste نوع من الأعشاب البرية. . المترجم .

(٢) . Aguardiente مشروب كحولي يشبه العرق. . المترجم .

صمت الجميع لدى سماعهم هذا السؤال؛ لقد تذكروا أنهم يجلسون مع غرباء، وصلوا للتو. فكّر بيرناردو بالرد عليه بطريقة متعالية، لكنه رأى أن فرصة كسبهم من جديد ستكون عن طريق اللطف والتودد.

. لا شك في أني سأوضح ذلك، وبكل سرور. نحن من أصحاب الأملاك، ومررنا من هنا في طريقنا لشراء مواشٍ.

وقف الـ "ثامبو" منتفضاً ووجهه يفصح عن تعبير ساذج بالانتصار.

. لشراء مواشٍ إذن! وفي ماغدالينو! ما أغرب أن لا يعرف صاحب الأملاك أن شراء المواشي إنما يتم في السهول. يبدو أن حضرتك جديد في هذا المجال!

أخذ الرجال يتضاحكون بمكر، وأحس بيرناردو بالحرج، وبأنه لم يحسن التصرف، وأن الموقف لم يعد مريحاً.

وتدخل فيرناندو لإنقاذه:

. أجل يا سيدي، لقد جئنا لشراء المواشي في هذه المناطق، ليس بالضبط من ماغدالينو، لكن، نعم، من هذه المناطق. أنا أعرف بلا شك أن أفضل مكان لشراء المواشي هو في السهول، لكن كيف لا تعرف حضرتك أن هناك حرباً في السهول!

وشعر الـ"ثامبو" بالارتباك فصمت. وتحدث صاحب الحانة مدافعاً عن زبونه:

. السيد على حق. من الذي يمكنه الآن الذهاب إلى السهل، وأكثر من ذلك أن يشتري المواشي من هناك؟! سيسرقون منه كل شيء!

. هذا صحيح. ما يحصل الآن، الآن، هو أن الأمور ليست جيدة. فالرصاص يتطاير هناك من كل جانب . علق أحدهم.

لقد استولى الجنرال بوفيس على كامل السهل . أضاف آخر .؛ ليس من مكان في السهل يمر فيه رجال ذلك الشيطان إلا ويقتلون فيه الناس ويحرقون مزارعهم وقراهم. إنهم يسرقون كل شيء!

أجاب آخر بصوت مرتفع وفظ:

. ليس الأمر كذلك! ليس الجنرال بوفيس هو من يقوم بالسرقات... إن من يقوم بالسرقات هم الجمهوريون، الذين يفرون منه مذعورين.

وانتهز فيرناندو فرصة هذا الجدال والصخب ليتدخل.

وسأل، متجاهلاً:

. لكن هل صحيح أنهم ألحقوا به مؤخراً هزيمة كبيرة؟

فرد عليه الرجل نفسه:

. لا تصدق ذلك. هذه أكاذيب. ليس هناك من يستطيع أن يهزم الجنرال بوفيس. لقد استولى هذا الرجل على سان أنطونيو بينديتو.

. إذن، إنْ لم يكن صحيحاً أنه هُزم، ففي أي اتجاه يتقدم؟

وقبل أن يبادر الرجل إلى الإجابة، بدت على وجهه ملامح شك وامتعاض خشية أن يتجاوز في حديثه ما يتطلبه الحذر. لكن غلبته كبرياؤه فأجاب:

. انظر، ليست هناك أية هزيمة. الجنرال بوفيس يتقدم الآن، مع أكثر من ثلاثة آلاف محارب مجهزين بصورة جيدة، من مدخل السهل بين سان سيباستيان وسان خوان دي لوس مورّوس.

بدا لفيرناندو أن محدثه لابد وأنه يعرف المزيد من المعلومات، وفكر في أن يختبر ذلك؛ لكن جاء في تلك اللحظة من باب الحانة صوت أجش ومتسلط:

. مساء الخير. عَمَّ تتحدثون؟

كان هندياً طويل القامة، قوي البنية، ذا وجه قاسٍ وعينين نفاذتين. وبمجرد حضوره صمت الجميع، وأولهم ذلك الذي كان يتحدث حول بوفيس.

. ما الذي جرى لكم؟ لماذا لا تتابعون حديثكم؟

لم يرفع من نبرة صوته، لكن، ومع ذلك، كان الصوت غاضباً ومتوعداً. تقدم بضع خطوات حتى وصل إلى وسط المكان.

استطاع القادمون الثلاثة حينئذ أن يروه بصورة أفضل. كان واضحاً من الوهلة الأولى أنه ليس عابراً، وليس عبداً، بل هو رجل حر، وأكثر من ذلك، هو رجل تحيط به هالة من السطوة والمقدرة.

لاحظ وجود الأشخاص الثلاثة الجالسين فرفع قبعته المصنوعة من لب النخيل وحياهم بوقار:

. السادة غرباء؟

. أجل . أجاب فيرناندو.

. مشترو أغنام؟ . أضاف، مبتسماً بخبث.

. أيضاً.

ثم، وعندما لاحظ أن الإنكليزي ينظر إليه بتركيز، قال مشيراً إليه:

. والسيد، ليس من هنا!.

خلال حديثه مع الأصدقاء الثلاثة، كان الآخرون جميعاً قد انسحبوا متسللين بصمت، ولم يبق في المكان غير هؤلاء الأربعة.

. أنا، أيها السادة، وقبل أن تسألوني، سأقول لكم ما تودون معرفته عني:

أنا وكيل في إحدى مزارع المنطقة، ومررت من هنا بحثاً عن بعض العبيد الذين ذهبوا من عندي.

. إن كان الأمر كذلك . قال فيرناندو ساخراً .، فلن تعثر عليهم بسهولة.

. من يدري! ربما أعثر عليهم بكل بساطة.

بقي الرجل واقفاً بقامته المديدة المنتصبة.

. الناس هنا غريبو الأطوار، إما أن لا يتحدثوا على الإطلاق، أو هم يتحدثون كثيراً إلى درجة إضجارك. أليس كذلك؟

. لا أظن ذلك . أجاب بيرناردو.

. وفضلاً عن ذلك فهم قلقون جداً بسبب الحرب، وكما لو أن العبيد يمكن أن يخسروا في الحرب. لا يتحدثون حول أي أمر آخر، وكما لو أن جميع الناس سيموتون في الحرب.

. ومع ذلك، فقد مات عدد غير قليل . علَّق الإنكليزي.

صمت الهندي قليلاً، ثم قال بفتور:

. فقط أولئك الذين يجب أن يموتوا. هل تريدون أن تعرفوا شيئاً؟ في الحرب لا يموت سوى الذين يخافون!

وأكد على كلماته بابتسامة مقتضبة، وتمنى لهم ليلة سعيدة، وغادر ليغيب في ظلمة الطريق.

استمر الأصدقاء الثلاثة صامتين لبرهة قصيرة، قبل أن يعلق بيرناردو:

. هذا الرجل وكيل بقدر ما أنا راهب. من يعرف أين نحن وبين أيدي من؟

دخل إليهم صاحب الحانة بطريقة احتفالية وبيده قنديل ليسألهم إن كانوا يودون أن يرتاحوا في الغرفة التي أعدها لهم.

وافقوا في الحال بسبب ما كانوا عليه من تعب. عبروا ممراً مشجراً كانت تنام فيه بعض الدجاجات، وتقدمهم مع قنديله بضوئه الأصفر الشاحب.

وصلوا إلى الغرفة: طويلة ومتسعة ذات جدران مطلية بالكلس، مزودة بسريرين نقالين وأرجوحة مثبتة ما بين جدارين.

أشعل المضيف مصباحاً فأنار المكان.

. أتمنى لكم ليلة سعيدة. أنا أنام قريباً جداً منكم. إذا احتجتم لأي شيء ليس عليكم إلا أن تنادوني.

وخرج.

لم يكن لدى الأصدقاء الثلاثة ثياب أخرى غير التي يرتدونها. خلعوا أحذيتهم. ثم أطفؤوا المصباح وارتموا بثيابهم فوق الأسرّة.

كان الصمت مخيماً، ومن بعيد كان يأتي أحياناً صوت نباح كلب حزين، أوغناء دجاجة هندية برتابته وفأله غير الطيب.

وسرعان ما غرقوا في أحلامهم. ولم تعد تُسمع داخل غرفتهم غير أصوات أنفاسهم المنتظمة.

كانت الأنفاس المنتظمة للآخرين هي ما سمعه الانكليزي عندما استيقظ بصورة مفاجئة. لكن لا، هناك شيء آخر سمعه أيضاً عبْر الممر الذي كان يستحم بضوء القمر وظلال الأشجار؛ كانت حوافر حصان، حوافر عدة أحصنة، وأصوات عديدة تتهامس. خطر له أن ينهض وينبه الآخرين ويخرج كي يرى ما الذي يحصل؛ إلا أنه فضَّل التريث قليلاً وأن لا يتسرع في التصرف، فلربما كانوا عابرين آخرين فضّلوا التحرك في تلك الساعات المبكّرة. ابتعدت الأصوات وعاد كل شيء ليغرق في الصمت.

تذكر الهندي الذي تحدث معهم في المساء، وأقلقه هذا التذكر.

لكنه عاد إلى الاسترخاء والنوم.

عندما استيقظوا، كانت الشمس قد أشرقت وتسللت من الباب، لتضيء الجدران البيض الكلسية. انتعلوا أحذيتهم وخرجوا إلى الممر.

كان كل شيء ما زال ساكناً.

تمشوا في جميع أرجاء المكان دون أن يلتقوا أحداً، وفجأة دوت صرخة فيرناندو الذي كان متقدماً قليلاً:

ـ تعالوا! تعالوا بسرعة!

كان صاحب الحانة مستلقياً على الأرض وهو مشدود الوثاق.

سأله الإنكليزي:

ـ ما الذي حدث لك؟ من الذي شدّ وثاقك؟

رد الرجل، غاضباً:

ـ هؤلاء اللصوص، لقد سرقوني، وحشدوا معهم جميع الناس.

سأله فيرناندو وقد رآه غير مكمم الفم، ولا تبدو عليه أية آثار عنف:

ـ ولماذا لم تصرخ؟ نحن هنا وكان بإمكاننا أن ندافع عنك.

صمت الرجل قليلاً، قبل أن يجيب:

ـ أجل، هذا صحيح. أنا لم أفعل ذلك. اعتقدت بأنهم قد اعتدوا عليكم أيضاً.

كان الكذب واضحاً على وجهه، ولم يصدقه أحد. لاحظ بيرناردو، الذي كان يتفحصه بنظراته، أن الحبال التي رُبط بها لم تكن مشدودة جيداً، حتى أنها كانت موضوعة بطريقة لا تزعجه.

ـ حسن، ولماذا تستلقي على الأرض، لماذا لا تقف؟

ـ نعم؟ ألا ترى أني مشدود الوثاق؟

. ما هذا الذي تقوله! تحرّكْ قليلاً لترى كيف سيسقط هذا الحبل.

وحين لم يتحرك، تقدم منه وشد الحبل بحركة واحدة حررته منه. وقال له:

. أرأيت! هذا ما كنت تستطيع أن تفعله بنفسك!

وصمت صاحب الحانة مجدداً وهو يرى أنهم لم يصدقوه، لكنه سرعان ما قال وهو يتظاهر بالبراءة:

. صحيح، يا رجل! يبدو حتى أني جبان. كيف لم يخطر هذا في ذهني.

نهض، ونفض ثيابه بيديه، وخرج معهم إلى الممر.

. أعتقد أنه لم يبق هنا أحد. لقد أخذ هؤلاء اللصوص كل شيء.

. أي لصوص؟

. أُفّ! من سيكونون؟ الثوار.

. الجمهوريون هم الذين سرقوك؟ متى؟

. لكنْ، ألا ترى بنفسك؟ ألم تفك وثاقي بيدك؟ . صاح الرجل.

. وكيف عرفتهم؟

. نعم. إنهم معروفون. هذا الهندي الذي كان معكم الليلة الماضية هو الرئيس.

. رئيس ماذا؟

. رئيسهم.

. ولماذا لم تقل لنا ذلك؟

. لأني لم أعرف أنهم سيرتكبون هذه الفعله الشنيعة. هذا لا يعرفه سوى الله!

تجولوا وتفحصوا كل شيء. لم يكن هناك أي أثر لعنف. لكن ريبتهم أخذت

تتزايد. أصبحت لديهم القناعة بأن صاحب الحانة قد خدعهم وأنه شريك لأولئك الرجال الذين ذهبوا.

كان الإصطبل خاوياً، والأحصنة قد اختفت.

أخذ صاحب الحانة يشد شعره ويصرخ بأعلى صوته:

. يا إلهي! لقد سرقوا بغلتي التي تساوي لا أقل من ثلاثمائة بيسو. أية جريمة هذه!

لم تعد مشاعر ذلك الرجل تثير اهتمامهم، سواء أكانت صادقة أم زائفة. كانت المشكلة بالنسبة إليهم هي أنهم سيتابعون سيراً على الأقدام، ودون أية وسيلة انتقال، تائهين، وتحت رحمة ذلك المشبوه.

لم يتمالك بيرناردو نفسه، فقال منفعلاً:

. إنه فعلاً أمر غريب. لم يشد أحد وثاقنا، وسُرق منا كل شيء. أما صاحب الحانة الذي شدوا وثاقه على هذه الصورة التي شاهدناها، فلم يمسوا له أي غرض، ويجب ألاّ يظن أنّا قد صدقنا حكاية سرقة البغلة.

لم يجرؤ الرجل على الرد. صمت مغتاظاً، لكن الغدر كان يلتمع في عينيه.

بعد انتهاء جولتهم عادوا ليجلسوا في المكان الذي تناولوا فيه طعامهم الليلة الفائتة.

. أنا آسف لما جرى، . قال صاحب الحانة . أمّا ما يتعلق بي، فأشكر الله أنهم لم يسرقوا مني سوى بغلتي. لكنْ، هذا يجعلنا نتأكد من معرفتنا بهؤلاء المتمردين. إنهم مجرد مجموعة من اللصوص، أينما حلوا يرتكبون الشيء نفسه.

تركه الثلاثة يتحدث دون إعارته أي اهتمام.

أخيراً، قال بيرناردو، وقد هدأ قليلاً:

. إذن! لقد سُرقت حيواناتنا، فماذا يمكننا أن نفعل؟ بم تنصحنا؟

. أوف! هذا يتوقف على أمور كثيرة. مثلاً، ما الذي تريدون عمله؟

. سبق وأن قلنا لك إنّا جئنا لنشتري ماشية.

. صحيح! صحيح! حتى أني قد نسيت ذلك. جيد، إذن، ألا تستطيعون الذهاب مشياً على الأقدام من أجل شراء الماشية؟

. لا، نحتاج إلى حيوانات للركوب.

. لا شك. ومن أجل الحصول على حيوانات أنتم بحاجة إلى المال.

. لدينا المال.

. إذن، في هذه الحالة، أصبحت الحكاية مختلفة. إذا ذهبتم بمحاذاة البحيرة باتجاه "يوما"، يمكن لكم أن تلتقوا هناك صديقي "نيكانور" الذي ربما يقبل بأن يبيعكم بعض الحيوانات، ولديه منها أنواع جيدة. قولوا له إني أنا الذي أرسلتكم إليه.

فكر الأصدقاء الثلاثة قليلاً، لم يكن أمامهم من حل سوى أن يفعلوا ما اقترحه عليهم. وبالنتيجة كانوا يودون المغادرة دون المزيد من ضياع الوقت.

ودّعوا صاحب الحانة الذي رافقهم إلى البوابة.

. كم يترتب علينا لقاء هذه الاستضافة؟

. لا شيء أبداً سيدي، كيف تريدني أن أتقاضى شيئاً من أناس تعرّضوا للسرقة في منزلي؟

. لا، لا، دعك من هذا! كم يترتب علينا؟

. قلت لك إنه لا يترتب أي شيء إطلاقاً.

وعلى أية حال، أخرج فيرناندو بعض قطع النقود ووضعها في يده.

. شكراً جزيلاً. شكراً جزيلاً، سيدي.

بدا الطريق الترابي الأصفر أكثر اصفراراً وسط الأشجار الخضر، وتحت أشعة الشمس الصافية. انطلقوا في مشيتهم مسرعين، ولوّح لهم صاحب الحانة بيده مودعاً. وقبل أن يبتعد الثلاثة كثيراً توقفوا لوداعه مرة أخيرة.

. وداعاً، وشكراً جزيلاً . صاح الثلاثة بطريقة ساخرة.

ورد عليهم الرجل بطريقة ليست أقل سخرية:

. لا شكر على واجب! أرجو لكم من الله رحلة طيبة! . ثم أكمل بصوت مرتفع:

. وسأخدُمكم بأمر آخر، القوطيون يتقدمون باتجاه سان خوان دي لوس مورّوس والثوار باتجاه المدينة. ها إنكم أصبحتم تعرفون ذلك!.

- ٩ -

عبر تلال منخفضة، وبمحاذاة خلجان صغيرة خضر، كانت قوة عسكرية تتقدم تحت راية حمراء.

في الوسط كان الكولونيل "ثامبرانو"، بشاربيه الكبيرين الأسودين وسترته الحمراء، فوق حصانه، يجاوره فوق حصان آخر بريسينتاثيون كامبوس:

. وهكذا، سيدي الكولونيل، كانت لدي قطع أراض صغيرة بالقرب من "لا فيكتوريا" أعمل فيها، لكن المتمردين وصلوا إليها وأحرقوها، واستطعت أنا النجاة بمعجزة إلهية. إنهم أناس سيّئون جداً، ولهذا قررت أن أخرج مع هؤلاء الشباب إلى الحرب.

صدَّقه الكولونيل الإسباني، أو أنه ربما تظاهر بذلك، وأعرب عن سعادته بهذا القرار، وبمجيئه بالرجال والمؤن، وأبقى له قيادة مجموعته الصغيرة، وهذا ما أيّده فيه عدد من معاونيه المتمرسين.

كانت طبيعته البسيطة، وفعاليته، وردود أفعاله السريعة والواضحة، صفات مكَّنته من اكتساب إعجاب ومحبة الجنود.

أوضح له الكولونيل أفكاره حول الموقف:

. الموقف جيد بالنسبة لرجل جريء، إذ يمكنه حالياً أن يخرج من عنق الزجاجة، وإن لم تصدق ذلك فما عليك إلا أن تنظر إلى ما هوعليه مونتي فيردي، أو بوليفار، أو بوفيس.

واستثيرت مشاعر الكبرياء والطموح لدى كامبوس؛ كان رجلاً جريئاً، قادراً على إنجاز أمور كبيرة؛ ويمكنه هو أيضاً أن يصل إلى ماوصل إليه مونتي فيردي، أو

بوليفار، أو بوفيس.

. لقد وصلت الحرب إلى مرحلة حرجة. خلال الأيام الأخيرة قام المتمردون بذبح أكثر من ألف من الإسبان والقادمين من جزر الكناري [١]. لكن، من ناحية أخرى، جعلناهم يدفعون الثمن، فقد تحولت قرى عديدة إلى مجرد أكوام من الحجارة. روسيته [٢] دمّر الـ "توي"، وبوفيس يمسك بالسهل الذي يملؤه الخوف، ولن يكون بإمكان المتمردين الصمود لفترة طويلة، وعلى أبعد تقدير، سنكون خلال شهرين قد قضينا عليهم جميعاً.

. لا شك في ذلك . أكد كامبوس.

كانت القوات التي يتوسطها هذان الاثنان تتألف من مجموعات متنوعة الأزياء والألوان. في المقدمة رجال بالزي الموحد للقوات الإسبانية، يتبعهم آخرون لا يرتدون من هذا الزي غير السترة أو القبعة أو السراويل، وبعض آخر دون أية ملابس عسكرية، أو عراة الصدور، ومعظمهم حفاة، أما الأسلحة فكانت متنوعة: بنادق، مدي، حراب، والجميع يتبادلون الأحاديث بصوت مرتفع. بعض الجرحى منهم كانت جراحهم غير مضمدة، وآخرون كان ضمادهم خرقاً قذرة مدماة.

معظم تلك المنطقة كان بيد الجمهوريين، لذا كانوا يتقدمون بحذر، يسبقهم مخبرون لنقل أحوال السكان والقرى والفصائل المسلحة التي كانت تجوب المنطقة، وكذلك للاستدلال على أكثر الطرق أمناً وسلامة لبلوغ وديان الـ "توي".

---

(١) . في إشارة إلى نداء "الحرب حتى الموت".

(٢) . Francisco Rosete تاجر من جزر الكناري، عيّنه "مونتيفيردي" مسؤولاً عن إحدى مناطق "آراغوا"، ثم انخرط في قوات "بوفيس". اشتُهر بقسوته وطبعه الدموي. توفي خلال إحدى المعارك عام ١٨١٦.

كانوا يتجهون إلى الجنوب من "آراغوا"، المكان الأكثر أماناً بالنسبة للملكيين، بسبب مجاورته للسهل، ويبتعدون عن المسالك المطروقة إلى الطرقات الفرعية، ويتوقفون للاستراحة في الأماكن غير المأهولة.

في تلك العشية جاء أحد أولئك المخبرين كي يبلغ ثامبرانو أنهم قد أصبحوا قريبين من قرية صغيرة لا يبدو أنها تحظى بأية حماية. وقرر الكولونيل احتلال هذه القرية لقضاء الليلة فيها وإعادة التزود بالمؤن.

ولأنهم كانوا مطمئنين إلى أن أحداً لن يهاجمهم في القرية، فقد قرروا الدخول إليها بنفس الحالة التي كانوا يتقدمون فيها، دون أية تدابير قتالية.

كانت قرية صغيرة جداً تقوم على سفح إحدى الروابي ذات الأرض الحمراء، فيها بيوت قليلة من اللَّبِن الأصفر، وبعضها يبدو أكثر متانة، وتُسوّره أسيجة من القرميد، وفي وسطها أرض جرداء تشكل ساحةً للقرية.

دخل الجنود عبر الطريق الوحيد في القرية. لكن، سرعان ماأمطرتهم طلقات البنادق من جميع نوافذ البيوت.

أصيب بعضهم، وتراجع آخرون مذعورين من هول المفاجأة.

شاهد بريسينتاثيون كامبوس رجاله كيف يفرون، وهم الذين لم يتعودوا أصوات إطلاق الرصاص.

والكولونيل ثامبرانو ثارت ثائرته فامتشق سيفه وراح يضرب ظهور الخائفين.

. تقدموا يا جبناء!

وحذا كامبوس حذوه، وراح يردعهم عن التراجع....

. ناتيفيداد! ثيريلو! أوقفا هؤلاء الرجال، ادفعا بهم إلى الأمام.

ومع استمرار غزارة الطلقات استمر تساقط المزيد والمزيد منهم وهم يتضرعون

ويتوسلون، وبعض المصابين كان يداس بأقدام الآخرين المرتبكين وبحوافر الخيول الهائجة.

تخوّف الكولونيل ثامبرانو من أنه لو استمر إطلاق الرصاص فسيهلك الجميع في تلك المصيدة الرهيبة.

أعطى الأوامر بالهجوم على البيوت.

. اتركوا البنادق، واهجموا بالمدي والحراب.

وانطلق الجنود يتسلقون الجدران والأسطحة ويخترقون البيوت ويمزقون كل ما يواجههم من أغراض وبشر، وتعالت الأصوات تستثير فيهم المزيد من الشراسة وعدم الشفقة. وجهوا طعناتهم إلى الأثاث، إلى الجدران، إلى الجرحى. وظهر المدافعون فجأة بعد أن حوصروا من قبل عشرة أو اثني عشر فرداً من هؤلاء المتوحشين، وكانت مذبحة لم يسلم فيها أحد من الطعنات.

ثم استمر بريسينتاثيون كامبوس في استثارة رجاله لمتابعة الهجوم وإشعال الحرائق، التي بدأت تندلع في أكثر من مكان.

كانت إحدى النوافذ الصغيرة لواحد من البيوت المحيطة بالساحة ما تزال مصدراً لطلقات متقطعة تقع مع كل منها إصابة جديدة.

بعد أن شاهد كامبوس هذه الإصابات المتتابعة، والتي وصلت إحداها إلى حصانه، امتطى حصان أحد مساعديه، أخذ اللجام بيسراه، والحربة بيمناه، ووخز الحصان لينطلق به بقفزات هائجة، يدفعه تحرّقه إلى التدمير. ومر أزيز رصاصة قريباً من وجهه مع وصوله إلى بوابة البيت، فأخذ يدور بالحصان في مختلف الاتجاهات تفادياً لأية إصابة، وهو يصرخ متوعداً:

. انتظر لأريك! سأعلمك الآن لماذا ولدتك أمك!

وعاد لوخز الحصان وقد أزمع أن يقتحم به البوابة، لكن الحصان حرن لحظة

وصوله إليها، فراح يطعنه بوخزات أشد قسوة أثارت جنونه، فاندفع بكل قوته إلى البوابة المغلقة، لتنخلع بالكامل مع اهتزاز كل أرجاء المبنى.

ذُهل أمام ما حصل، وقد وجد نفسه في الدهليز فوق الحصان الذي سقط على الأرض.

وسرعان ما استعاد سيطرته على نفسه، كما انتصب الحصان واقفاً، بينما أحس بأن شيئاً يبلل وجهه، مرَّر يده فوق مكان البلل فوجدها مغمسة بالدم.

أمسك من جديد باللجام وبالحربة، وشاهد في الداخل رجلاً يجري بصعوبة مبتعداً محاولاً الهرب بارتقاء جدار صغير يفضي إلى خارج البيت.

وخز حصانه ليلحق به قبل أن يسمح له الوقت بالفرار. نظر الرجل الهارب بعينين مذعورتين، وهو يرى هذا القادم المهاجم بوجهه المدمّى وعينيه الملتهبتين، يتصبب منه العرق ويعفره التراب. كان شكله مرعباً إلى درجة أن ذلك الهارب أطلق صرخة يائسة متوسلة. وبحركة سريعة عاجله كامبوس بطعنة قاتلة استقرت في أعماق خاصرته.

شاهده كيف سقط أمامه، قبل أن يعاجله هو دوار فوق حصانه بسبب إصابته البليغة في جبينه.

ساعدته امرأة، امرأة سمراء، راحت تمسح له جرحه النازف بقطعة من القماش وهي تقول له بمرارة:

. ما هذه الفظاعة، إنهم يُقتَلون كالحيوانات!

أخذته المرأة من يده وذهبت به إلى الداخل، ومددته فوق سرير إلى جوار أسرّة أخرى كثيرة ينام فوقها رجال آخرون، ثم تابعت تنظيف جرحه بقماشة نظيفة مبللة بالماء البارد.

ومن الخارج كانت تصل صرخات القتال وأصوات الطلقات، فيتردد صداها بين

جدران هذا البيت الفسيح.

استمرت المذبحة حتى لم يتبقَّ من المدافعين غير الجثث، وعندئذ بدأت عمليات السلب.

مشى الجنود فوق الأموات، وهم يتعثرون بأجسادهم، لينهبوا كل ما يعثرون عليه في طريقهم. حتى أنهم كانوا يعرّون القتلى ليسرقوا ثيابهم، مخلفين وراءهم أكواماً من الأجساد الزرق الضاربة إلى السواد.

مع انحسار آخر أضواء النهار كان بعض الجنود قد عثروا على مشروبات كحولية وراحوا يشربون ويثملون محتفلين بالانتصار.

وصل الكولونيل ثامبرانو إلى البيت باحثاً عن كامبوس بعد أن أعلمه أحد الجنود بما جرى. دخل إلى المكان الواسع وهو ينادي صائحاً:

. كامبوس! كامبوس! أين أنت؟

كان قد رأى الحصان في البهو مع آثار الإصابة البليغة، حين خرجت من أحد الأبواب تلك المرأة التي ساعدت الجريح.

. من حضرتكِ؟

. يدعونني "لاكارباخالا".

. ماذا تفعلين هنا؟

. أنا؟!، أعتني ببعض الجرحى.

تفحصها الكولونيل جيداً واطمأن إليها. كانت ذات مظهر ريفي، ممتلئة الجسم قليلاً، لها إطلالة تشع بالأمومة، وترتدي ثياباً فضفاضة عليها رسوم أزهار جميلة.

. ألم تري حضرتك ذلك الرجل الذي كان يمتطي هذا الحصان؟

وقبل أن تجيب، وبغريزة الدفاع عن النفس، أرادت المرأة أن تتحقق أولاً من نوايا هذا الرجل.

. عن أي رجل تتحدث حضرتك؟

. عن الذي جاء مع هذا الحصان!

. لكنْ، من هو هذا الرجل؟ أريد أن أعرف.

. آه! تريدين أن تعرفي!. إذن، هو ضابط لديّ.

. ضابط لديك؟

. نعم، ضابط لديّ. أنا رئيس هؤلاء الناس الذين وصلوا إلى هنا.

. فإذن، أجل، إنه هنا. لكنه جريح.

أراد الكولونيل أن يدخل في الحال إلى الغرف، إلا أن المرأة أوقفته بحركة من يدها.

. لا، قبل أن تدخل، عليك أن تستمع إلى ما سأقوله لك.

تركها تفعل ذلك.

. هات، تحدثي.

ترددت في البداية، خشية أن يؤدي ما ستقوله إلى تأثير يتناقض مع ما تريده. ثم....

. إذن، إليك ما أود قوله! هذا مستشفى.

. نعم؟ مستشفى لمن؟

. مستشفى للثوار. إلا أنهم مجرد قلة من الرجال المصابين بجروح بليغة والمرضى، وليس بإمكانهم حتى الدفاع عن أنفسهم. وحياتك، لا تفعل معهم شيئاً! مرت

من هنا إحدى القوات وتركتهم، تركتهم مع نحو خمسة عشر رجلاً للاهتمام بأمرهم، ومع هؤلاء الناس كنتم تتقاتلون.

. أليس بينهم من لا يزال يختبئ هنا؟

. كلا يا سيدي. ليس بين هؤلاء المساكين من هو قادر على الحركة. الوحيد الذي استطاع هنا أن يمسك ببندقيته كان واحداً مصاباً بإحدى ساقيه.

. أين هو؟

أشارت المرأة إلى أحد الجدران الداخلية حيث كان الرجل الذي قتله كامبوس. اقترب الكولونيل منه. كان مرتمياً على الأرض، أخضر اللون، مع تعبير ذعر واضح على وجهه الميت، وقد انغرس النصل عميقاً في جسده. داس بإحدى قدميه مستنداً على جسد الرجل، وبحركة قوية انتزع منه الحربة. كانت مغمسة بدم كثيف متجمد وأسود وقِطع صغيرة من نخاعه. مسحها بالأرض الترابية العشبية وأبقاها معه.

كانت المرأة تراقبه بصمت، دون خوف.

. والآن خذيني لأرى الجريح!

قادته إلى الصالة التي تصطف فيها الأسرّة. كانوا نحو عشرة رجال في حالة شبه غياب عن الوعي، حتى أنهم لم يشعروا بدخوله، وفوق السرير الأخير، إلى جوار الحائط، كان كامبوس نائماً.

وصل إلى جانبه، وأخذ يهزه كي يصحو.

. هيا، صديقي! انهض! لقد أحضرت لك الملعقة التي تركتها في البهو! ووضع الحربة إلى جوار السرير. وتدخلت المرأة:

. لا يا سيدي، دعه يرتاح قليلاً.

راقبه الكولونيل، كان جبينه مضمداً، وثيابه ملطخة بالدم والتراب، ويبدو عليه

أنه يغفو بعمق. كان يتنفس تنفساً ثقيلاً من فمه المفتوح.

. صحيح، أجل! أنتِ على حق، يجب أن ندعه يستريح. لقد تصرف اليوم كبطل!

وجلس على طرف السرير صامتاً.

بدأت أولى ظلال المغيب تتسلل إلى المكان. كان صخب الرجال السكارى يصل من الخارج ويعكر هذا الهدوء في الداخل. وعلا صوت غناء رتيب يشبه ذلك الذي يطلقه الرعاة، لكنه كان صوتاً قبيحاً.

استمع الكولونيل قليلاً وهو صامت، ثم تململ قائلاً:

. هذا يكفي. يجب إيقافهم.

عندما خرج كان المساء قد حل، ومن خلال الظلمة راح يراقب ذلك الحشد الكبير.

نادى أحد الرجال كي يقترب منه.

. ابعث لي بالبواق!

لم يعرف الرجل من هو هذا الذي ناداه. وردّ باستخفاف:

. نعم؟! ولماذا لديك إذن هذا الفم الكبير؟

ودون تردد، استل الكولونيل حربته وغرز رأسها في ظهره فسقط على الأرض يئن من شدة ألمه.

ومر بالقرب منه رجل آخر:

. أنا الكولونيل. نادِ لي البواق.

وانطلق الجندي مسرعاً لتنفيذ الأمر. ومضى بعض الوقت الذي كان يملؤه

صراخ هؤلاء الرجال، والكولونيل يقف ممسكاً بحربته المنتزعة من غمدها. نهض الرجل الذي عوقب، وسار بمحاذاة الجدران وهو يخور.

عاد الجندي بعد قليل مصطحباً زنجياً ضخم الجسم وهو يمسك به من ذراعه. كان شبه عار، في حالة سكر شديد، يربط بوقاً إلى خصره.

قدم الجندي التحية وانصرف، تاركاً الزنجي يتأرجح أمام الكولونيل.

. اعزف إشارة الصمت.

. نعم سيدي . أجاب البواق.

إلا أن ترنحه لم يسمح له باستخدام الآلة.

. هيا، نَفِّذ.

أثار لديه تأكيد الأمر مزيداً من الاضطراب والارتباك والترنح.

. هيّا! ألا تسمع ما أقوله لك؟!

أخيراً استطاع الإمساك بالبوق.

. ما الذي تريدني أن أعزفه؟ . سأل بلسان أعياه السكر.

. اخرس! لقد قلت لك ذلك!

رفع البوق إلى فمه وحاول أن يبدأ بالنفخ، إلا أن حالته لم تسمح له بأن يقوم بما طُلب منه. وبالكاد أصدر صوتاً مختنقاً قصيراً وغير مألوف.

أثار ذلك الصوت غير المعتاد انتباه الجنود، فتجمعوا لمشاهدة ما يجري.

وأمام المشهد المثير للسخرية أخذ غضب الكولونيل يتصاعد، والزنجي التعِس يزداد ترنحاً وارتجافاً ورعباً. كانت عيناه لا تريان غير تلك الحربة الملتمعة.

. قلت لك اعزف إشارة الصمت!

كان صوته مدوياً وحازماً.

لكن الرعب والسكر جعلا من أية محاولة جديدة أمراً مستحيلاً، لم يكن الفم الغليظ لذلك الزنجي قادراً على أن يخرج عبر تلك الآلة النحاسية غير الزعيق المتقطع. تركه ثامبرانو، ومشى وهو يشتم ويلعن.

وعادت الأصوات لتنطلق في الساحة من جديد وهي تردد نفس الأغنيات الرتيبة.

بدأ بريسينتاثيون كامبوس يفتح عينيه شيئاً فشيئاً. شعر وكأنه معلق في الهواء، لكن الظلام الذي بدأ يغمر الغرفة كان يزيد من رغبته بالاسترخاء.

أخذ يتبين ما يحيط به، انتبه إلى وجود أسرّة أخرى تجاوره، وإلى ظل شخص كان يجلس عند قدميه. كان يحاول بذل كل جهوده لتذكّر ما جرى.

مرر يده على جبينه المعصوب، لا شك أنه جريح. وتذكّر: البوابة، الحصان، الرجل الذي كان يتسلق الجدار.... ثم.. هذا الظل الذي يجلس على طرف السرير:

. من حضرتك؟

. أنا يدعونني "لاكارياخالا" سيدي.

آه! إنها سيدة، لم يتذكر أنه قد شاهدها من قبل.

. ماذا تفعلين هنا؟

. أعتني بك.

كانت امرأة طيبة. إنها تقوم بالعناية به.

. شكراً جزيلاً. هل جرحي بليغ؟

. لا يا سيدي، ليس ثمة شيء من هذا. فقط هناك أثر لضربة.

أسعده أنّ إصابته طفيفة. وأنه ما زال قادراً على متابعة حياته الصارمة.

. حسن، وهل سيطروا على القرية؟

. نعم سيدي، قبل قليل ذهب قائدكم الكولونيل للاطلاع عليها.

لم يكن له هو أي كولونيل. كان يتقدم مع ذلك الآخر، لكنه هو الذي كان يصدر الأوامر إلى جماعته. ليس له قائد.

. أنا بريسينتاثيون كامبوس.

قال ذلك باعتزاز، ثم صمت، أغمض عينيه وكأنما قد غلبه النوم. كان يشعر بالسعادة لرعاية هذه المرأة له. تمنى لو أنه يستطيع أن يقدم إليها، بطريقة ما، مقابلاً لائقاً، أن يهديها أونصة من الذهب، أو ثوباً من النوع الفاخر. وخطر في ذهنه: ربما كان ذلك الرجل الذي قتله بوجودها أخاها أو زوجها.

. ألست مستاءة مني؟

. على الإطلاق، سيدي.

. ألم يُصَبْ أحد ممن لهم صلة بك في قتال هذا اليوم؟

. إطلاقاً. أنا ليس لي أحد هنا.

طمأنه هذا الجواب. أحس بأنه أكثر أماناً وحماية، وأنهما متفقان على أمر لا يعرف ماهو. كانت "لاكارباخالا" تشعر أن الجريح بحاجة إلى مزيد من الراحة والإقلال من الكلام.

. الأفضل أن تنام وأن لا ترهق نفسك بالكلام.

ابتسم.

. وإذا كنتُ لا أشعر بالنعاس....؟

ثم أضاف بعد لحظات من الصمت:

. انظري، أنا لا أستطيع النوم، وإذا كنت تريدين أن لا أتحدث، تحدثي أنتِ. قصّي علي شيئاً، حدثيني مثلاً عن حياتك.

ضحكت المرأة للطلب المفاجئ، لكن ذلك أغواها في أعماقها، إذ أنه أشعرها بصورة ما، بشيء من الاهتمام بحياتها.

. الآن، الأمور طيبة، لكن....، على كل حال....! ماذا سأروي لك أنا؟ لربما سأختلق لك بعض التصورات والهذيانات.

. دعي الهذيانات، وأسمعيني شيئاً.

وخيم الصمت على الاثنين قليلاً، ثم تابعت الحديث:

. الحقيقة، الحقيقة، لا أدري ماذا أروي لك. انظر، إنه فعلاً لأمر صعب. حسن، إذن، أوه! أوه!، كيف هي المسألة؟.... أنا وُلدت....، دعني أرى....، أنا وُلدت....؛ آه، إني لا أتذكر.

كان بريسينتاثيون كامبوس مستمتعاً بالإصغاء إلى حكايتها الساذجة. أغمض عينيه كي يستمع إليها بصورة أفضل.

. حسن، أنا وُلدت في السهل،..سهول،.. سُهُب كثيرة،.، كثيييرة...، كل شيء متسع ومنبسط..، متسع....، يبعث في النفس الفرح! لكني، مع ذلك، لم أكن أشعر بكثير من الرضا. منذ كنت فتاة صغيرة، لم أعد أذكر تماماً متى، أحسست برغبة في أن أمضي في طريقي، وأتزهد، ومشيت...، ومشيت....، ومشيت....، ومررت بما كان فيه النصيب من القرى....

غفا وهو يستمع. توقفت "لاكارباخالا" عن الكلام، غطّته، ومضت على أطراف أصابع قدميها. لقد نام بعمق. في الخارج، كان الرجال قد انطرحوا على الأرض يشخرون، منهكين من الإعياء والسكر. وتحت ظلام الليل كان يصعب التمييز بين

الأحياء والأموات.

كل ذلك القتال، والاندفاع إلى التدمير، والمرارة،.. والبهجة، كان قد انهار في قاع ظلام الأحلام والصمت.

عندما فتح الجريح عينيه، كان ضوء ساطع يغمر المكان، و"لاكارباخالا" تقف بالقرب منه. مرر يده على جبينه، لم يكن يشعر بألم، وكانت حرارته قد تراجعت.

انتبه للمرة الأولى إلى وجود الجرحى الآخرين. كانوا جميعاً غارقين في سبات لا يقاوم بسبب ارتفاع حرارتهم. فوق السرير المجاور، يستلقي زنجي ضُمّد صدره بلفافة قماشية ملطخة بدم جاف، وفوق السرير الذي يليه كان يتمدد رجل آخر التفّ رأسه بأربطة قذرة، ثم، على الأرض، فوق أغطية زرق وحمر، كان آخرون يضطجعون عراة لم يستطع أن يتبين مواضع جراحهم.

رأته "لاكارباخالا" يتفحص بنظره ذلك العدد من البائسين، وانتظرت، صامتة، أن يتحدث.

أخيراً، قال:

. ومن هم هؤلاء؟

عاد إليها نفس التخوف والحذر اللذين أحست بهما قبل اطمئنانها للكولونيل الإسباني. كانت قد شهدت ذلك العمل العنيف الذي قام به هذا الرجل الذي يسألها الآن، وخافت على هؤلاء البائسين، العاجزين عن حماية أنفسهم.

. لماذا لا تجيبين؟

ومع سؤاله انقد في عينيه تعبير واثق رجولي لم يسمح لها بالامتناع عن الإجابة، ومع تأثير شيء من الافتتان، قالت الحقيقة:

. هم بعض الثوار الجرحى.

. آها!

. أجل! وقد قلت لك هذا لأني أعرف أنك لن توقع بهم أي أذى.

. كيف تعرفين ذلك؟ . سألها مع ابتسامته التي تكشف عن أسنان بارزة مثل حيوان لاحم يتأهب للافتراس.

خفضت المرأة عينيها ولم تجب.

وعاد يتفحص هؤلاء الرجال الصامتين الغارقين في الألم؛ هذه الأجساد المتألمة التي تلفها المعاناة والعجز. لم يثر هذا لديه إحساساً بالأسى أو بالشفقة، بل بالغطرسة؛ غطرسة بسبب قوته الجسدية، ويديه القادرتين على التحطيم، وبسبب حياته المتمردة. الثوار. إنهم هم الذين يمضي من أجل تدميرهم. هذه الأكوام من الأجساد الساكنة المتقرحة. هؤلاء هم أعداؤه. الآن، وقد عاد إلى موقعه القوي، وعرف أن جرحه طفيف، كان ينظر إليهم بازدراء. فضلات مهزومة. لم يكن يعرفهم. لم يكن قد شاهدهم في حياته على الإطلاق. لم يكن يعرف من هم، ولا بماذا يفكرون، ولا ماذا كان يريد ذلك الرجل الممدد على الأرض، برأسه المعصوب بمزق القماش، أو أولئك الآخرون. إلا أنهم الآن منهزمون. ومَنْ هزمهم لا شك أنه قوي، ومدمِّر، وذو كبرياء، مثله؛ وهو يشعر نحوه بالتضامن والتآزر.

كانت "لاكارباخالا" تراقبه.

هذه المرأة قدمت له العناية؛ وهي قدمتها أيضاً إلى هؤلاء. إنها صديقة للضعفاء؛ ويعجبها المنهزمون. إنها ليست من طبيعته.

. أنتِ من قدَّم لهم العناية؟

هزت برأسها إيجاباً، وشعر بأنها خانته، وبأنه كان كالآخرين، وهذا ما يجعلها عدوة له. وبسبب طبيعة ردود أفعاله، ودَّ لو يلحق بها الألم أو المعاناة،.... أو التدمير.

لم تكن تبدو على الزنجي في السرير المجاور أية إشارة إلى استمراره على قيد الحياة، ليست هناك حركة من صدره تدل على أنه يتنفس. لربما أنه ميت.

كانت هي تقوم برعايته، ولو أنه فعلاً قد مات، فلا بد وأنها ستعاني من ذلك.

كان لون وجهه رمادياً، وهو شحوب الموت لدى الملونين، وعيناه نصف المغمضتين تشفان عن بياضهما، ويده الخشنة مفتوحة بارتخاء إلى جانبه، وفي فمه الذي خرج منه الزبد، فوق أسنانه الكبيرة البيض، يتجمع ذباب أسود وذباب عباد الشمس. لابد وأنه ميت. نظر إلى القطع القماشية الملطخة بالدم التي تلتف حول بطنه، وفكر بالجرح العميق الواصل إلى أحشائه، وتصوَّره مثل وكر للأفاعي.

. ماذا لدى هذا الزنجي؟

. إنه مصاب بجرح في بطنه. طعنة.

. أوو! آها....، عرفت. إنه ميت.

. أتظن ذلك؟

سألت وهي تقترب لتتأكد من ذلك. كان بريسينتاثيون كامبوس يحاول أن يترصد لديها أي دليل على الرعب أو الألم. كان يراقب تصرفها بمتعة سادية.

وصلت "لاكارباخالا" إلى جوار سرير الزنجي، فتحت جفنيه قليلاً فرأت أن حدقته قد غاصت إلى الداخل، وضعت يدها على صدره وجالت بأصابعها متفحصة أية إشارة لتنفسه، ثم تناولت يده الضخمة، رفعتها، أحست بأنها باردة وثقيلة، وتركتها تسقط، فتأرجحت خارج السرير.

قالت، بكل هدوء:

. أجل، هذا صحيح، إنه ميت.

أثارت ردة فعلها غير المتوقعة حيرة كامبوس.

نهض من السرير بحركة مفاجئة ومشى عدة خطوات باتجاه الباب، إلاّ أن دواراً شديداً داهمه، شعر بأن كل شيء راح يدور من حوله، وكاد يسقط، فاقتربت "لاكارباخالا" منه وساعدته.

وخلال دقائق قليلة استعاد إحساسه بالتوازن والثقة. شكرها ومشى وحيداً، وخرج إلى الطريق.

كان يحاول أن يستعيد في ذاكرته مظهر القرية التي لم يكن قد شاهدها إلاّ للحظات خلال هيجان القتال، لكنه، ومن النظرة الأولى، أدرك أن كل شيء قد تبدل بصورة كاملة.

على امتداد ذلك الطريق الوحيد تراكمت أكوام الأثاث والجثث، ورماد البيوت المحترقة والمتفحمة، مما خلق مع سماء الصباح الزرقاء مشهداً غاية في التناقض.

في الجانب الآخر، كان صوت الكولونيل ثامبرانو يملأ المكان بأوامره وهو يعيد تجميع القوات.

اتجه بريسينتاثيون كامبوس إليه، وجاء الزنجي ناتيفيداد للقائه:

ـ طمئنّي، سيدي؟ هل أنت بحالة أفضل؟

أجابه بهمهمة عدوانية أرعبته، فابتعد.

رآه الكولونيل قادماً ورأسه معصوب بالضماد.

ـ كيف الحال، صديقي؟ كيف أصبح الأمر؟

ـ جيد، أنا الآن على ما يرام.

اقترب منه زنجي يجر حصاناً جديداً، عليه سرج زاهي الألوان.

ـ جئنا لحضرتك بهذا من القرية، سيدي.

كان اعتداده وثقته بنفسه قد ازدادا قوة، إضافة إلى كل فظاظته.

اقترب منه الكولونيل بعد أن أعطى بعض الأوامر.

ـ حسنٌ، هل نمشي الآن، آه؟ إذ لم يتبقَّ هنا سوى الأنقاض.

ـ نمشي!

لكن الكولونيل كان ينظر إليه مع ابتسامة ماكرة، وعاد ليؤكد من جديد على ما قاله:

ـ فلنمشِ. هل أنت متأكد من أنك لم تنس شيئاً؟

لم يفهم، وبدأ هذا الإصرار يزعجه.

ـ ليس سيئاً أن نقدم الشكر، بعد هذه الرعاية الطيبة!

الآن فهم أن الكولونيل كان يتحدث عن "لاكارباخالا". وأراد أن يظهر له عدم ارتياحه لهذا التلميح، بأن قوَّس حاجبيه، ثم مضى مع حصانه باتجاه الساحة.

بدأ الجميع يستعدون للتحرك محملين بالأسلحة والغنائم، بعضهم ربط دجاجات صفر إلى خاصرته، وآخرون كانوا يحملون فوق أكتافهم بعض أمتعة النوم والأحذية.

نظر بريسينتاثيون كامبوس إلى رجال الكولونيل وإلى رجاله، الذين كانوا على أهبة الانطلاق. ثم استدار ليشاهد، هناك، عند بوابة المنزل، "لاكارباخالا" وهي تلوح بيدها مودعةً القوات المغادرة.

وبقرار سريع نادى أحد رجاله ليأتي إليه مع حصانه.

ـ أعطني هذا الحصان.

أخذ منه اللجام وأسرع إلى حيث كانت تقف المرأة.

نظرت إليه بعينين منذهلتين وهو يقترب منها.

. اصعدي فوق هذا الحصان . قالها بلهجة آمرة.

ودون أن تجيب بشيء، وبطاعة وديعة، امتطت "لاكارباخالا" الحصان، وانطلقا معاً.

- ١٠ -

ليل بطيء وساكن يخيم فوق "فِيّا دي كورا" المرتمية بين أحضان سلسلة جبلية يخترقها عدد من الأنهار.

ليل بطيء وساكن جاثم فوق أنفاس البلدة الخائفة. كان قد غادرها أكثر من نصف السكان، في تلك العشية، باتجاه "سان خوان دي لوس مورّوس".

في كل الشوارع تُسمع صيحات الحرّاس، وتحت السماء الليلية المرصعة بالنجوم بعض أضواء قليلة خافتة، وعند الطرف المفضي إلى السهل الفسيح تتقد بقع نار صغيرة متناثرة.

بوفيس يقوم بهجوم واسع ومعه سبعة آلاف رمّاح. سبعة آلاف حصان جامح تغزو بضراوة، يمتطيها سبعة آلاف شيطان شرس، بأيديهم سبعة آلاف سلاح من الحديد البارد القاتل.

طوال بعد ظهر ذلك اليوم استمر خروج الناس بسبب الخوف. امتلأ السهل بحركة هروب متواصلة ومذعورة، فرادى وجماعات، قلق على الأرواح والأموال، قلق واضطراب في التصرفات، في الأصوات، في الصمت، قلق لدى النساء اللواتي يحملن أطفالهن على ظهورهن، قلق لدى الحيوانات، حمير صغار تحمل أكواماً من الأطفال والأمتعة، قلق وتوتر في جميع العيون، في أعماق الأرواح.

تركوا كل شيء وراءهم؛ الأرض التي زرعوها لسنين طويلة؛ بيوتهم القديمة التي أمضوا فيها أوقاتهم الجميلة. رياح موت باردة أمسكت بتلابيبهم لتقذف بهم نحو المجهول.

بوفيس يقوم باجتياحه مع سبعة آلاف رمّاح.

البيوت خاوية في "فِيّا دي كورا"؛ البلدة مقفرة. بدلاً من الاستقرار والاطمئنان،

أصاب الناس الجنون من الرعب، فنجوا بأنفسهم إلى حيث لا اطمئنان ولا استقرار.

لم يتبقّ غير قلة من البائسين، يتنقلون بين زاوية وأخرى، خائفين من التحدث بصوت مرتفع، حذرين حتى من أنفسهم، مذعورين وكأنهم أصبحوا يواجهون موتاً محتماً.

سبعة آلاف حصان شبق تجتاح الحقول.

في أعماق البيوت، يقبع المسنون الذين عاشوا فيها سنين طويلة واستوطنت الأرض منهم بؤبؤ العين، يملأ اليأس أرواحهم لأن الرجال ما عادوا يفعلون شيئاً غير الإمعان في التدمير المتبادل، أصبحوا يخشون من أن حياتهم لم تكن سوى خطيئة كبرى يعاقبهم عليها إله لا يغفر.

أرض فنزويلا في طريقها إلى الدمار، والناس يفرون، يفرون بعناد المجانين، المذعورين من أن عظامهم ستنخلع من أجسادهم.

هؤلاء الذين بقوا . العاجزون والنساء الصامدات والمسنون الذين أصبحوا يرغبون بالموت كي يرتاحوا من كابوس الرعب . لا يأكلون، لا يعملون، لا يعيشون، إنهم ينتظرون الموت ثانية بثانية، أصبحوا يشعرون وكأنهم مستمرون في الحياة مثل نبتة ضارة.

يطلون من الأبواب وحياتهم معلقة في عيونهم التي شاهدت آخر عربة محملة بالأطفال، وآخر الفارين الذين غادروا.... ثم دوريات الجنود الجمهوريين الذين يمرون عبر طرقات البلدة المهجورة، وصمت رهيب يخيم على الأشياء التي أصبحت بلا حياة.

سبعة آلاف رمح حديدي بارد قاتل.

في الليل..، يمتلئ الظلام بالأشباح، تسمع أصوات خطوات، دجاجات تفر مذعورة، كلب ينبح وكأنه نباح على الأشباح، ضوء مصباح زيتي خافت في ذلك

البيت الكبير شبه المقفر. ليس هناك قمر. ديك يصيح. خطوات الحرس يتردد صداها. أحدهم يقول: "بوفيس قادم"، وامرأة مسنة، وجهها كالأرض المتشققة وعيناها كالماء الصافي، ترتجف خوفاً وهي ترسم على صدرها إشارة الصليب.

في السهل المجاور، حول أكوام النار الصغيرة المتناثرة، بعض جنود الإمداد يسهرون ويتحادثون، التماعات اللهب تتمازج مع الظلال في نسيج غريب ومثير.

معظمهم من الفتيان، في مزاحهم هاجس الموت. قرب النار، يقول أحدهم للآخر:

. آه يا عزيزي، عليك أن تأكل جيداً، لا تهتم، ولن يتحمل العبء غير ذلك الذي سيبيع الأحشاء.

. وأنت، بهذا العنق الأسود الذي يليق بالذبح!

بعضهم، من مناطق السهول، ناحل الجسد، وآخرون ذوو رؤوس مستديرة، وثمة ثرثارون من المنطقة الشرقية، وبعض آخر قَدِم من غوايانا.

قدِموا من كل مكان، وجمعتهم الحرب. أحدهم يروي بعض مغامراته، وآخر يستعرض قصة حياته، وثالث يستغرق حزيناً في تأملاته.

. لقد خدمت مع الجنرال ميراندا، كنت أبرّد له الـ"غوارابو". لم تشارك تلك القوات في أي قتال. كان رؤساؤنا يمضون كامل الوقت في إقامة الاحتفالات والولائم وإلقاء الخطب.

ويعقب آخر:

. ما أسعدك! لقد خدمت أنا مع الجنرال بوليفار في حملته التي انطلق فيها من كوكوتا وحتى كاراكاس. لقد خضنا معه معارك حقيقية، إنه قائد حقيقي.

وعلق أحدهم مشككاً:

. لا أظن ذلك، إنه يتلقى الآن الكثير من الضربات.

. الكثير من الضربات؟ ماذا تقول أيها القرد! إنه بطلي، أنا على استعداد للذهاب مع الجنرال بوليفار إلى أي مكان.

في زاوية أخرى، كان زنجي يروي لجاره بصوت مرتجف:

. في كاراكاس، كان يجري إعدام الناس يومياً في الساحة الكبرى، أي إسباني يقع بين يدي الجنرال آريسمندي [1]، يُعدم في الحال. كانت أعمال القتل هذه تجري كل صباح! وكنت أنا الذي يكلَّف بنقل القتلى إلى الدفن.

تُكدّس تلك الأكوام من الجثث في حاوية جلدية كبيرة، ويقوم حصان بجرها حتى المقبرة. كانت تتدلى يدٌ أو قدم من هنا، ورأس من هناك، والدماء تنزف من كل جانب. وحدث مرة أن سقط مَن كنت أحد عبيده ذات يوم. أطلقوا النار عليه وأمروني بجره مع باقي القتلى. وضعتُه فوق الآخرين، احتراماً له، وضربت بالسوط ذلك الحصان الذي كان أكثر هزالاً من آلة هارب، وانطلقت وأنا أصفّر بجانب الحاوية الجلدية، التي كانت تثير جلبة مع انزلاقها فوق الطريق الترابي. مع مغادرتي المدينة، أحسست بأن قطعة عظمية طويلة ويداً باردة تمسكان بي!....

لم أجرؤ حتى على النظر، لشدة خوفي. لكن، أخيراً، نظرت....، ورأيته، إنه هو، بعينيه الشاحبتين....، ولم أتمالك نفسي، فررت مذعوراً، انطلقت على امتداد الطريق دون أن أتوقف، حتى بلغت أسفل الوادي.

قال أحد القادمين من السهول:

---

(١) . Juan Bautista Arismendi (١٧٧٠- ١٨٤١)، جنرال جمهوري ولد في جزيرة مارغريتا. قام، بالاشتراك مع Santiago Mariño، بما أُطلق عليه "حملة الشرق". أصبح عام ١٨١٣ حاكماً عسكرياً مؤقتاً لكاراكاس بعد الحملة التي قادها بوليفار انطلاقاً من كوكوتا وأصدر خلالها نداءه الشهير "حرب حتى الموت".

. متى ستنتهي هذه الحرب كي أستطيع العودة أخيراً؟ كنت أعيش بصورة طيبة، ولم أكن مضطراً لرؤية وجه أحد...

جنَّدوني؛ "من أجل الحرب، ولكي نجعلك غنياً"!.. أيّ غنى هذا الذي جنيته! إني لم أجن حتى الآن أكثر من ركلة حذاء.

. ومع من بدأت؟

. أنا؟ مع بوفيس. قال إنه سيقودنا كي نصبح ملكيين. لكنّا تلقينا أولى الضربات في السهل.

. ثم، ماذا جرى؟

. هه! لا شيء. أخذوني أسيراً، ثم بقيت في هذا الجانب.

واحد من غوايانا، ذو وجه حزين، كان يحكي لعدد من الجنود الصغار وهم يصغون إليه بكل انتباه مندهشين:

. آه، يا ولدي! من لم يَرَ الـ "أورينوكو" (١) لم يَرَ مياهاً على الإطلاق.

كان أولئك الرجال، القادمون من مختلف الأرجاء، يتحدثون بمحبة عن أمكنتهم، التي غادروها دون رغبة منهم، وخلقت لعبة الموت لديهم إحساساً بالمرارة والحزن، والخوف من أن لا يعودوا إلى رؤيتها ثانية.

عبْر سهول المدينة، وعبر أكوام النار الصغيرة المتقدة، ومسامرات الجنود، كانت روائح الأخطار تملأ أجواء المدينة شبه المدمرة.

شيئاً فشيئاً، أخذت الأضواء تنطفئ، والأصوات تصمت. وعندما انصرف الجميع إلى أنفسهم وتصوراتهم، كانت بعض أصداء تتردد مثل طنين إنذار أجراس:

---

(١) . Orinoco اسم أكبر أنهار فنزويلا. . المترجم .

"بوفيس قادم"، ويفر النوم من العيون وتدب القشعريرة في الأجساد.

من بعيد، من أعماق الظلمة، كان صوت ينبعث فيتردد ويتبدد فوق هؤلاء الرجال وفوق بعض البيوت القليلة المنعزلة، أصداء غناء يتسلل عبر الظلام المترامي، مثل وشوشة تتنامى في أعماقهم:

الـ"إيغوانا" (١) و"ماتو" (٢) الماء

ذهبا إلى الـ"أورينوكو"

الـ"إيغوانا" لم ترجع أبداً

ولا حتى "ماتو" الماء....

ثم يأتي الصمت ليملأ كل الفضاءات، وتطلق الأحلام معاركها الساكنة، وتحت قبة النجوم تموت بقايا أضواء شحيحة كانت تتناثر على امتداد السهول.

كان الحراس يتخذون مواقعهم، حذرين قلقين، وأصابعهم على الزناد.

بوفيس يغزو مع سبعة آلاف فارس.

أحد الحراس شاهد من خلال الظلام ثلاثة رجال قادمين يمتطون أحصنتهم، وبسرعة لقَّم بندقيته وسددها باتجاههم صائحاً:

. توقفوا! من يعيش؟!

. الجمهوريون . أجاب واحد منهم.

---

(١) . Iguana عظاءة أمريكية كبيرة الحجم. . المترجم..

(٢) . Mato الماء: من الزواحف البرمائية، أصغر حجماً من التمساح الأمريكي.

. المترجم .

وأكمل الحارس، وهو ما يزال مسدداً بندقيته:

. ترجّلوا عن الأحصنة واقتربوا.

أطاعه القادمون الثلاثة. ثم أمرهم بالسير أمامه عبر المعسكر.

بعد أن ساروا مسافة كبيرة، وصلوا إلى بيت صغير منعزل، سقفه من القش ودون نوافذ، يقف أمام بابه جندي للحراسة.

. أخبِر الكولونيل أني جلبت معي إلى هنا هؤلاء الرجال الثلاثة.

دخل الجندي، وخرج بعد لحظات.

. أمر الكولونيل بأن يدخلوا!

دخلوا: مكان ضيّق، في جانب منه سرير نقال؛ وفي الوسط صندوق خشبي فوقه قنديل زيت يضيء أكداساً من الأوراق، ووجه رجل يجلس فوق صندوق آخر أصغر حجماً؛ شاربان ضخمان ولحية مشذبة وعينان صفراوان كأنهما من زجاج. وإلى جانب السرير، بمتناول اليد، سيف ذو قبضة من فضة.

تفحّص وجوه الرجال الثلاثة، وبخاصة وجه واحد أشقر من بينهم، ذي لحية على عارضيه، تبدو عليه مظاهر الإنهاك أو المرض. نظر إلى الجندي الحارس الذي كان ينتظر منتصباً:

. حسن جداً. يمكنك أن تنصرف.

حيّا، واختفى عبر الباب الضيق.

عندما انفرد بالغرباء الثلاثة، اتخذ وضعية مسترخية، أخرج من جيبه قطعة تبغ أسود، قضم منها جزءاً صغيراً وراح يمضغه ببطء وتلذذ. مدّ رجليه، ومسح بيده على شاربيه، ودون أن يلتفت إليهم، سأل وهو ينظر باتجاه الباب، وكأنه يتحدث وحيداً:

. حسن! حضراتكم تعرفون أين أنتم؟

. نعم سيدي . أجاب أحد الثلاثة .، في سهل المدينة، وسط قوة جمهورية.

. صحيح، أنتم وسط قوة جمهورية، هذه إحدى وحدات "المحرِّر"، وأنا رئيسها، الكولونيل روسو دياس. مَن حضراتكم؟

نظر الثلاثة بعضهم في وجه بعض، ثم بادر أحدهم إلى الإجابة:

. أيها الكولونيل، أنا فيرناندو فونتا، ملاّك من آراغويا، والسيدان الآخران هما الكابيتان الإنكليزي جورج دافيد، وبيرناردو لاثولا من كاراكاس، جئنا بحثاً عن قوات المحرر كي ننضم إليها.

نهض الكولونيل، وقبل أن يردّ، خطا بضع خطوات وهو يراقبهم لبرهة قصيرة، ثم، وكأن شعوراً ما دفعه، دعاهم إلى الجلوس، فجلسوا على الأرض.

. آها! ومن أين أتيتم؟

أجاب فيرناندو:

. نحن خرجنا من الـ " آلتار"، وهي مزرعة واقعة خلف لافيكتوريا، وصلنا إلى البحيرة ثم سرنا بمحاذاة شاطئها حتى ماغدالينو، وهناك توقفنا قليلاً للتزود بالمعلومات.

عند هذه اللحظة ابتسم الكولونيل بخبث وريبة.

. وماذا حصل معكم في ماغدالينو؟

. للحقيقة، باستثناء أنهم سرقوا أحصنتنا، لم يكن هناك ما يستحق الذكر.

. آها! إذن سرقوا أحصنتكم؟ هكذا إذن! أي أناس هؤلاء! ومن هم؟

. يبدو أن هندياً غريباً جاء في تلك الليلة، قال لنا صاحب الحانة إنه ضابط جمهوري.

. آخ يا ابني! من قال هذا؟!

. في نفس تلك الحانة حصلنا على معلومات حول وضع القوات المختلفة. القوات الجمهورية تحيط بالمدينة، والملكيون موجودون في اتجاه سان خوان دي لوس موروس، مع أربعة آلاف رجل وأحصنتهم.

عاد الكولونيل إلى الابتسام.

. إذن، اسمعوا! ليست لدى وكر المتشردين أولئك أية معلومات. بوفيس لديه سبعة آلاف رجل! ولمعلوماتكم، إن مررتم ثانيةً بماغدالينو، جميع الناس هناك قوطيون.

صمت الثلاثة خوفاً من أن يكونوا قد أغضبوا الكولونيل دياس، الذي استمر بدوره يحاصرهم بنظرات عينيه الصفراوين الحذرتين وكأنه يحاول أن يخترق نواياهم الحقيقية من وراء أقنعتهم الخارجية.... فيرناندو، ذو الملامح السمر والبسيطة، بيرناردو بإطلالته الحيوية، والإنكليزي، الأشقر الأرستقراطي.

. وحضرتك، أيها السيد، ما الذي جئت تفعله هنا؟

أجاب الإنكليزي:

. جئت كي أكافح من أجل الحرية، كي أتعاون مع الجنرال بوليفار.

ولدى ذكر هذا الاسم، تبدل تعبير روسو دياس في الحال، من السخرية وعدم الاطمئنان اللذين كانا غالبين عليه طوال الحديث، إلى منتهى الجدية.

تحدث بكثير من الاهتمام:

. أنا لا أعلم إن كنتم قد جئتم من أجل مساعدة المحرر أم أنكم مجرد حفنة من الجواسيس. في كل الأحوال، هذا لا يهمني، إن كنتم قد جئتم بنوايا طيبة، فأنتم رجال، والكولونيل روسو دياس يشكر لكم ذلك، أما إن كنتم قد جئتم للتجسس، فأنتم مجرد بهائم، إذ لن تجدوا ما تتجسسون عليه. نحن نمر بلحظات حرجة جداً، والاحتمال كبير في أن لا يبقى للنوم غداً سوى الموتى. وهكذا، فالأمر سيان. جواسيس أم لا، غداً

ستنهي رصاصة حياتكم إلى جوارنا.

. أنت ترتكب خطأً كبيراً بعدم الثقة بنا . أجاب بيرناردو .، إنك لن تجد في كل هذه القوات مَن هم أكثر إخلاصاً منا. ليس بإمكاننا في هذه اللحظة البرهان على هذا الإخلاص، لكنَّ هذا سيكون بمقدورنا لاحقاً، عليك أن تصدقنا.

عاد الكولونيل إلى الابتسام.

. سبق وأن قلت لكم إن هذا لا يثير اهتمام روسو دياس على الإطلاق.

توقف قليلاً عن متابعة حديثه، دون أن يتوقف عن متابعة مضغ قطعة التبغ بنفس التلذذ، ثم أضاف:

. الأمور سيئة جداً. بوفيس يتقدم مندفعاً مع عدد هائل من الفرسان، وإن لم نوقف زحفه ستضيع الجمهورية. كل ما أمكننا تجميعه من قوات يتمركز حول البوابة، ولم أتمكن من الإبقاء هنا إلا على ستين رجلاً. إذا هُزمنا أمام بوفيس لن يبقى لنا أثر.

أطرق الكابيتان الإنكليزي صامتاً، واضعاً رأسه بين كفيه.

. ماذا جرى؟ هل تعاني من عارض صحي؟

. لا، أيها الكولونيل. فقط أشعر، منذ ما بعد الظهر، ببعض التوعك.

اقترب الكولونيل منه وجس جبينه بظهر كفه.

. أووه، لديك ارتفاع واضح في حرارتك، تعال واسترح فوق سريري.

أخذ به من يده وساعده على ارتقاء السرير.

أحس الإنكليزي بالحرج بسبب الأريحية التي يتصرف بها الكولونيل معه.

. لا، لا، لا داعي، أرجوك، إني بخير هكذا، لا يجوز أن آخذ سريرك؟ لا، لا.

. آه، ماذا تقول، لا داعي لهذا العناد، أين رأيت رجلاً سليماً معافى يضطجع

بينما هناك آخر مريض يقف على قدميه. استلقِ تماماً وكف عن المزيد من الكلام.

استرخى الإنكليزي فوق السرير ومدد أطرافه. وراح يستسلم للنوم.

عاد الكولونيل إلى الصندوق الذي يستخدمه كمقعد، وإلى استجماع خيوط حديثه السابق:

. إذن، وكما قلت، بوفيس هو الرجل الوحيد القادر على إنهاء الجمهورية. طالما استمر هذا الرجل فوق حصانه فإنه سيتمكن من النيل منا.

بدأ النعاس والتعب يسيطران على فيرناندو وبيرناردو، وأصبحت مشاركتهما تقتصر فقط على هزة من الرأس.

استرخى روسو دياس في جلسته ومدد رجليه، وراح يداعب لحيته وشاربيه الكثيفين وهو يصغي إلى شخير الضابط الإنكليزي، بينما غفا الآخران عند زاوية الحائط، وانتقل الثلاثة إلى مرفأ الأحلام الساكن.

وحده روسو دياس بقي مستيقظاً يحدق بعينيه الكبيرتين المتأملتين، متابعاً ارتعاش ضوء القنديل وأصوات جنود الحراسة المتنبهين وهم يتنقلون بعباراتهم القصيرة من فم إلى فم.

وسط هذا الاستسلام للتعب والنعاس، وداخل عالم الحلم العميق، تجثم فوق الجميع حال من التوجس والترقب الثقيلين.

سبعة آلاف حصان تتقدم فوق السهول!

صدح بوق، دفقة معدنية مزقت السكون. تَواصل صوت البوق.

استيقظ الجنود، صرخات المعدن اقتحمت الجو، سمعها الجميع، النساء المسنات اللواتي يصلين في بيوتهن، الأطفال، الكولونيل روسو دياس بعينيه الثابتتين المفتوحتين، أوراق الشجر التي لا يُعرف إن كانت تحركها الرياح أم نفير البوق. كان الصوت يصدح ويعلو ويخترق الجبال والسهول الممتدة، وتضج أصداؤه بين جنبات

الصباح.

تبين للجميع أنهم لم يناموا جيداً؛ ليس هناك غير التعب والإرهاق وخمود الهمة.

كانت السماء شاحبة ولا تبشر بخير، عندما وصل على حصان متعرق مُغبر، رجل مسلح، ترجل أمام مقر الكولونيل، قال لجندي الحراسة الذي كان يقف عند الباب:

. أوامر من القيادة العامة.

لم تكن هناك ضرورة لإعلام الكولونيل بوصول هذا القادم، إذ أنه خرج إلى الباب لدى سماعه صوته.

قدّم المراسل التحية للكولونيل ثم سلمه رسالة مغلقة تتضمن أمراً بإرسال كل ما يمكن إرساله من القوات. قبل أن يفعل روسو دياس شيئاً، فكّر للحظات.

. يا رجل . قال أخيراً . لم يعد لدي سوى ستين رجلاً، ماذا تريدني أن أفعل؟.. خذ معك أربعين.

نادى أحد ضباطه وأعطاه التعليمات اللازمة لتجهيز أربعين رجلاً وتحريكهم في الحال.

نُفذت التعليمات فوراً، وبعد لحظات قليلة كان الرجال يقفون عند أول الطريق استعداداً للانطلاق.

اقترب الكولونيل من الفارس وعانقه بحرارة:

. خذهم، يتبقى فقط أن يموت الإنسان شجاعاً، خذهم وأتمنى لكم حظاً طيباً!

وبعد أن تحرك الفارس مع الرجال، أضاف الكولونيل بلهجة ودود صادقة:

. وإذا احتجتم إلى مزيد من الرجال، عودوا واطلبوهم مني.

ثم توقف قليلاً يراقب الغياب التدريجي للرجال بين البيوت، يغمره التأثر

والصمت، مودعاً وجوههم وهم في طريقهم إلى الموت.

عندما عاد الكولونيل إلى غرفته وجد بيرناردو وفيرناندو يحيطان بالسرير حيث كان يستريح الإنكليزي.

. كيف أصبحت أمور هذا السيد؟

. قال إنه ليس على ما يرام.

كان المريض شاحباً، وجسمه يرتعش بالكامل من نوبة برد شديدة.

. هذا الرجل مصاب بالحمى . قال الكولونيل. انتظروني قليلاً هنا، سأتدبر أمره.

خرج ونادى جندي الحراسة.

. اجلب لي شبكة أرجوحة تصلح لنقل رجل مضطجع.

ثم عاد وجلس فوق صندوقه الخشبي.

. تعلمون ولاشك، . قال مباشرةً . أن الأمور تسير نحو الأسوأ. الآن لم يبق لديّ سوى عشرين رجلاً. يبدو أن لا أحد سينجو هنا، حتى ولا قِط.

ثم ضحك وكأنه يريد أن يستعيد بعض ثقته، وأكمل:

. بعد كل شيء، الأفضل أن يموت الإنسان بطعنة رمح من أن يموت على سرير أمه.... ثم.. لن يموت أحد إلاّ في يومه..

كان ضوء مخضرّ ورطب يدخل عبر الباب، وفيرناندو يستمع وينظر وينتظر، ووابل من الكآبة ينهمر فوق روحه. بدأ يستوعب المدى الذي اجتازه وهو يخطو باتجاه الاستغراق في هذه اللعبة المأساوية. حتى هذه اللحظة كان ما يزال، وإلى حد ما، يتحرك خارج الحقيقة، بسبب الألم، والحماس، والرغبة بالانتقام. لكن الآن، وقد هدأ بمعنى ما، وبعيداً عن ردة الفعل العنيفة الأولى لعاصفة الغضب، فإنه يتأمل في أغوار نفسه، ويدرك أنه ربما يكون قد ذهب بعيداً، أو حتى أبعد من اللازم. كلمات هذا الرجل

التي تتحدث عن الحروب وتعلن عن الموت أطفأت عزيمته وخلقت لديه حالة من التوتر. إنه يشعر بكثيرمن القلق.

صباح بارد، وحيد بين أناس لا يعرفهم، يكاد يموت من اليأس. ماذا يعني أن يكون رجل فوق حصان، وبيده رمح، لكنْ دون القدرة على الفرار، دون القدرة على الصراخ، لا يجد الحماية ولا النجدة. كان الأمر مريعاً.

عاد جندي الحراسة.

. الشبكة جاهزة سيدي الكولونيل.

حمل الكولونيل الإنكليزي بمعاونة بيرناردو وفيرناندو حتى الباب. وفي الخارج كان رجلان قد أسندا بينهما على كتفيهما عصا طويلة عُلّقت بها الشبكة، مُدّد المريض فوقها بكثير من العناية.

. حسن، أيها الشابان . قال الكولونيل .، خذا هذا الرجل إلى الكنيسة، وقولا للراهب إني بعثت به إليه كي يهتم بأمره ويرعاه.

ثم موجهاً حديثه إلى الاثنين الآخرين:

. سترافقانه وتطمئنان إلى وصوله وراحته ثم تعودان.

أطاع الجميع، انطلق الرجلان يرافقهما بيرناردو وفيرناندو، وراحت الشبكة تتأرجح مع خطواتهما وهما يعبران الطرقات الوعرة. وعند اقترابهم من البيوت خرج بعض الأهالي لمشاهدتهم وهم يعلقون:

. انظروا، انظروا، ميت!

. لا، إنه جريح!

. لا، ما هذا الكلام! إنه ميت!

لم يظهر لون السماء الأزرق، الجو يعلن عن يوم ماطر، رطب، رمادي. أخيراً

وصلوا إلى الساحة المشجرة، وخطوا فوق الأحجار المرصوفة المغطاة بالأوراق اليابسة. فوق البوابة العريضة للكنيسة واجهة رمادية يطل منها برج الأجراس المربع الأبيض.

أحدهم قرع الباب، سُمع الصدى الذي ضجَّ داخل الفناء الفسيح، صوت عميق ومديد. ثم صرير مفاصل البوابة التي ظهر من بين درفتيها رجل نحيل وشاحب يرتدي ثوبا أسود.

. بأمر من الكولونيل، جلبنا لكم هذا المريض.

. آخا! ادخلوا.

دخلوا إلى الكنيسة يتبعون خطوات الراهب. كانت تحوّم بين الأعمدة الضخمة نتف من ظلال تتداخل مع أضواء ألواح زجاجية، وخيوط أشعة تضيء الإطار المذهب للمذبح وتنعكس على الوجوه المطلية الملساء للقديسين، وتعبق في المكان رائحة بخور. في إحدى الزوايا، بالقرب من كرسي اعتراف قديم، مُدد الكابيتان دافيد فوق مقعدين خشبيين طويلين.

انصرف الجنديان وبقي بيرناردو وفيرناندو مع الراهب.

تحدث الراهب أولاً:

. ماذا به هذا الرجل؟

. لا أعرف. أعتقد أنه ارتفاع حراري.

بعد عدة أسئلة، وبعد أن جسّ نبضه، ثم تفقد حرارته بيده:

. أجل، إنه ارتفاع حراري. الآن سنجعله يتعرق، وستتحسن حالته. ثم مضى لإعداد العلاج.

كان الثلاثة يشعرون، في هذا المكان الفسيح الظليل، بأنهم منعزلون ومُهمَلون.

سأل بيرناردو الكابيتان عما يحس به، أما فيرناندو فلم يكن مهتماً بأي حوار، كان ما يزال في نفس المزاج النفسي المتوتر الذي تملّكه في المعسكر. ربما كان هذا آخر أيامه. آخر أيامه، في كنيسة فارغة، بين أناس غرباء عنه. كانت تستولي عليه أنانية جبانة، لقد أضاع ممتلكاته، لقد أضاع أخته.

لماذا هو يكافح الآن؟ من أجل ماذا؟ لماذا زج بنفسه في هذا الجو المأساوي الذي لا يُحتمل؟ هل يقدّر له أن يعود ليعيش بسلام في أي ركن من مناطق الأنتيل؟ لماذا الحرب؟ الحرب الرهيبة؟ الحرب تلائم أولئك الحيوانات: بريسينتاثيون كامبوس، روسو دياس، بوفيس....، لا يريد أن يموت، أن يصبح تحت التراب، ميتاً بإصابة وقحة، بجانب جثة مقرفة، أو تحت حصان بارد، أو فوق بقعة دم متخثر.

عاد الراهب ومعه وعاء كبير يتصاعد منه البخار وبضعة أوراق نباتية ولحاف. وضع الأوراق فوق جبين المريض ولفّها بمنديل، وغطاه باللحاف جيداً، ثم قدم إليه شراباً ساخناً.

امتثل الكابيتان لكل شيء بمنتهى الاستسلام. أحس برأسه وكأنه أصبح قطعة من الثلج، وشعر بآلام شديدة في عظامه.

. الآن سنذهب . قال بيرناردو.

كانت لحظات تأثر ملتبسة عند الوداع. ربما لن يلتقوا ثانية، بل أن هذا يكاد يكون أمراً مؤكداً.

مشى الاثنان بين الأعمدة الكبيرة باتجاه الباب ذي الصرير. ابتسم الكابيتان ابتسامة حزينة وهو يشاهدهما ذاهبين.

قرَّب الراهب كرسياً، جلس إلى جانبه وبدأ صلواته بصمت.

كل شيء هادئ بمظاهر كاذبة، هناك شعور بأن الموت قد يدخل بين لحظة وأخرى.

كان الكابيتان دافيد حزيناً. كم هو بعيد عن بلده إنكلترا، وحيد في تلك البلدة، إلى جانب راهب نحيل لا ينقطع عن الصلاة. وحيد ومُهمَل في تلك الأرض، وسط رجال يجهدون في تدمير أنفسهم. وحيد ومريض. لو أن هناك، على الأقل، امرأة تعنى به، لو أنها كانت الآنسة إينيس. تذكُّرُها يزيد في حزنه ويفاقمه. ومثلما حصل معها، فقد يخسر هو أيضاً حياته بكل غباء. كان كل شيء غارقاً في ذلك الجو الظليل الخانق، لم تكن ثمة حياة إلا على شفاه الراهب الذي يصلي.

بوفيس يهاجم مع سبعة آلاف رمّاح.

عندما عادا إلى المعسكر وجدا الكولونيل دياس يزرع مقرّه بخطوات متوترة، من طرف إلى آخر، مثل نمر سجين في قفص، يداه خلف ظهره وعيناه مثبتتان في الأرض، وقد وضع في حزامه مسدسه وسيفه ذا القبضة الفضية.

وفجأة، توقف هذا العسكري أمامهما:

. تركتما الرجل مستلقياً؟

توقعا أن يقول لهما أمراً على جانب كبير من الخطورة، أربكهما السؤال. ردّا بالإيجاب بحركة من الرأس.

. هذا جيد. هكذا أفضل!

وبعد أن استدار متابعاً خطواته المتوترة، أضاف:

. في هذه اللحظة يجري الإطلاق على أطرافنا. بوفيس يهاجم عند البوابة.

أحدث هذا الخبر لديهما مشاعر لا لبس فيها. مصيرهما الآن هو في أيدي رجال آخرين، وقد يُقضى عليهما. تلك هي اللحظات الصامتة التي تفصل بين الحياة والموت.

. ستكون المعركة قاسية جداً. والشجاعة متوفرة لدى الطرفين.

ثم أكمل:

. هل تعرفان كم هو حجم قوات بوفيس؟

. نعم . أجاب فيرناندو . حضرتك قلت لنا بنفسك إنهم سبعة آلاف فارس.

. صحيح. وكم تقدّر حجم قواتنا؟

ودون أن ينتظر الإجابة، أضاف صارخاً:

. ثلاثة آلاف رجل.... ثلاثة آلاف رجل، لا أكثر!

تأكيدات الكولونيل زادت في حالة الهلع لدى فيرناندو. كل ما كان في السابق مجرد تهديد بمخاوف، وقلق، أصبح الآن رعباً حقيقياً. احتقنت عيناه، كاد يبكي، شعر بالاختناق، إنه يلمح الموت وشيكاً ومحوِّماً فوقهم جميعاً.

. سوف نُقتل . صرخ أخيراً.

أراد بيرناردو تهدئته.

. لا، لا! اتركني! لماذا؟ لماذا يريدون قتلنا؟ من هم الذين نؤذيهم لمجرد أنّا نحيا؟ لمن أسأنا لمجرد أنّا نحيا؟ سيقتلوننا جميعاً..

كان الكولونيل دياس يراقبه متفاجئاً، ظاناً أنه ربما قد جُنّ.

. فيرناندو، اسكت! اسكت! فيرناندو! يجب أن تكون رجلاً.

لكنه واصل صراخه.

. هذه سفالة، هذا غباء أن يقتلونا كالكلاب. أن نُقتل كالجرذان. أريد أن أعيش! أريد أن أعيش!

ثم، وكما هي الحال في جميع نوباته، انخرط في بكاء طفولي.

أحس بالكراهية ضد الكولونيل، ضد برناردو، ضد جميع الأشياء، ضد جميع

الرجال، لامتلائهم بعدم العدالة، بالغباء، بالطاقة المدمرة.

ابتسم الكولونيل عندما كان بيرناردو يحاول أن يوضح له بالإشارات أن الأمر هو مجرد نوبة عصبية، وأراد مواساة فيرناندو على طريقته.

. لا تنزعج يا صديقي، لا تنزعج! انظر، لسبب ما سنموت، ثم من قال لك إنهم سيقتلوننا؟ هناك من سينجو من طعنة، بينما هو لن ينجو من مرض أو من بين يدي طبيب.

قطع استرسالَ الكولونيل في نصائحه صوتُ توقف حصان مفاجئ عند الباب. دخل رجل في حالة من التوتر والاضطراب، يتصبب عرقاً، مثل ذلك الذي كان قد جاء في الصباح.

أدّى التحية للكولونيل، ثم تحدث وهو يلهث:

. سيدي الكولونيل، أمَر الجنرال كامبو إيليّاس أن تضعوا رجالكم في حالة جاهزية تامة عند مدخل البلدة. كما أني بحاجة إلى حصان أصطحبه معي إلى لافيكتوريا مع بعض الأعتدة.

. كيف هي الأمور؟

. سيئة جداً. بوفيس قادم على رأس حملة هائلة.

أعطى روسو دياس أوامره لتجهيز حصان لهذا المراسل، وخلال ذلك طلب أن تُقدم له جرعة من الكحول ليشد من عزيمته.

انتحى الكولونيل بنفسه جانباً مستغرقاً في تفكيره قبل أن يعود ليجدد أمره بتجهيز حصانين بدلاً من حصان واحد.

وسادت لحظات من الصمت. منذ وصول المراسل بذل فيرناندو أقصى ما في إمكانه كي يتغلب على مشاعره.

جيء بالحصانين.

. حسن جداً . قال الكولونيل.

ثم التفت إلى المراسل:

. ستغادر الآن باتجاه لافيكتوريا؟

. نعم، سيدي الكولونيل.

. جيد، ها هو الحصان، لكن سأعطيك رفيقاً. أنا أيضاً لديّ بعض الأوراق التي سأرسلها إلى الجنرال ريباس.

تناول من فوق الصندوق حزمة أوراق ليست بذات أهمية، وقال لفيرناندو:

. اسمع يا صديقي. سأرسلك مع هذه الأوراق لإيصالها إلى الجنرال ريباس، في لافيكتوريا. قل له أيضاً إنك مزوّد بجميع نصائحي.

أدرك فيرناندو الغرض من تصرف هذا الرجل الخشن. أراد أن ينقذه.

. أيها الكولونيل، أريد أن أقدم إليك عميق شكري. أتسمح لي بأن أمد إليك يدي مصافحاً؟

. كيف لا، يا ابني!

وبادره الكولونيل بأن مدّ إليه يداً صلبة وقوية.

ثم عانق بيرناردو.

. حظ طيب، بيرناردو، أتمنى من الله أن تنتهي معك الأمور على خير.

شعر بيرناردو بالحزن. كان المراسل قد امتطى حصانه وبدأ يتململ بنفاد صبر، وضع فيرناندو رزمة الأوراق في جعبته ثم امتطى حصانه هو الآخر.

خاطبه الكولونيل وهو يقف عند الباب:

. تمنياتي الطيبة لك أيها الصديق. أنا أعرف أنك لست خائفاً. هذا حصل معنا جميعاً. ما ينقص فقط هو الاعتياد. تذكّر روسو دياس، الذي هو صديقك، متى احتجت إليه.

انطلق حصانه يعدو، وإلى جواره المراسل، دون أن ينقطع عن تكرار الالتفات، بعينين غارقتين بالدموع، إلى الكولونيل وبيرناردو اللذين وقفا يتابعانه بصمت.

قبل أن يغيب فيرناندو ورفيقه وسط الأشجار في أعماق السهل، كان الكولونيل قد باشر بإعطاء أوامره لتنظيم قوته الصغيرة في موقعها الدفاعي.

تحرك الجنود العشرون دون أي تردد، وعندما انتظم صفهم خاطبهم روسو دياس:

. حسن أيها الفتيان، الآن هو الوقت الذي سأتحدث فيه إليكم جميعاً، لأقول لكم إني أعرف أن أملي لن يخيب بأحد منكم. باسم الله.

انطلقت المجموعة، ومشى في الخلف كل من الكولونيل وبيرناردو.

عندما سمع الأهالي القلائل أصوات تحركهم، خرجوا يتابعون هذه القوة الصغيرة، وهم يتخوفون من أن يكون هؤلاء الجنود قد تخلوا عنهم.

صرخت امرأة:

. لا تتركونا، لا تتخلوا عنا.

وأصوات أخرى انضمت إلى صوتها وتوحدت معه كالكورس، في جِرس واحد حزين:

. خذونا معكم!

. لا تدعونا نموت!

. إن تخليتم عنا، فسوف يقتلنا بوفيس!

. الرحمة! حُباًَ بالله. لا تتركونا.

أمام رعب الصرخات والتوسلات قرر القائد إعطاء بعض التوضيحات. تحدث بصوت واثق رصين للسيطرة على هذا الاضطراب:

. لا أيها السادة، لن نتخلى عنكم! لا شيء من هذا. نحن هنا للدفاع عنكم حتى الموت. وما يحصل هو أنّا سنتمركز عند المدخل، وما عليكم سوى أن تتجمعوا في الكنيسة، كي أضع لكم حراسة تحميكم.

فور انتهائه من حديثه أخذ الناس يهرعون باتجاه المعبد. وعادت الأصوات تنطلق مرة أخرى، لكنها كانت هذه المرة مطمئنة وممتنة.

. في حماية عذراء الكارمن!

. في حمى الله!

. مبارك وحميد، الكامل القدسية!

أرسل الكولونيل أربعة جنود لحراسة الكنيسة، وتابع عمله مع ستة عشر.

بيرناردو، الذي كان قد هدأ قليلاً، عاد التوتر يتسرب إليه، وراح يغبط فيرناندو على جبنه. لقد أصبحت هذه القوة متواضعة جداً. ستة عشر جندياً للدفاع عن المنطقة والسهل الفسيح. إنها فعلاً مؤسسة مجانين.

عندما وصلوا إلى موقعهم الجديد وزع الكولونيل جماعته بمحاذاة بعض الجدران؛ تمترس عدد من الرماة وراء شجرات ضخمة، وتولى مع بيرناردو مهمة الحماية في منتصف الطريق، حيث يطلان بصورة مستقيمة ومكشوفة باتجاه المنخفض السهلي حتى امتداد نحو ألف متر.

كان كل منهما يشعر بمدى مأساوية اللحظة ولا يجرؤ على الإفصاح.

الصباح رمادي، تطبق عليه غيوم كثيفة، يتناثر من خلالها عدد قليل من

البحيرات الزرق الصغيرة، تسللت من إحداها حزمة من أشعة الشمس لتضيء جانباً من السهل. وأمكن تمييز قوة صغيرة قادمة سيراً على الأقدام، لا ترفع علماً، وتمشي بصورة غير منظّمة.

اشتبه الكولونيل في أن تكون هذه مناورة ماهرة من قبل العدو. نبه مجموعته وانتظر المزيد من اقتراب هؤلاء القادمين.

اقتربوا أكثر، فاستطاع أن يتبين حقيقتهم: تجمُّعٌ من النمل الإنساني، غارق في الوحول والإرهاق وبقع الدماء، بعضهم يتكئ على العكاكيز مستعيناً برفاقه، وآخرون محمولون على نقالات وهم يئنون، وبقية تحمل أسلحتها على أكتافها مثلما تُحمل أكياس الخضار.

كان مظهراً جليّاً من مظاهر الحرب.

تقدم روسو دياس باتجاههم. واقترب منه ضابط شاب، يمسك سيفاً بيده.

. ماذا حدث معكم؟

أجاب الضابط بحركة تعبر عن الإنهاك، ثم قال:

. جئنا منهزمين.

. هزمكم بوفيس؟

. لا!، أنهانا!

. قتلى كثيرون؟

. الجميع تقريباً.

. إلى أين ذاهبون؟

. قالوا لنا توجد قوات هنا.

قبل أن يجيب، مر روسو دياس بنظره من جديد فوق هذا القطيع المتألم، فوق أولئك الرجال الذين حاربوا ولم يجنوا إلا الألم. كان يعرف أن جوابه قد يزيد في إحباطهم، قد يسدد ضربة نهائية إلى ما تبقى من طاقة في أرواحهم. لقد نجوا من تلك المجزرة الرهيبة، وهم الآن يبحثون عن شيء من الراحة والأمان، خاف أن يثبط كل معنوياتهم.

لكنه، أخيراً، حزم أمره:

. هنا، لا توجد قوات. أنا ليس لدي سوى عشرين رجلاً.

وقع تأثير الكلمات في الحال. اشتعلت شرارات الرعب في العيون، وافترس اليأس القلوب. بدوا وكأنهم لم يعودوا يسمعون غير أصوات هواجسهم. وفقدت الكلمات كل معانيها ودلالاتها.

إنهم مستنفَدون، كانوا يعتمدون على أمل، وقد تحطم الآن. لن يجدوا هنا لا النجدة ولا الراحة، ولم تعد لديهم الطاقة اللازمة لمزيد من السير. الأمر رهيب، لا إنساني.

قال لهم الضابط الشاب:

. يا شباب، سنبقى هنا. إذا كان الموت بإرادة من الله، ماذا يمكننا أن نفعل!

لم يكن بين الجنود من ينبس بكلمة، ولم يكن يُسمع غير لهاثهم.

قرر روسو دياس، المتألم، اتخاذ التدابير اللازمة.

. الذين هم في حالة جيدة سيبقون هنا معي. أما الجرحى فيُنقلون إلى المستشفى.

جرى تقسيم المجموعة إلى فئتين: الأولى من الأصحاء مع أسلحتهم، والثانية، المؤلفة من الجرحى والمحمولين، تنقل إلى المستشفى ويرشدها أحد عناصر الإمداد.

وزع روسو دياس الرجال الأصحاء بنفس الطريقة التي كان قد وزع بها عناصره.

أصبح العدد الآن سبعين رجلاً.

عاد إلى التمركز في منتصف الطريق متخذاً تدابير الحيطة، بصحبة بيرناردو والضابط.

أصبحت التوقعات الآن أكثر مما يمكن احتماله. عاد الزمن إلى التوقف. كانوا جميعاً يودون سؤال القادمين الجدد حول تفاصيل الغزو، لكنهم فضلوا الصمت.

العيون تتلاقى عند أسفل الطريق، حيث يُتوقع ظهور الغزاة. القلق يتصاعد ثانية فثانية. راح بيرناردو يعد: واحد، اثنان، ثلاثة....، بلا هدف، بل لمجرد أن يفرغ طاقته العصبية، وذلك التوتر الذي لا يحتمل. الرجال يسمعون نبضات صدورهم وكأنها أجراس.

بوفيس يهاجم!

كان هناك من يشغل نفسه بالتكهنات: ما هو الاتجاه الذي ستطير فيه ورقة في الهواء، أو الذي سيتخذه طيران عصفور، أو الشكل الذي ستتخذه غيمة في الأفق، ثم يكون توقع أحد الأمرين:

الموت أو النجاة.

عند الظهيرة، كانت الشمس تُغرق الأرض الصفراء فوق هذا السهل الفسيح فتجعل انعكاسات الأشياء ترتعش وكأنها قد وُضعت فوق نار.

بدأ الخمول والنعاس يسيطران على الجميع، بفعل الحرارة، والإنهاك، والأعصاب المرهقة، والانتظار اليائس.

فجأة، انطلقت صرخة متوحشة هزت الجميع:

. ها هم! إنهم قادمون!

من أعماق المنخفض السهلي، كان طوفان بشري يتدفق، مثل حيوانات مطاردة،

مثل اندفاع المياه، فرسان لا حصر لهم، شبه عراة، ألوانهم داكنة مثل خيولهم، شكَّلوا، في هذا الازدحام الكثيف، بقعة واحدة انزرعت فيها رماحهم، التي تلتمع تحت أشعة الشمس.

أوشكوا على الوصول، كتلة متراصة مثل سيل مرعب، كتلة مدمرة جارفة، سبعة آلاف حصان في طوفان يغمرالحقول!

وبعيون تكاد تخرج من محاجرها، شاهدت المجموعة الصغيرة هذه القوة الهائلة، التي لا سبيل إلى إيقافها.

القوة الغازية تطلق بنادقها. بعض الفرسان يتساقطون، ويمر الآخرون فوقهم، ويتابعون.

الطلقات تمزق الفضاء في رعد قاصف رهيب. لم يعد هناك ما يشاهد من المنخفض، ولا من الأشجار، ولا من السهل، فقط تلك البقعة الداكنة، اللامتناهية، وذلك الوابل من الرماح الملتهبة كالحمم.

هكذا، وكموجة هائلة تجرف كل شيء في اندفاعها، هكذا وصل فرسان بوفيس مكتسحين الطرقات، على امتداد السهول واتساعها.

سبعة آلاف رمح من الحديد البارد القاتل!

شاهدهم بيرناردو وروسو دياس وقد وصلوا يفترسون الفضاء بقوائم خيولهم الشبقة.

سنحت فرصة للكولونيل دياس لمخاطبة بيرناردو:

. أسرع إلى الكنيسة! نظِّم الناس!

بالكاد تمكن من سماعه، همز حصانه وانطلق. ومع التفاتة منه، شاهد روسو دياس والضابط الشاب يندفعان في مواجهة الكتلة الداكنة المدججة بالرماح، التي سرعان ما ابتلعتهما.

وصل إلى بوابة الكنيسة، حيث جنود الحراسة الأربعة.

قفز من فوق الحصان وهو يصيح بهم أثناء دخوله:

. بوفيس وصل! أغلقوا الأبواب جيداً!

أطاعوه.

كانت الكنيسة الظليلة غاصة بالناس. الجرحى الواصلون حديثاً يضطجعون على الأرض، المسنون والنساء والأطفال وباقي السكان يجلسون القرفصاء محيطين بالراهب، الذي كان يتوجه بالصلاة من فوق المذبح.

وفي إحدى الزوايا، كانت مجموعة تبتهل إلى الله في صلاة مرتجلة، بطريقة يائسة.

. يا إلهي، الذي في السماء. خلّصنا! خلصنا، يا إلهي!

اخترق بيرناردو الحشد ووصل إلى جانب الإنكليزي، الذي كان ما يزال مستلقياً في نفس الركن.

. لقد رحنا! . صرخ عندما شاهده . لقد انتهينا!

لوّن الخوف وجه الكابيتان دافيد.

. أصبحتُ الآن أفضل . قال.

ثم بذل بعض الجهد وجلس.

بدأت تصل من الخارج صيحات بدائية لحملة الرماح؛ صيحات كتلك التي يطلقها الرعاة لحث قطعانهم واستعجالها.

صيحات في الخارج، وصلوات في الداخل، تتداخل وتتشابك، فيسود مع تنافر أصدائها جو جنوني.

بوفيس يهاجم!

صمت جميع الذين كانوا يصلّون عندما هزت البوابة ضربات هائلة ومتواصلة عصفت أصداؤها بين الأعمدة والجدران الضخمة.

خلخلت الضربات المفاصل الحديدية للأقفال. تجمدت أنظار الجميع على تلك البوابة، التي كانت آخر دفاعاتهم. كانت تفصلهم عن الموت خطوة واحدة.

أخيراً، وبدفعة قوية، انهارت الأقفال وانخلعت دفتا البوابة، واندفعت منهما موجات كاسحة من الرجال. انطلقت صرخة رعب واحدة ملأت المكان. أطلق المهاجمون جحيم أسلحتهم على كل ما كان ومن كان بمتناولهم: ظهور النساء، رؤوس بيضاء لمسنين، واختلطت الأصوات، أصوات الذين يموتون، أصوات الذين يصلّون، أصوات الذين يعوون من الخوف. تأرجحت ثريا ثقيلة، سقطت درفة باب فوق بضعة أشخاص. جثة طفل اندفعت فوق المذبح فتبعثرت الأزهار والشموع.

وفجأة، توقفت كل تلك الموجة الشيطانية المدمرة واتجهت بأنظارها إلى المدخل، وكذلك فعل جميع أولئك الذين غص بهم المعبد.

اجتاز رجل عتبة البوابة فوق حصان أسود، شعره ضارب إلى الحمرة، أنفه معقوف، وفي قبضته القوية رمح.

سُمع صوت رهيب:

. بوفيس!!!!!

واجتاز البوابة خلفه، على الأقدام، نفر من رجال حرس أشداء.

توقف الحصان الأسود في وسط المكان.

التهمه الموجودون جميعاً بنظراتهم وهم يرسمون إشارة الصليب، مرتعدين من الخوف. كان هذا بوفيس. سيد الفرقة الجهنمية، ابن الشيطان، أول رماح السهل.

راقبه بيرناردو ودافيد عن بعد. كان ذا حضور طاغٍ.

ابتسم الفارس وهو يتأمل هذا الحشد. كان يبدو عليه الاستمتاع بحالة الرعب هذه.

شاهد بيرناردو، بين عناصر الحرس، هندياً طويلاً، متغطرساً، رفع حرف قبعته الأمامي قليلاً؛ وذكّرته تلك الملامح بشيء. أجل، بالتأكيد، إنه الرجل الغامض الذي تحدث معهم في تلك الليلة التي سرقت فيها أحصنتهم خلال توقفهم في استراحة ماغدالينو. وتذكّر عبارته: "في الحرب لا يموت إلا الذين يخافون".

التفت بوفيس إلى الرجل الأقرب إليه، وأمره، بصوت منفر:

. أزيحوا من المكان هؤلاء الجرحى والمصابين، ولتعزف الموسيقا!

انخرط الرمّاحون في العمل. أزاحوا الجثث والمحتضرين والرجال الذين يئنون، سحبوهم بأذرع قوية وألقوا بهم، مثل أحجار المقلاع، إلى وسط الشارع.

لم يكن يُسمع غير صوت ارتطام الأجساد المتساقطة على الأرض.

وخلال برهة قصيرة أصبح المكان شبه خالٍ، لم يتبق فيه إلا الذين يقفون على أقدامهم، ومن بينهم الكابيتان وبيرناردو، اللذان تخليا عن المقعد واختلطا بالآخرين.

سرعان ما وصل رجلان يصطحبان معهما عازف غيتار وضارب طبل مع آلتيهما والرعب يملأ وجهيهما.

. ليجلسا، وليبدأ العزف . أمر القائد.

حُشرا في إحدى الزوايا، وباشرا على الفور بإصدار موسيقا صادحة ومتواصلة لتحفيز حركات الراقصين.

. إلى الرقص! إلى الرقص! الجميع إلى الرقص!

جميع أولئك الخائفين، والنساء الباكيات، بدؤوا يتمايلون بحركات متثاقلة

ومتألمة، واختلط بهم عشرات الجنود الغزاة الذين راحوا يأخذون النساء من أيديهن بالقوة ويزجّونهن في دوامة رقصاتهم المحتدمة.

فوق الحصان، ومن خلال الأضواء الملتمعة، كانت الابتسامة الباردة تبرق.

وقف بيرناردو والكابيتان مترقبين وراء أحد الأعمدة، دون أن يرقصا.

. اضربوا بالهراوة! هراوة لمن لا يرقص!

تقدم بعض الرجال واستخدموا رؤوس الرماح لإجبار الجميع على الدخول في ذلك الإيقاع الرتيب.

كان الراهب مختبئاً خلف أحد كراسي الاعتراف، فأُخرج بالقوة.

. هراوة له! ليرقص!

وبعد ضربه، بدأ بالدوران وسط الراقصين.. وملأت الجو ضحكات همجية صاخبة.

داخل المبنى الديني، وسط بقع الضوء المتناثرة، والموسيقا المستمرة في استعادة نغمتها الواحدة، أمام هذا الرجل المتعجرف فوق حصانه الأسود، أخذت تلك الرقصة شكلاً من أشكال الطقوس البدائية التي تقدِّم التمجيد والتعظيم، بالقوة.

كانت الأجساد تتزحزح متثاقلة بحركة متكررة شبه ساكنة، مدفوعة بإيقاعات متشابهة لا نهاية لها، مثل عمليات تعذيب شيطانية.

عثر رجل على بيرناردو والكابيتان.

. ومن أنتما؟

لم يردّا. جَرَّهما بالقوة إلى حيث كان بوفيس.

تأملهما، من فوق، لبرهة، قبل أن يتكلم.

. آها! إذن عندنا صيد؟ من حضرتكما؟

خطر للإنكليزي أن الإجابة بصراحة ستكون هي المخرج الأفضل من هذا المأزق.

. أنا ضابط إنكليزي.

. وذاهب للخدمة مع المتمردين؟

. كنت ذاهباً من أجل ذلك، سيدي، لكن مرضاً منعني.

. ألست راغباً بالعودة إلى أرضك؟

. ليس بعد، سيدي.

حينئذ تدخل الهندي المتغطرس:

. سيدي القائد، أنا التقيت هذين الرجلين في ماغدالينو، وانتهزت الفرصة فأخذت الحصانين اللذين كانا بحوزتهما.

وعلق الفارس ساخراً:

. وتركتهما راجلين. ما أسوأ فعلتك.

ضحك الهندي بصمت.

. حسن . قال بوفيس .، الحرب مسألة قبيحة. ومن لا يُقتل اليوم، سيُقتل غداً. سأوقع بكما العقاب.

ثم التفت إلى الهندي، وأكمل:

. أخرج هذين المتمردين. وأطلق عليهما.

شحب وجها الاثنين لدى إعلان قرار قتلهما، لكنهما استقبلا القرار بطريقتين مختلفتين.

فالإنكليزي أدى التحية وقال:

. شكراً.

أما بيرناردو فكاد ينفجر سخطاً وغضباً. كان الراقصون يمرون بجانبه كالظلال، رجل مسن بدين يكشف عن بطنه من خلال سترته الممزقة، يتأرجح وحيداً، فمه مفتوح ومُتعَب يلتمع بلعابه وأسنانه. كان كل ما هو ممكن وما ليس ممكناً قد انتهى بالنسبة إليه في تلك اللحظة، بمجرد أمر بسيط من بوفيس. لقد قُتل لديه كل شيء. الحلم. العمل. المستقبل. النضال. الوطن. كل شيء انتهى: كاراكاس، بيته، أبواه، فيرناندو، وكل ما لم يكن يراه في الواقع. لم يكن ليبالي لوأنه يموت في الحرب؛ أن يموت وهو يحارب. كان يشعر بالأسى وهو ينتهي بكل بساطة، دون مجد، دون جهد، مديراً ظهره أمام أحد الجدران، أمام ثمانية متوحشين يسددون طلقاتهم إليه. كاراكاس، رؤوس، عيون بيضاء، أفواه مفتوحة، تدور على إيقاع نغم رتيب، ضجيج أقدام فوق بلاط المعبد، تدور وتدور، وعيون، وأسنان، وأشباح صامتة. شعر وكأنه على ضفاف الحلم.

كان يمشي بين اثنين من الجنود.

الحركة مستمرة، متكررة، آليّة. يستمرون بالرقص وكما لو أن مسّاً من الجنون قد أصابهم، كما لو أنهم ساخطون على أنفسهم، كما لو أنهم كانوا يبحثون لأنفسهم عن طريق للخروج إلى الألم.

وعندما سمعوا صوت إطلاق الرصاص، الذي جاء من الخارج ليغمر الكنيسة، ضاعفوا من سرعة دورانهم، راغبين بالسقوط فاقدي الوعي من الدوار، غارقين في بحر نبض أجسادهم.

بعض الرمّاحين راحوا يرتمون فوق النساء فيقبلونهن وينشبون أسنانهم في لحم أكتافهن.

فجأة، صمت الطبل، وتابع الغيتار، منفرداً، متقطّع الصوت، متوتراً.

. ماذا حدث؟

وأوضح صوت أجش:

. صاحب الطبل استولى عليه الخوف، فأَسقطتْ له رأسه.

في ذلك المكان الظليل، فوق الحصان الأسود، كانت ضحكة بوفيس تلتمع.

- ١١ -

انتهت "لاكارباخالا" من غسل المنديل المدمّى، ونشرته على غصن شجرة ليمون تحت أشعة الشمس.

كانت ملامح وجهها تتجاوز حدود الحزن.

عبرت البهو والممر الضيق، وأطلت من البوابة الصغيرة التي تفضي إلى الشارع الذي غمرته شمس الصباح الصفراء، والغبار الأصفر، والجدران الصفر؛ أما الشيء الوحيد المختلف فكان السماء الزرقاء.

الناس قليلون في "غاراباتو". ألقت المرأة نظرة عبر الشارع المقفر، مثلما كانت قد فعلت قبل نصف ساعة، وكما كانت قد فعلت طوال الصباح، نظرت باتجاه المنعطف الأخير، حيث يغادر الطريقُ القرية. نظرت وتنهدت.

عبر ذلك المنعطف كانوا قد ذهبوا، ذهبوا جميعهم، بعد أن أغرقوا القرية الصغيرة بحياتهم الصاخبة المجنونة، تركوها بذهابهم أكثر عزلة من أي وقت آخر، وأكثر هدوءاً، وأكثر صمتاً.

من هناك ذهب، في الصباح، الكولونيل ثامبرانو وبريسينتاثيون كامبوس ورجالهما. لقد ذهبوا، وفقدت الحياة بالنسبة لـ"لاكارباخالا" ذلك المعنى الجديد الذي كانت قد اكتسبته. لم يعد يهمها الآن أن تبقى في قرية، أو أن تعنى بجريح، أو أن تسير عبر الطرقات على بركة الله.

في الليلة الفائتة نام إلى جانبها، وهي لم تفعل شيئاً طوال تلك الليلة سوى النظر

إليه، النظر إليه طوال الليل بعينين تلتمعان بالعذوبة والألم.

أمضيا اليوم السابق يتحدثان، يتحدثان بأمور جميلة طافحة بالآمال، سمعت منه ما لم يسبق لها أن سمعت من أي رجل على الإطلاق.

. سأفعل شيئاً حقيقياً في الحرب، "لاكارباخالا"، وسأقدم إليك الكثير، سأقدم إليك الكثير من أجل أن ترتدي وتمشي مثل قديس في موكب. خلال ثلاث معارك سأكون أنا القائد. ستحصلين على قمصان نوم جميلة، وأطواق، والكثير من الحرير، وأرجوحة فاخرة بمائة بيسو.

لم يكن عليها أن تبذل أي جهد كي تستعيد رؤية كل شيء وسماعه من جديد، إنها تراه وتسمعه كما لو أنه يحصل معها في هذه اللحظة.

كان بريسينتاثيون كامبوس رجلاً، يمتلئ رجولة، وقد أحبته. واستغرقت في تخيلاتها، كانت تعني بالنسبة إليه بالتأكيد ما هو أكثر من الحياة. وعلى أية حال، فالحياة بالنسبة إليه لا أهمية كبيرة لها، ولقد شاهدته بعينيها كيف اقتحم باباً مثل ثور متوحش.

. سأفعل شيئاً حقيقياً في الحرب، "لاكارباخالا"!

في الليلة الأولى، بعد وصولهما إلى "غاراباتو"، أسكنها في خيمته الخاصة. والكولونيل ثامبرانو سلّم عليها باحترام، وجميع الرجال نظروا إليها بأدب: الجنود الثملون، الزنوج الشبقون، الرجال الذين تعودوا اغتصاب النساء، كل هذا لأنها كانت امرأة قائد.

كانت تلك أفضل أيام حياتها. كل ما كانت قد عاشته من قبل وكل ما ستعيشه في المستقبل ليس بذي أهمية بالنسبة إليها. كانا يومين استثنائيين بين كل ما عاشته في حياتها. أصبح لديها شيء رائع ترويه: أينما ذهبت في أيّ من أرجاء هذا العالم، سيمكنها أن تروي للناس، فتدهشهم، أنها كانت امرأة قائد.

منذ رأته للمرة الأولى أدركت أي رجل هو. كان سيداً للرجال. منذ التقته في البهو وهو شبه مغمى عليه فوق حصانه، بوجهه الذي كان يغتسل بالدم، وضمّدته بذلك المنديل الذي يجف الآن فوق شجرة الليمون، عرفت من يكون. منذ رأته يغمد رمحه في خاصرة ذلك الهارب، وبعد ذلك، عندما جاء الكولونيل وقال: "هذا الرجل تصرف كبطل". ثم، عندما طلب إليها أن تروي له قصة حياتها.

لكن كل هذا الشيء الرائع تحطم فجأة. تفكر "لاكارباخالا" بكل هذا فتعصف بها موجة من الغضب. لقد كان حظها سيئاً. في الصباح وصل ذلك الرجل على حصانه، تحدث قليلاً مع الكولونيل ثامبرانو، ثم مضى. لقد رأته جيداً عند مروره: رجل قبيح الوجه، لا يمكن أن يجلب إلاّ الأخبار السيئة.

وقال لها بريسينتاثيون كامبوس نفسه:

. نحن ذاهبون. لكنك ستبقين. ذاهبون للقتال! انتصر الجنرال بوفيس في البوابة، وهو ذاهب لمهاجمة لافيكتوريا. عندما سنحرز الانتصار، سأعود إليك. ليس أمامنا سوى أن نهزم هذا الصعلوك "بوليفار".

كان الشيء الوحيد الذي يعترض سبيل سعادته هو هذا الـ"بوليفار". لا بد وأنه إنسان سيّئ. يمضي إلى الحرب مستمتعاً بأن لا يبقى الرجال مرتاحين في بيوتهم. هذا سمعته "لاكارباخالا" منه، وسمعته يقول أيضاً إنه قد حقق ثروة كبيرة عن طريق النهب والسلب. كيف يمكن أن يوجد رجال على هذه الدرجة من السوء؟ لكنْ لديها إيمان بأن بوفيس وبريسينتاثيون كامبوس سيهزمانه، سينتهيان منه، وربما أنها قد تصبح سعيدة.

كانت "لاكارباخالا" حزينة.

في الصباح غادرت القوة، رأت الرجال يتجهون شمالاً حيث الأراضي التي تشتعل فيها الحرب. لقد ذهبت القوة. ذهب بريسينتاثيون كامبوس. كيف خطا الحصان بتلك الرشاقة! لقد أصبحوا عند نهاية الطريق، أصبحوا على الجانب الآخر من القرية،

لم تعد تراهم، لقد حصل هذا فقط كي تصبح امرأة حزينة.

كانت تلك أجمل أيام حياتها منذ أن غادرت قريتها في السهل العالي. عندما كانت فتاة شابة، لم تحصل على أية متع حقيقية، لم تجد نفسها إلا على الطرقات، أو في إحدى القرى تعمل أو تبيع للرجال، ثم تعود إلى الطرق، ثم إلى قرية أخرى، ثم إلى طريق آخر.

هي الآن في لحظة عودة إلى تلك الحالة. إنه لن يعود. لكنه قال إنه سيعود.

إن رجلاً بمعنى الكلمة لا يمكن أن يكذب، لكن.... الأفضل ألاّ تفكر بهذا الأمر....

ماذا لو قتلوه.... لو تمكن من قتله رجال عصابات بوليفار.... ولم تستطع "لاكارباخالا" مقاومة البكاء.

جلست ساكنة قبالة الطريق المنعزل والوحيد لـ"غاراباتو"؛ ليس هناك أي إنسان، ولا أي ظل، ولا أي حيوان، حتى أوراق الأشجار غرقت في السكون.

ولأن الشارع كان خاوياً، فقد استرعى انتباهها الشخص الوحيد الذي برز هناك، عبر الأرض الصفراء ونقاء أشعة الشمس.

كانت امرأة متسولة، ترتدي أسمالاً قذرة، وتنتعل بقايا حذاء جميل، ذراعاها عاريان، وفي وجهها آثار حرق فظيع مثير للاشمئزاز اتخذ لوناً وردياً شوه كامل الجلد من الأذن وحتى الفم، كانت كأنها جريح.

شعرت "لاكارباخالا" بالتعاطف معها، أو بالفضول، أو بالأمرين معاً.

نادتها من مكانها عند الباب بصوت لطيف:

. تعالي إلى هنا أيتها الأخت، إن أحببت، لترتاحي قليلاً وتتناولي شيئاً.

اقتربت المتسولة لدى سماعها أحداً يحدثها، فبدت ملامحها بصورة أكثر

وضوحاً. كانت ستبدو جميلة لولا أثر هذا الحرق المشوِّه، عيناها سوداوان وعميقتان وجميلتان جداً، وفي حركاتها شيء خاص من الرقة.

أخذتها من يدها وأدخلتها. قدمت لها كرسياً قماشياً. كان في مشيتها وجلوسها، وحتى في التعبير الصارم في عينيها، شيء من الآلية وعدم التوازن، وربما بعض الجنون.

سألتها "لاكارباخالا":

. أتريدين أن تشربي شيئاً؟

لم تجب.

. أتريدين أن تأكلي شيئاً؟

لم تبد أية إشارة، كانت كما لو أنها لا تسمع شيئاً.

في كل الأحوال، جلبت لها قدح ماء بارد وقطعة جبن.

شربت المتسولة قدح الماء بجرعة واحدة وأكلت هذا الطعام القليل بنهم. ثم عادت إلى الدخول من جديد في نفس حالة السكون.

جلست "لاكارباخالا" قبالتها.

. من أين جئت؟

وهذه المرة أيضاً لم تجب. أثار هذا السكون وهذا الصمت أعصاب "لاكارباخالا" وكاد صبرها ينفد. تحدثت في الموضوع الذي كان يشغل بالها أكثر من غيره.

. آي، آي، أيتها الأخت، نحن النساء بائسات جداً!

وافقت المتسولة بهزة من رأسها.

. آي، أيتها الأخت، . تابعت "لاكارباخالا" . قولي لي، هل تعلمين أنّي منذ أن

وُلدت لم أفعل شيئاً سوى أن أتلقى العصي.. إن قلتُ نعم..، والعصي إن قلتُ لا، العصي هي الشيء الوحيد الذي كنت أتلقاه.

تنهدت المتسولة.

. آي، أيتها الأخت، لا تظني أنّي لا أتعاطف معك وأنا أراك قد عوملت بهذه الدرجة من السوء! فيما يتعلق بك، الأمر ظاهر، أما فيما يتعلق بي فليس ظاهراً، لكنّي عانيت، وعندما اعتقدت أخيراً أنّي قد ارتحت،.... ماذا أقول لك؟ هكذا هم الرجال. لا يعجبهم ما هو لديهم. عندما يكونون مرتاحين، يريدون العمل، وعندما يحصلون على العمل، يريدون الحرب......

تكلمت المتسولة، وقد تبدل تعبيرها الساكن واللامكترث إلى كدر وتوتر عميقين، كان صوتاً نبعَ من نبض روحها:

. أين هو؟

صمتت "لاكارباخالا" للحظات، حائرة مشوّشة لدى سماعها السؤال. لكن، وبسبب الآلية البسيطة لتفكيرها، وبدافع غير واع، نسيت كون هذا السؤال قد جاءها من امرأة غريبة وصلت لتوها. ودون أن تراقب مشاعرها، التي أفصح عنها قلقها:

. آي، يا ابنتي! رجل وسط الحرب، لا يعرف الشيطان أين يتوقف. الليلة الفائتة كان معي....؛ اليوم....، اليوم.... يمشي وسط الحرب.

. أين هو؟ . عادت المتسولة إلى السؤال بنبرة ثابتة.

أحست "لاكارباخالا" للمرة الأولى بأن الصوت قد اختلف، لاحظت الإلحاح الغريب، من هذه المرأة الغريبة.

. من هو؟

. هو....، هو....، بريسينتاثيون كامبوس. أين هو؟

سيطرت عليها المفاجأة. متسولة لم تشاهدها من قبل على الإطلاق، قادمة من حيث لا يعرف سوى الله، استقبلتها هي بيدها، والسؤال الوحيد الذي سألته كان هذا.

كررت المتسولة سؤالها ثم عادت لتغرق في صمتها.

اشتبهت في أنها ربما تكون جاسوسة. لكن، لا، لو أنها فعلاً كذلك لما طرحت سؤالها بهذه الطريقة غير الملائمة. دار في ذهنها ألف احتمال، ولم يقنعها أيٌّ منها، لم يستطع واحد منها أن يفسر لها هذا التصرف، الذي هو بالنسبة إليها على درجة كبيرة من الإبهام والغموض. تظاهرت "لاكارباخالا" بعدم الاهتمام، وسألت من جديد:

. من هو؟

. بريسينتاثيون كامبوس. في كل قرية مررت بها كانوا يقولون لي إنه في القرية التالية، وفي القرية الأخيرة قالوا لي إنه في "غاراباتو".

. لماذا تبحثين عنه؟

. أين هو بريسينتاثيون كامبوس؟

. لأي سبب تبحث عنه امرأة سيئة مثلك؟

. لا! أنا لست امرأة سيئة. أنا فتاة طيبة. فتاة جميلة.

وكأنها أرادت أن تؤكد ما تقوله، فمرت بيدها على خدها، لكن أصابعها توقفت فوق مكان الحرق.

. لا! كنت جميلة. الآن لم أعد كذلك! كنت جميلة. الآن لا! الآن أنا قبيحة؛ حتى أن المتسولين على الطريق كانوا يشيحون بوجوههم مذعورين.

أرادت أن تعبّر لها عن تعاطفها وأن تواسيها.

. لا، ما هذا الكلام! الأمر ليس كذلك. أنت مصابة بحرق كبير، هذا صحيح؛ لكنّ أثره سيزول مع الزمن، وأمر كهذا لا يجوز أن يثير أي انزعاج.... لا تقولي هذا

يا ابنتي.

ودون أن تعير أي اهتمام لما تسمعه، تابعت:

. وإضافة إلى ذلك كنت غنية، كان لي أخ، أخ جيد، وعبيد، وأراضٍ. وكل هذا فقدته...

وانخرطت بالبكاء. انهمرت دموع غزيرة من عينيها الرائعتين السوداوين فوق البشرة الفظيعة.

تأثرت "لاكارباخالا"، تألمت، وساعدها عذابها على فهم ما تعانيه الأخرى.

أحست بأنها تكاد تنخرط مع المتسولة بالبكاء.

. لا تيأسي يا ابنتي! اعلمي أن النساء لم يخلقن إلاّ لكي يعانين.

وبعد أن صمتت قليلاً، أضافت:

. من هو الذي لم تخدعه ولم تطحنه هذه الحرب الملعونة؟!

تابعت الأخرى ما كانت قد بدأت به:

. ما أريده هو أن أعثر عليه. لا يهمني كثيراً أن أحيا أو أموت. الأمر الوحيد الذي أريده هو أن أعثر عليه. وأينما عثرت عليه سأقتله، سأقتله بمخرز طويل، أغرزه في قلبه.

. يا يسوع، ابنتي، لا تقولي هذا!

. كل ما سأفعل به سيكون قليلاً. لقد قضى على حياتي، وبيتي، وكل ما أحببته في هذا العالم. كيف أضرم النار! وأنا كنت أصرخ، أصرخ، أصرخ. لم يسمعني أحد، لم يساعدني أحد! أضرم النار في الأبواب، في النوافذ، في الستائر، في الأشجار، كان كل شيء يحترق!.

أدركت "لاكارباخالا" حجم الآلام الفظيعة لهذه المرأة التي تتحدث، التي حُطمت ولم يأت أحد للدفاع عنها.

. وكان هو، عبدي، كلبي، الذي اعتدى عليّ، مزق ثيابي بيديه المتوحشتين. يا إلهي! يا إلهي! أضرم النار في بيتي، في أملاكي، دمّر لي كل شيء، افترس جسدي. بعد كل ذلك، ما الذي يمكنني أن أفعل في هذا العالم؟ أهرب.. أذهب حيث لا يراني أحد...، حيث لا يعرفني أحد..، حيث لا أحد يمكنه أن يأتي كي يبحث عني. أنقذتُ نفسي من الحريق، نصف عارية، مضيت، مضيت، مضيت حيث قادتني قدماي، دون أن يراني أحد، حتى ولا العبيد، حتى ولا الحيوانات، لا أحد. أحسستُ بحمّى الاحتراق في وجهي دون أن أراه، إلى أن التقيت أول العابرين ورأيت في وجهه أول حركة اشمئزاز، ثم كان الأمر نفسه مع كل من التقيتهم. شيء فظيع.

شعرت الأخرى بمدى فداحة هذا التصرف الهمجي المدمر.

. يا يسوع!

. ليس لي الآن أي هدف آخر، ليس بإمكاني أن أستقر في أي مكان. لا أعيش الآن إلا لكي أنتقم لنفسي.

. آي، يا طفلتي!

. كان بيتي جميلاً، هادئاً، البيانو..، ركن الصلاة...

لم يكن بكاؤها يتوقف للحظات، حتى يعود لينفجر ألمًا، وعويلاً تمزقه كلماتها.

. والكابيتان دافيد يقول: "آنسة إينيس، اعزفي لنا لحناً خفيفاً". أما الآن فأنا مجرد مخلوق مخيف. أين هو؟

وسألتها "لاكارباخالا"، دون تبصر:

. من؟

. الخائن، الجبان، بريسينتاثيون كامبوس. أنت تعرفين أين هو. أنتِ رأيتهِ. قولي لي أين هو كرمى لله! قولي لي ذلك!

رسمت "لاكارباخالا" إشارة الصليب فزعةً. بريسينتاثيون كامبوس فعل كل ذلك؟!

لا يمكنها أن تصدق حتى ولو كان هذا حقيقة، لا يمكنها أن تصدق حتى ولو كان هذا قد حدث، هذا ليس صحيحاً.

. كيف شكله؟

. داكن اللون، ضخم، قوي، متغطرس.

الإشارات صحيحة. تكاد "لاكارباخالا" تراه، فهي تتذكره أسمر، ضاحكاً، بطلاً. لم تستطع أن تتصوره يتصرف بسوء مع امرأة، وأن يحرق منزلاً، وأن يكون عبداً غدّاراً. كانت تريده، كانت معجبة به، لا تستطيع أن تتصوره سيئاً ووغداً. ومع ذلك، وعلى الرغم من أنها كانت تجهد من أجل تثبيت قناعتها والإبقاء عليها عميقة في روحها، كان شيء ما في داخلها يقاوم ولا يشاركها هذه القناعة، ويدفعها إلى إمكانية الظن بأنه ربما كان فعلاً مرتكب تلك النذالة.

أصبحت المتسولة تتحدث الآن بصوت أكثر ارتفاعاً، بما يشبه الصراخ؛ كانت تتوسل إليها:

. إن كنت تعرفين، قولي لي، كرمى لمن تحبين! أين هو؟ قولي لي! سيكافئك الله!

كانت تتوسل إليها، بصوتها، بجسدها الذي اعتُدي عليه، بأسمالها المتسخة، بأثر حرقها المرعب، بعينيها التعِستين والملتهبتين. كان كل شيء فيها يتوسل.

شعرت "لاكارباخالا" بالقلق، تخوفت من أن ينتصر لديها التعاطف. لقد آلمتها مأساة هذه المرأة المسكينة، لكن، في الوقت نفسه، كيف لها أن تتمكن من مساعدتها.

ليس لهذه المرأة من هدف غير إيقاع الأذى بالشخص الوحيد الذي تحبه في هذا

العالم.

أوقعتها هذه المشاعر المتناقضة في حالة من التشوش والارتباك.

أخيراً، وكما لو أنها راحت تحاول محاكمة الأمر أمام نفسها:

. جميع الرجال سيئون يا ابنتي، وماذا يمكننا نحن أن نفعل سوى أن نتحملهم. الواحدة منا لا تأتي إلى هذه الحياة إلا من أجل أن تكون في خدمة الرجل. وفضلاً عن ذلك، فلديهم أيضاً ساعاتهم السيئة التي تجعلهم يرتكبون إساءات، وأن يفعلوا أموراً بشعة دون إرادة منهم. أحياناً لديهم أسبابهم، التي قد لا تعرفها الواحدة منا. من يمكنه أن يعرف لأي سبب تمرّد كامبوس؟

كانت المتسولة تستمع باهتمام. ودفعها تبرير الجريمة هذا إلى المزيد من الاشتباه في أنّ "لاكارباخالا" ربما تعرف أين هو ولا تريد أن تقول.

لكنّ "لاكارباخالا" كانت تتابع:

. هل تظنين، يا ابنتي، أن الأمور تجري لأسباب إرادية؟... إذن،.. أترين!

ثم أضافت، بصورة هذيانية:

. لا يا ابنتي، لا يجوز أن نرى الأمور هكذا. حتى ورقة النبات لا يمكنها أن تتحرك دون إرادة الله.

. كيف يمكنك أن تتحدثي عن الله للدفاع عن فضيحة بهذا الحجم؟ . ردّت بغضب ..

أمام تلك الإشارة إلى الاسم الإلهي، شعرت "لاكارباخالا" ببعض الخوف. أدركت أن الله قد يعاقبها لأنها استخدمت اسمه لأمور غير نظيفة، وأضعفَ هذا القلق من تماسك موقفها.

. أنت امرأة سيئة، امرأة كاذبة . صرخت المتسولة .، تخدعين امرأة بائسة كي

تدافعي عن رجل سيّئ. أنت تحالفين الشياطين ضد الملائكة.

بدأت "لاكارباخالا"، التي أقلقها خوفها، بالدفاع عن نفسها ضد هذه الاتهامات.

. يا يسوع، ابنتي، لا تقولي هذا! أنا لم أفعل شيئاً، فلماذا تريدين بي السوء؟

عادت المتسولة إلى البكاء، الذي أصبح نحيباً متشنجاً غاضباً:

. أنت امرأة سيئة، وسوف يعاقبك الله! ألم يحزنك أن تريني على هذه الحال؟ أنت تعرفين أين هو. لقد رأيتِه عندما غادر. قولي لي، كرمى لله، قولي لي!

. كيف لي أن أعرف!

لكن، بعد صمت قصير، ومع تصاعد الخوف في روحها، قررت أن تقول:

. شاهدت قوة تغادر. لكن كيف تريدينني أن أعرف أسماء جميع الذين غادروا؟ إنهم مجموعة كبيرة من الرجال الذين لا أعرفهم.

. أنت رأيتِه. أين هو؟ أين هو؟

حينئذ، وقد وجدت "لاكارباخالا" ثغرة يمكنها من خلالها أن تنقذ نفسها من الغضب الإلهي، دون أن تغدر برجلها، سألت، متظاهرة بعدم المعرفة:

. لكن، قولي لي، كيف شكله كي أرى إن كنت أتذكر؟

. هو؟ بني اللون، ضخم، عريض الجبين، ذو ضحكة بلهاء.

تظاهرت "لاكارباخالا" بأنها بدأت تتذكر:

. آها! أجل، أجل، عريض الجبين، آها!.... كان دائماً على ظهر حصانه.آها! هذا هو! أجل، أظن أنّي رأيته. هو حنطي!

. أجل، هو، هو. إلى أين ذهب؟

وتابعت "لاكارباخالا"، محاولةً الدفاع عن نفسها بطريقة مراوغة:

. هم لم يتوقفوا في القرية، يا ابنتي. أنا لا أعرف بالضبط إلى أين ذهبوا؛ كل ما يمكن لي أن أقوله لك هو عن الاتجاه الذي اتخذوه.

اعتقدت أنها بذلك لن تغدر به، فلو التقت به المتسولة، سيكون الأمر، بصورة ما، عن طريق الصدفة، وبإرادة الله.

نهضت، أخذت المرأة من ذراعها.

. تعالي معي. سأريك من أين غادروا.

أكثر ما كانت تتمناه هو أن تتخلص من رؤيتها. أن ينتهي من أمامها هذا الحضور المرعب، والمزعج، والمهدِّد.

. تعالي معي.

نهضت المتسولة ومشت خلفها مع ابتسامة رضا كشفت عن أسنان صغيرة داخل الفم المشوّه.

سارا في الطريق باتجاه مخرج القرية. مشت "لاكارباخالا" في الأمام، صامتة. راحت تتذكر بريسينتاثيون كامبوس، وحضوره الواثق والقوي، ووجهه المتسلط، وكلماته التي تبعث الأمل: "سأفعل شيئاً حقيقياً في الحرب، لاكارباخالا".

والآن هي ذاهبة لكي تخدعه، لكي تشي به أمام أكثر من يكنّ له الكراهية في العالم. من هذا الطريق نفسه خرج واضعاً ثقته بها، وهي الآن تخدعه.

وصلتا إلى حيث يتفرع الطريق إلى اتجاهين، واحد اتخذته المجموعة، يمضي نحو الشمال، إلى المناطق الساحلية، إلى البحر. والآخر إلى الجنوب، نحو السهل، إلى الـ"أورينوكو"، إلى الغابات.

نحو الشمال عبر بريسينتاثيون كامبوس، باتجاه "لافيكتوريا".

أمامها الآن الوجه البنفسجي.

وبحركة عنيفة، اتجهت ذراع "لاكارباخالا" إلى الجنوب، وقال صوتها، دون أن يرتعش.

. من هناك!

قبّلت المتسولة يدها، ومضت في الاتجاه الخطأ، حيث الأراضي المترامية.

شاهدتها "لاكارباخالا" وهي تبتعد، شاهدتها تمضي، وحيدة، في الطريق المتجه إلى الأراضي الصفر، التي تغمرها الشمس الصفراء، تحت السماء الزرقاء.

- ١٢ -

عبْر النافذة المقوسة، تملأ الإطلالةَ كتلةُ الجرس، بلونها المائل إلى الخضرة؛ ورأسُ الحارس المشعث الشعر الذي يطل إلى جوارها وهو ينظر بقلق. في الأسفل طرقات تحف بها الأشجار؛ وسقوف، وساحة لافيكتوريا؛ أما في الجهة المقابلة، فيبدو الوادي المنبسط بأراضيه المزروعة، والنهر، والمرتفعات التي تتمركز فوقها المدفعية.

وسط البيوت، وبين الأشجار، تتأهب القوات للقتال. وباتجاه مركز المدينة، تجمُّعٌ كثيف للجنود؛ ضباط يمرون مهرولين ينقلون الأوامر، وفي منتصف الساحة سارية رُفعت عليها راية صفراء، ينتصب إلى جوارها الجنرال ريباس فوق حصان أبيض ذي قوائم سود.

هجوم الملكيين متوقع بين لحظة وأخرى، وفيرناندو فونتا يتنقل وحيداً وسط كل تلك الحركة، مع نفس الخوف، ونفس فقدان الهمة، اللذين كانا يجتاحانه في "لافيّا"، بل، وبصورة أشد هذه المرة.

بوفيس يتحرك لمهاجمة "لافيكتوريا"، بقسوته المدمِّرة.

كان فيرناندو قد أصبح على علم بالمصير المأساوي الذي لحق بجميع من تركهم: بيرناردو، الذي أُعدم رمياً بالرصاص؛ الكابيتان دافيد، الذي أُعدم أيضاً رمياً بالرصاص؛ الكولونيل روسو دياس، الذي قُتل في المعركة. كان من السهل جداً أن تنتهي حياته خلال تلك الأيام.

صحيح أنه فَرَّ من "لافيّا" إلى "لافيكتوريا"، لكن الأشباح المرعبة ظلت ترافقه. كان يدرك مقدار جبنه لفراره من مواجهة بوفيس، لكن الحياة، كما يبدو له، تستحق أن يبذل كل جهد من أجل الدفاع عنها.

في "لافيكتوريا"، نُظر إليه بشيء من عدم الثقة.

لم يُستقبل قدومه بارتياح. الجنرال ريباس نفسه، لدى تسلمه الأوراق التي بعث بها إليه روسو دياس، والتي هي ليست بذات أهمية، لم يستطع مقاومة شكوكه في أن ذلك كان مجرد عذر لتغطية هربه. ولم يتم إلحاقه بأية مجموعة، بل أُبقي عليه مرتبطاً بصورة مباشرة بالجنرال.

كان ذلك اليأس الجارف الذي دفعه إلى الانخراط في الحرب قد بدأ يخمد. لقد تبدل الشيء الكثير في أعماقه، حتى أن ألمه لفقدان أخته ودمار الـ"آلتار" أخذ يتراجع. أصبح بإمكانه أن يتصور، وبسهولة، أن لا شيء كان موجوداً في الأصل، وعلى هذا المنوال راح يرتب لنفسه عزاءً لا مبالياً.

لكن الموقف الآن عاد يضغط عليه من جديد؛ فقد أصابه موت صديقيه في الصميم، ليس فقط بسبب الألم لفقدهما، بل وأيضاً لشعوره بأنه سيكون الضحية القادمة التي اختيرت لمتابعة خطوات ذلك المصير القاتل، وأنه يشكل واحداً من مجموعة أشخاص، لابد بالضرورة وأن تشكل سلسلة واحدة من الضحايا، وهو يعيش الآن يومه الأخير. عندما وصل إلى "لافيكتوريا" أحس بالارتياح، شعر بأنه قد نجا؛ لكن، بعد أن عرف ببدء هجوم الملكيين، تجدد عذابه. عاد إلى الصلاة، مثلما كان يفعل في السابق، عسى أن تدفع العناية الإلهية بـ "بوفيس" إلى اتجاه آخر.

كانت الهواجس تملؤه بين أولئك الناس الغاضبين والراغبين بالقتال، وكان هذا يزيد من إحساسه بالوحدة وبالخطر.

تجوّل في مختلف أرجاء الموقع الدفاعي أملاً في أن يلتقي أحداً يعرفه ويمكنه التحدث إليه ويجد عنده بعض العزاء.

كانوا قد أقاموا، على عجل، التحصينات والمتاريس عند تقاطع الطرق. رجال ذوو خبرة يقومون بإعداد المدافع، وآخرون تفرغوا لتهيئة الحيوانات، أو لتفقد سلامة المعدات. بعضهم أخذ يجرب قوة مقابض الرماح على جذوع الأشجار، وبعض آخر

جلس القرفصاء ضمن حلقة، يتبادل الحديث. كانت وجوهاً متجهمة، وملامح يرتسم عليها ترقب المعركة والموت.

في إحدى الزوايا، فتيان يتلقون من رجل ثرثار شرحاً حول كيفية استخدام السلاح. البندقية تُمسك بهذا الشكل، انظروا، أخمصها على الكتف، هكذا، لكن بقوة وبعزم! آه، تمام!.

كان الفتيان، المندهشون، يحركون الأسلحة طائعين وبصورة يتجلى فيها انعدام المعرفة، وبأيدٍ ضعيفة تفتقر إلى أية عزيمة. تذكَّر فيرناندو مرحلة دروس "روسّو"، والجمهورية؛ ثم لينتهي أخيراً هنا، للدفاع عن الجمهورية، وعن كل ما كان متحمساً له في السابق. كان ذلك اليوم حاسماً. بوفيس قد يدمر البلاد التي ولدت حديثاً. لماذا لم يكن الجنرال بوليفار هناك؟ كان فيرناندو يود لو يراه، إنه يعرفه فقط من خلال سمعته؛ لكنه يشعر في أعماقه بأن وجوده هناك كان من شأنه أن يبث ثقة حقيقية لدى الجميع.

انطلقت، بالقرب منه، أصوات صخب مجموعة من الهنود، ذوي بشرة مائلة إلى الاخضرار، وريشة "غواكامايا" [١] يزدان بها الشعر الأملس، يرتدون ألبسة خفيفة، ويعلقون الأقواس والسهام على ظهورهم. إنهم هنود، لكنهم فنزويليون أيضاً. كان مظهرهم مثيراً للفضول وهم يتصايحون بلهجتهم الخاصة ويزدردون الـ"آغوارديينته" بجرعات كبيرة. انتبه أحدهم، وكان يقف في الوسط، إلى أن شاباً يراقبهم، فتقدّم منه:

. أنا "كواترو رياليس"، زعيم هؤلاء الناس. هل تريد أن تشرب؟ الـ"آغوارديينته" جيد للقتال.

١(Guacamaya) نوع من الببغاء. . المترجم .

تناول فيرناندو بعض الجرعات، فهبت في دمه موجة حارقة. شكر الهندي، وبقي قريباً منه فوق حصانه.

هبطت من المرتفعات أصوات طبول وأبواق مزقت الأجواء فوق المدينة القلقة؛ كان بينها صوت يضج بصورة متسارعة، ليتناهى من ثم بنغمات طويلة بطيئة ومؤثرة.

كان الحارس يمسح المكان بنظره: المرتفعات، المدينة، الوادي؛ عندما رأى في عمق الوادي مجموعة كبيرة من القوات المعادية تقترب ببطء على جبهة متماسكة وعريضة.

ومن فوق المرتفعات، شاهد رجال المدفعية قطعة السهل التي كانت تمشي. وفوق الأسطح كان الرماة المتربصون يراقبون هذه البقعة التي انقسمت إلى عدة مجموعات.

كانوا جميعاً يراقبون.

نادى الهندي "كواترو رياليس" رجاله السكارى بصفير يشبه زقزقة العصافير لدى رؤيته تلك المجاميع التي تتقدم؛ التي شاهدها أيضاً فيرناندو، الواقف إلى يمينه.

وعلى مسافة قريبة، كان الفتيان المتدربون صامتين، يحملون البنادق، وتلتمع عيونهم الطفولية العجيبة وهم يشاهدون بذهول عاصفة الرجال التي هبت.

ووسط الساحة التي تتوسطها الراية الصفراء، كان الجنرال ريباس يطلق أوامره، وهو يتابع هذا الهجوم الذي يستمر تقدمه.

كانوا جميعاً يراقبون.

في المقدمة، وفوق حصان أسود، تحت ظل راية حمراء، أطل بوفيس، بشعره المائل إلى الحمرة، وبالقرب منه، هندي صامت يمتطي حصانه، وبعيداً عنهما قليلاً إلى اليمين، جمع كبير من الفرسان، وإلى اليسار جمع كبير آخر من الفرسان، وإلى الخلف جمع كبير ثالث من الفرسان، وفوق جميع الرؤوس يسطع بريق الرماح مثل

نجوم حطت على الأرض.

وبعيداً عن الرماح، مزيد من الأحصنة، ثم، مزيد من الأحصنة ومزيد من الرماح، ثم الكولونيل ثامبرانو، وإلى جانبه بريسينتاثيون كامبوس.

كان زعيق الأبواق يغمر كل شيء، وهدير صيحات تنطلق بين الفينة والأخرى فتتقاذف أصداءَها التلال.

وفجأة، انطلقت من ذلك الجمع الكثيف كتلة متماسكة تقدمت مسرعة؛ اجتازت الأرض الخالية، ووصلت حتى البيوت الأولى عند مداخل الطرقات. وفوق تلال "لافيكتوريا" هدرت المدفعية برعودها.

أمطر رماة البنادق الجو بأزيز طلقاتهم. تساقط الفرسان وانطلقت الأحصنة مذعورة. جاء سيل آخر عاصف من المهاجمين، وترنح فرسان وأحصنة في دوامة مذهولة تحت صليات نيران الرماة.

ثم، وشيئاً فشيئاً، أصبحت المدينة مطوقة، واندفعت سيول من الفرسان في موجات تلفّها غيوم الغبار وتعصف فوقها صيحات تصم الأسماع، واخترقت كتل متراصة متلاحقة جميع الطرقات في وقت واحد لتقتحم تحصينات ومتاريس مركز المدينة.

كان الجمهوريون يردّون بصليات نارية كثيفة ومتواصلة من خلف التحصينات والمتاريس. وسرعان ما اختفى وجه الطريق تحت أجساد رجال وأحصنة، كانت تداس من قبل الآخرين، الذين كانوا يتساقطون بدورهم، ثم لتصل موجات أخرى.

السيل جارفٌ من جميع الجهات، والمدافع تمزق الأجواء.

كان هجوم الفرسان يتصاعد من أعماق الطرقات حتى المتاريس، واندفعت الأحصنة تقفز من فوق المتاريس لتأخذ بصدورها العريضة الحراب المشرعة والرجال الذين يشهرونها.

استنفدت الهجمات المتتالية، التي لم تنقطع، كامل الذخيرة، وأدرك الجنرال ريباس حراجة الموقف وأن خطوطه الدفاعية لابد وأن تنهار في نهاية الأمر لتبقى فقط الأجساد العزلاء تحت الأشجار، فلم يقدم على إخراج الأحصنة خوفاً من أن يضحّي بها دون طائل.

أصبح المكان محاصراً بالكامل. بدأ المدافعون يقيمون وراء كل متراس متراساً آخر كي يحتلوه عند التخلي عن المتراس الأول، والأحصنة مستمرة في اقتحام المتاريس بأجسادها فتنزلق فوق دمائها التي غطّت كل شيء.

إلى جانب الجرس ذي اللون المائل إلى الخضرة، في أعلى البرج، كانت عينا الحارس تتابعان الهجوم المحكم مثل قبضة اليد، المندفع نحو المتاريس، والذي يزداد اندفاعاً.

لكنه، وفجأة، شاهد على الطرف الآخر من الوادي، وتحت راية صفراء، قوّة هائلة من الفرسان، تزحف على امتداد الجبهة لمهاجمة الملكيين.

كان لابد للقوات الملكية التي تهاجم المدينة، كي تتمكن من مواجهة القوة الزاحفة الجديدة، من تخفيض كثافة هجومها الأساسي.

لفت ما يحصل انتباه الحارس، وانتباه الرجال فوق الأسطح، كما لفت انتباه ريباس، فأعطى أمراً سريعاً:

. أخرجوا الأحصنة.

وبأقصى سرعة، امتطى الرجال أحصنتهم، قفزوا وشقوا طريقهم الى ساحة المواجهة.

اندفعت من أسوار المدينة مجموعة كبيرة من الفرسان في هجوم خاطف، امّحت الأرض، وتحولت إلى ساحة تغطيها القوات المتشابكة المتداخلة. رماح وقوائم خيل تتزاحم وتتحرك بصعوبة. رمّاح على حصانه يقتحم فارساً معادياً ويلقي به أرضاً تحت

سنابك حصانه. وآخر يسدد رمحه بين عينين ملتهبتين. وثالث يردي رجلاً مترجلاً ويمر فوق جسده.

كان الدم يسيل على الرماح ليصل إلى المقابض ويتخثر بين الأصابع، أو يتسرب عبر الأذرع المشدودة ويصل إلى الأجساد لينسكب غاسلاً ظهور الأحصنة التي تنطلق عمياء في تلاحق محتدم، وفي مواجهتها أحصنة أخرى تشبّ، تتحطم، تسقط فوق ظهورها وتسحق فرسانها، تدوس بقوائمها فوق الرؤوس، وتخترق النصالُ الرقاب لتبقى الأقدام معلقة بالركاب، فتجر الجثث التي تتسحق بين الأحجار.

كان الهنود قد شربوا كل الـ"آغواردييننته"، و"كواترو رياليس" مستثار إلى درجة مرعبة، خرق لسانه بسهم وخضّب وجهه بالدم وأصبح كمن يضع قناعاً شيطانياً، وإلى جواره هندي ثان خرق لسانه بسهم هو الآخر وخضّب وجهه، وثالث، ورابع.

نظر فيرناندو إليهم مضطرباً، حائراً. رآهم يشهرون أقواسهم وسهامهم المزدانة بالريش، ويندفعون صائحين، وسط حشود الفرسان الكثيفة.

اندفعت من السور مجموعات جديدة من حملة الرماح باتجاه الوادي، واخترق هجومهم صفوفاً عريضة من الفرسان، وبدأ التماع الرماح يغيب، لم يعد يظهر فوق الرؤوس؛ أصبح الآن على ارتفاع الصدور، والصراخ يعلو ويصطخب. سقط كثيرون بالطعنات، وآخرون ذهبت الطعنات إلى خيولهم، فتأرجحوا فوقها قبل سقوطهم الدامي.

حملة رماح جمهوريون تقدموا للاشتباك مع أجنحة القوات الغازية على الجانب الآخر من الوادي، وفي الوقت نفسه، توغلت مجموعات من الفرسان الملكيين عبر طرقات المدينة؛ فتلقّت وابلاً من الرصاص من أحد الجوانب، ووابلاً آخر من الأمام، وثالثاً من فوق، لتصل الخيول وحيدة.

كان الجنرال ريباس يتنقل من طرف إلى آخر. شاهد جميعُ المقاتلين وجهه شاحباً ومرعِباً. هجمات خاطفة لفرسان بوفيس وصلت حتى الساحة وشاهدته عن قرب. فكّر البعض في عمل جنوني: اختراق جميع الأنساق والقضاء عليه بضربة

رمح. لكن، لم يكن يصل إلى الساحة سوى خيول بلا فرسان، والدم الطازج يغطي سروجها: دم العدو، مع دم الصديق.

مجموعات من الفرسان تسلقت الروابي الخطرة، وانتزعت المدافع.

المعركة قاسية، ومستمرة منذ نحو ساعتين، وصيحات بوفيس المدوية أثارت مجموعات كثيفة من الفرسان التي أغرقت السهل وتوغلت في الطرقات وسيطرت على المرتفعات.

فيرناندو يتابع احتدام المعركة، والتوترالشديد يسيطر عليه. الخيول تقذف بالجثث على الأرض. جسمه يرتجف. ماالذي يمكن أن يفعله رمح ينغرز عميقاً في الصدر!

. إذا انتصر بوفيس، ستضيع الجمهورية.

إنه يعرف ذلك، لكنه لا يستطيع أن ينخرط في المعركة، شيء ما يمسك به ويمنعه من التحرك. عبثاً يحاول أن يقتنع. إنه يكرر، وبإصرار: "ما همّني أن أموت؟".

إلى جواره، توقف أحدهم على حصان ضخم، وجهه بلون التبغ، قبعته غارقة حتى عينيه. نظر فيرناندو إليه مواربة. شاهده يترجل. بحث بين الموتى، واستل، إضافة إلى الرمح الذي كان بحوزته، رمحاً آخر. عاد إلى امتطاء حصانه، قذف بقبعته إلى الأرض، رسم إشارة الصليب، عض بأسنانه على اللجام، وأمسك برمح في كل يد، وانطلق بحركة عنيفة باتجاه ساحة الاشتباك.

رآه يبتعد، ثم يخترق إعصاراً كثيفاً من الفرسان.

نفد صبر بوفيس.

أمر، بصورة حاسمة:

. فليهجم الجميع!

تناقلت الأمر كل الأفواه، وتحركت مجاميع كبيرة. ملأ الفضاءَ رعد الحوافر. انخرط حملة الرماح، الذين كان يعذبهم الانتظار، في قلب الدوامة الكثيفة، ومن البعيد، كان المشهد مثيراً: جزر بشرية تحمل غابات من الرماح.

أحسّ فيرناندو بأن أمراً وشيك الحدوث، ولا يمكن تفاديه. وكأنما ذلك الرجل الذي انطلق من جانبه قد جذبه بصورة غير مرئية، وكأنما أقنعة الهنود الغريبة والمدماة تطارده.

شاهد أعداداً هائلة من الفرسان تخترق الفتيان الذين كانوا يتدربون، فتكتسحهم بصدور الأحصنة وتمزقهم بأسنة رماحها الحديدية المدببة، وتسحقهم تحت القوائم. أجساد ناحلة تطير في الهواء لتتساقط على الأرض جثثاً متناثرة.

أثار فيه ما رآه كل الهواجس. إنه هو، بنفسه، الذي انطلق بحصانه، انطلق نحو هذه المجزرة المأساوية.

كان يشاهد المعركة دون أن يدرك كم أنه قد أصبح في داخلها، في قلبها.

كان يزداد اقتراباً لحظة بعد أخرى. إنه يمضي مقترباً بصورة لا مجال فيها للتراجع. لقد جاء دوره.

كانت القوات الملكية تمضي في الهجوم بصورة متماسكة. وبوفيس، شخصياً، فوق حصانه الأسود، انطلق أيضاً للهجوم.

بوفيس يهاجم. لقد انتقل شيئاً فشيئاً من السير إلى الهرولة، ومن الهرولة إلى الجري. وإلى جانب عرف حصانه، كان بريق رمحه يدل عليه. ومن ورائه، ملأ الجوَّ غبارُ الحوافر، جموع مديدة لا متناهية من الأحصنة المتوثبة.

والأوامر تنتقل من فم إلى آخر:

. الجميع إلى الهجوم!

. الجميع إلى الهجوم!

لم يتبقّ هناك ما هو ساكن، حتى ولا الأرض نفسها، ولا الأشجار، ولا الهواء. كان كل شيء يهتز، كل شيء يغلي، حتى الرايات مزّقت نسيجَها الرياح.

المذبحة غاضبة وحانقة. انصهرت جموع الفرسان مع الرماح، مثل الطيور الخرقاء التي تنطلق مدافعة بصدورها. كانت الصرخات تملأ أرجاء المعركة.

لم يعد هناك بشر، أصبح كل واحد مجرد أداة قاتلة تعرف كيف تدمّر، تريد أن تدمّر، لا تتنفس إلا من أجل أن تدمّر.

لم تعد العيون، جميع العيون، ترى أية كائنات بشرية، بل أذرعاً مع رماح، أذرعاً حمراً برماح حمر.

لم يعد يُرى من الأحصنة سوى الأذنين المنتصبتين تخفقان فوق القوائم المتوترة، الأذنين المشرئبتين كالرمح.

ضاع الوعي بالأشياء، بالشكل، باللون، لم تعد العيون الغاضبة ترى غير العيون القاسية والمرعبة، والنظرات القاتلة مع التماع الرماح وانقضاضها. وتحت غابات الرماح الكثيفة، عيون زجاجية للموتى، عيون من الزيت للأحصنة، عينان واخزتان للرجل القادم، الذي يستطيع أن يطعن بالنظرة أو بالسلاح، عيون لا تغمض لأن المعركة أطفأتها، عيون الفتيان المتدربين التي أسكرها الدم والموت، عينان ذات لون فاتح لبوفيس، بريقٌ شرير، وابل من البريق، عيون، عيون ورماح، فوق أمواج الفرسان العاصفة. التماع في الرمح، في الكفل، في الحدقة، التماع من جميع الألوان، في الصرخات التي لا معنى لها.

. الجميع إلى الهجوم!

انطلقت الصرخة جارفة لتبلغ الجميع، في جميع الأرجاء، وصلت إلى أقاصي المنطقة.

تقدم فيرناندو، أصبح وسط الصخب المجنون القاتل. كان بإمكانه البقاء بعيداً،

مرتاحاً. وجد نفسه في أتون ذلك الاحتدام الذي لا يمكن إيقافه، بلا إرادة منه، ومن غير أن يبحث عنه. الحرب شيء قبيح وغير مقبول. كان مقبض السلاح في يده ثقيل الوزن وجسماً غريباً يزعجه. إنه ينفر منه. كان بإمكانه الاستمرار في حياته بكل هدوء وراحة. والآن. أصبح كل شيء مجرد حلم سيّئ. الاحتجاجات في قبو معصرة قصب السكر. بيرناردو. الكابيتان دافيد. إينيس. بيرناردو! بيرناردو! ماذا حدث؟ أين أنتم؟

ها هو الآن قد أصبح قريباً، ها هو قد أصبح داخل المعركة. كان يكفيه أن يشعر به أيٌ من هؤلاء الرجال، أن يأتي إليه أيٌ من هؤلاء الفرسان. كان يرى المعركة كمشهد أشباح بلا أية أصوات.

. الجميع إلى القتال!

أصدرالكولونيل ثامبرانو أوامره الى رجاله، أما بريسينتاثيون كامبوس، فخاطب جماعته:

. نيكولاس، ثيريلو، ناتيفيداد، يا شباب! هيا!!.

وبينما كان رجاله ينطلقون فوق أحصنتهم، شدّ هو لجام حصانه فأوقفه على قائمتين، وانتزع قميصه فانعكست أشعة الشمس على جسمه البرونزي العاري من خصره وحتى شعر رأسه.

شهر رمحه وهو يثب على حصانه مثل رجل مجنون، أو قاطع طريق ممسوس. وصرخ بصوت رهيب:

. الآن سوف ترون كيف يقاتل البطل!!!!

نزل بحصانه حتى لامس صدرُ الحصان الأرض، في حركة تتجاوز المعقول، ثم انطلق باتجاه المعركة. أصبحت عيناه تريان، مع اقترابه المضطرد، وكأن أشكال المقاتلين تكبر وتكبر. انحنى بجسمه فوق رقبة الحصان. أحجامهم تكبر. إنهم قادمون نحوه. إنهم يدخلون في عينيه. ذاك المقاتل الذي يتقدم منفرداً وقد اندفع إلى ملاقاته،

إنه يكبر إلى درجة لم يعد معها يرى منه غير العينين ورأس الرمح المدبب.

شعر بأنه وخصمه سيتقطعان إرباً باصطدامهما. ها هما سيتصادمان. شدد قبضته على الرمح، ثم انعطف بحصانه بحركة سريعة متجهاً بهجومه في الاتجاه المعاكس ليوجه طعنته إلى فارس آخر حاول الانقضاض عليه من الخلف.

في مواجهة بريسينتاثيون كامبوس كانت هناك رماح، رماح وأحصنة. فرسان من الأمام، فرسان من الخلف، فرسان في مختلف الاتجاهات. فرسان إلى جوار بوفيس ووراء بوفيس....و...فرسان في مواجهة فيرناندو.

أي غباء هذا في أن يموت بضربة رمح من أحد أولئك الأبالسة! لماذا كان يحارب؟ ربما كانت لهؤلاء الناس من حوله حقيقة أكثر وضوحاً. سمع صوت صرخات وارتطام جسد على الأرض. هناك، بين قوائم حصان، رجل ينزف وقد داسته حوافر الحصان، رآه ينظر مذعوراً، نظرة لم تعد إنسانية، نظرة تختزل كل الصرخات التي ماتت على فمه الصامت. هذه هي الحرب. شعر فيرناندو بأنه منهك. إنهم يحيطون به، الرماح الشرهة قادمة إليه. ما زال أمامه وقت للهرب وإنقاذ نفسه، ما زال أمامه وقت للتراجع، ما زال هناك وقت. ثلاثة رجال على أحصنتهم في طريقهم إليه. ما زال بإمكانه الهرب. ما زال بإمكانه... لا، لم يعد بإمكانه الهرب. لقد تمكنت منه الرماح. لكن ما كان أشد قوة وقسوة من الرماح ومن قعقعة الحوافر، هو صدى كان يعصف في أعماقه، يخرج منه، يحيط به، صارخاً في كل الجهات: "المواطن فونتا، أنت أخونا".

ثلاثة رجال فوق أحصنتهم انقضّوا عليه. ثلاثة رماح انقضت عليه. رماح ووجوه مرعبة. يا أرض الوطن. أغمض عينيه وترك سلاحه يسقط. إحساس بارد، كالثلج، في حنجرته، وارتطام السقوط، لكنْ، وكأنه سقوط جسد آخر. حاول أن يقول شيئاً. دفقة دم أغرقت كلماته. ثلاثة رجال فوق أحصنتهم مرّوا فوق الجثة.

المعركة تتصاعد ثانية بعد ثانية. قوات كثيفة على امتداد ساحة القتال تتنقل في

تحركها المدمّر من طرف إلى آخر فتوقع ضربات مدوّية. قصف المدفعية يتواتر مع النبض. ومن أعماق الوادي، أحصنة بلا فرسان تنطلق ضائعة متشتتة مذعورة. وبين حين وآخر تتردد في الأجواء أصداء أصوات الأبواق.

ومن جديد انصب الهجوم على المدينة. دخلت فصائل الفرسان إلى الطرقات بعنف لا يرحم، مع تواصل إطلاق النار من البيوت.

كان بريسينتاثيون كامبوس يقفز بحصانه من مكان إلى آخر، متحدياً مستعرضاً قوته ومهاراته، موجهاً سلاحه نحو أي ظل يمر بجانبه. وبذراعه الحديدية تفادى صدمة هائلة من جسم كان مندفعاً إليه مع رمح التمع بين عينيه؛ ارتمى بجسده إلى أحد الجانبين، ولم تصبه الطعنة بأكثر من جرح بسيط.

شعر بأنه يمتلئ حياة كما لم يحدث معه من قبل على الإطلاق. اشتدت عزيمته وازداد اندفاعه. أحس، والسلاح في يده، أن الحياة تغلي في عروقه. تعمقت ثقته بقوته: إنه صلب، جريء، مقدام. الدم غطىّ ظهر الحصان، مثلما اصطبغت ذراع فارسه باللون الأحمر.

الأرض للرجال الذين يحاربون من أجلها.

بدأت شدة القتال تتراجع. ومع أن أصوات الصدامات كانت ما تزال تسمع هنا وهناك، لكن الهجوم أصبح أقل حدة. وبدا أن حشود الملكيين قد فقدت الكثير من قوّتها وقدراتها.

أصبح بوفيس، تحت ظل رايته الحمراء، جريحاً هو الآخر. ومثلما كان صوته المجلجل يطلق الهجمات المتوحشة، فقد أصبح دمه الذي ينسكب الآن مبشّراً بإطفاء نار القتال.

لم يعد بوفيس فوق حصانه، ولم يعد رمحه المدمّر في يده، ولم يعد ظله يخيم على حشود الفرسان، ولم تعد عيناه تثيران اندفاعهم، والراية الحمراء بدأت تتكفىء وتنطوي.

جميعهم رأوا ذلك، جميعهم سمعوا ذلك، لم يعد بوفيس معهم.

أحبطت البلبلةُ الهجوم، سيطرت عليه وغيّرت في مساره. تراجعوا، وتفرقوا إلى مجموعات صغيرة تجري وهي تصرخ بجنون:

. بوفيس جريح!! بوفيس جريح!!

حتى بُحَّت أصواتهم مع بلوغهم الطرف الآخر من أرض المعركة.

شعر بريسينتاثيون كامبوس أنه مطوق بالصرخات وبالغموض. سمع أصوات أولئك الذين سقطوا جرحى، والذين كانوا يفرون، صائحين، لا يبصرون شيئاً. كان يسمع، لكنه استمر يطعن كل من يصادفه في طريقه، لا يتعب، ولا يتصور أن ذلك الذي بدأ يمكن له أن ينتهي، ستنقضي السنوات وهو يقطّع أوصال الأعداء بكل همة وإصرار.

مجموعات بكاملها انسحبت هاربة. قوات الجمهوريين تنتقل باتجاه الانتصار. لكن بريسينتاثيون كامبوس لم يكن لديه بصر يرى به هؤلاء الذين يفرون ولا بصيرة يدرك بها الهزيمة: بالنسبة إليه هناك فقط أولئك الذين يقفون أمام هيجانه المدمّر.

انسحب معظم الملكيين، ولم يتبقّ منهم سوى مجموعة صغيرة تواصل القتال في السهل، وبدأ الهدوء يسيطر، ليحل محل احتدام المعارك.

لكن، ومع ذلك، فقد استمر بريسينتاثيون كامبوس في جنون عظمته، وفي تعطشه للقتل، يريد أن يضرب برمحه دون كلل.

انطلق ملاحِقاً أحد حملة الرماح حتى بلغ مشارف المدينة. وجد أمامه مجموعة من الرجال المسلحين بالبنادق. ومثلما فعل عندما أعطى أمره بالهجوم، كان عارياً حتى خصره، وفي قبضته رمحه. ومثلما فعل عندما أعطى أمره بالهجوم، جعل حصانه يشبّ، ثم اندفع به باتجاه المجموعة.

سدد الجنود بنادقهم إليه، ومثل طلقة واحدة، أفرغوا طلقات عشر. دار الحصان

حول نفسه وهو يسقط، أما الفارس فقد انطرح أرضاً في منتصف الشارع، دون حراك، وقبضته تطبق على رمحه.

كانت صرخات أحد الأبواق تملأ الأجواء.

يحيط به ما يشبه اصطخاب أمواج، كما لو كان عند شاطئ بحر، كما لو أنه قد خرج من أعماق البحر إلى اليابسة.

تبدّلت الأمور مع انتقاله إلى هناك. بدأ يستطيع تمييز الأصوات، لكنها مختلطة بمزيج كثيف من الضجيج. أحدهم، بالقرب منه، قال شيئاً، لم يتمكن من فهمه. آخر أكثر قرباً أعاد ما قيل، وثالث، أكثر وأكثر قرباً، إلا أنه لم يتمكن من أن يفهم شيئاً.

أخيراً، وكما لو أنهم كانوا يتحدثون في أذنه، تبين له بوضوح معنى الكلمات:

. بوليفار، قادم.

من خلال هدير البحر سمع العديد من الأصوات، التي اتضحت له معانيها شيئا فشيئا مع كثرة تردادها:

. لن نتابع التحرك.

. الجنرال بوليفار قادم.

. بوليفار قادم.

. المحرّر قادم.

كانت هناك كلمة واحدة تُسمع بصورة أكثر وضوحاً من غيرها: بوليفار. وبجهد هائل، وكمن يريد أن يرفع ثوراً، فتح عينيه. بهره النور.

كان ما يزال هو نفسه، بريسينتاثيون كامبوس. لكنه لم يعد يمتطي حصانه. والرمح؟ بحث عن الرمح، لكنّ تحركه أثار لديه آلاماً هائلة. كان جريحاً.

كان مستلقياً فوق سرير معلّق مثل أي جريح. وبعيداً عن السرير شاهد كتفاً قويةً

لجندي، مع طرف ظاهر للعصا التي كان يحملها. ومن ورائه جنود آخرون، بعضهم فوق أحصنة، وبعض آخر على أقدامهم، مع أسلحتهم، ووسط هؤلاء مجموعة من الرجال، وجوههم مخيفة، وغير مسلحين. لم يتمكن من رؤية من كانوا في الخلف، إذ تعذر عليه أن يستدير برأسه. وبعيداً عن الجنود، حقل أخضر، وفي العمق بعض التلال الزرق.

لم يستطع معرفة المكان الذي هو فيه، ولا مع من. كان يستعيد في ذاكرته وجوده فوق حصانه في المعركة، ممسكاً برمحه، ثم لحظة اندفاعه باتجاه مجموعة من الرجال. تذكّر أنه قد وقع. ثم لا شيء.

إنهم يتحدثون هنا عن بوليفار. لم يكن يسمع صرخات، ولا طلقات. إنه جريح، ولا بد أنه سجين. أراد أن يصرخ، وأن ينهض، وأن يهرب. حاول أن يتحرك، لكنّ شدة الألم أفقدته وعيه من جديد.

... الرائحة الآن لا تطاق. رائحة قماش قديم عَفِن، رائحة كهف، وهواء فاسد. أحس تحت يده برطوبة الأرض وبرودتها. فتح عينيه.

كان في مكان شبه مظلم. وعبر النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية يتسرّب بعض الضوء، كما كان يُرى بعضٌ من غصن شجرة. كان وحيداً. ظن أنه ما زال بين نفس الأشخاص، لكنه كان وحيداً. بدأت تختلط لديه هبّات متناثرة من الذاكرة.

كان هو نفسه بريسينتاثيون كامبوس. كان ملقى به على الأرض الرطبة. "لاكارباخالا"، هل أنتِ هناك؟ كل شيء صامت. ومع أن جروحه كانت تؤلمه بصورة شديدة، فقد استطاع التلفظ ببعض الكلمات. "لاكارباخالا"!؛ كانت العتمة تغمر زوايا المكان، الذي تعشش فيه رائحة كريهة جداً. "لاكارباخالا"!!؛ كانت دائماً عند أسفل السرير. كانت امرأة جيدة. كانت ستنادي الكولونيل ثامبرانو. "لاكارباخالا"!!!

بوليفار قادم! من الذي قال هذا؟ تذكّر أنه قد سمع ذلك. تذكّر السرير المعلق،

الطريق. قادم. سيراه. الرجل الذي بسببه تقوم الحرب. الذي تقوم الحرب ضده. الذي ستتم هزيمته. ربما يكون قد هُزم فعلاً. ربما أنه آت كسجين. سجين!

لكنه هو الذي كان سجيناً. سجين وجريح. في ذلك الكهف. ومَن سَجَنه هم المتمردون. الآن سيقتلونه. سيقتلونه ولن يكون بإمكانه بعد اليوم العودة إلى الحرب. الرائحة الكريهة تمعن في إزعاجه. رائحة نتنة مقرفة، رائحة حظيرة نوم العبيد، رائحة أجساد مترهلة ونتنة. تذكر الـ"آلتار" عندما كان يمر بالقرب من باب سكن العبيد.

عندما كان يمر بالقرب من باب سكن العبيد في الـ"آلتار" كانت تفوح الرائحة نفسها. وكان منخفضاً، وواسعاً، ومظلماً، نفس الشيء. وله كوة صغيرة. لربما أنه الآن فعلاً هناك، في المزرعة. أمعن النظر، وتفحّص المكان، كانت الجدران نفسها، السقف نفسه. لقد كان في مقر سكن العبيد في الـ"آلتار". كان مرمياً على الأرض، مثل عبد. يملؤه القنوط.

عبر النافذة الصغيرة في الـ"آلتار" كان يدخل بعض الضوء ويظهر غصن شجرة. نفس الضوء الذي ينير في الخارج معصرة قصب السكر والحقول، والمساحات الخضر، والأنقاض السود للبيت المحترق.

. عبد جبان!

من الذي يتكلم؟ كان على الأرض مثل عبد. كان يشاهد الذراع العارية، البشرة الداكنة مثل الظل، مثل الأرض، البشرة المثخنة بالجراح. الرأس يمتلئ بالضجيج. كل الزنابير، كل النحل هنا في هذا الظل، كل الذباب هنا في هذا الظل، وليست الفراشات، ولا الماء، ولا الأحصنة، ولا صهيل الأحصنة.

. عبد جبان!

آه! دونيا إينيس. إينيس! هو كان ذا بشرة داكنة، لكن إينيس العارية كانت ناصعة البياض. هم كانوا يتوهمون أنهم السادة، لكن السيد كان هو. دونيا إينيس التي كانت تغني أغاني الحب، دون فيرناندو الذي كان يتحدث عن الجمهورية. السيد كان

هو. كان باستطاعته اغتصاب النساء، إحراق البيوت، قتل الرجال. كان رجلاً قوياً. سأكون رجلاً حقيقياً في الحرب، "لاكارباخالا"!.

الملكيون رايتهم حمراء ويصيحون: "عاش الملك"! المتمردون رايتهم صفراء ويصيحون: "عاشت الحرية"! آه، ناتيفيداد!. كانت دونيا إينيس تبكي. بعد كل صرخاتها، كانت تبكي. "لاكارباخالا" كانت تبكي. النساء لا يعرفن سوى أن يبكين.

لكنه كان جريحاً وسجيناً. كان يجب أن يكون في الخارج، حراً، مع رمحه. لقد أمسك به المتمردون. كان يجب أن يكون مستمراً في القتال أمام "لافيكتوريا".

. "إسبيريتو سانتو" أسرِجْ لي الحصان، الحصان الكبير ذا اللون البني.

الحصان الشجاع، الذي اغتسل جيداً، وامتشط جيداً، الحصان الرشيق، مثل امرأة امتشطت جيداً، تأتي رشيقة على ظهر حصان رشيق.

بوليفار قادم. هو أيضاً كان بودّه لو يكون قائداً كبيراً. لقد جرحوه، لقد أخذوه سجيناً. لو كان معافى، لو كانت لديه قوات، لو كان فوق حصانه، لانتهى من بوليفار. ذلك الرجل الذي لم يشاهده على الإطلاق. بوليفار قادم. لقد انتصروا عليه، لقد هزموه.

. أنتم ستكونون ضباطي؛ أنا القائد.

ومضات من رايات صفر وحمر. أرض فنزويلا تضطرم. في كل السهول ينطلق الرجال على أحصنتهم مع رماحهم، في كل الجهات تحترق القرى. كان على الأرض، جريحاً. من البحر، من السهل، كل الأراضي، كل المياه، كل الهواء؛ كان الرجال يقاتلون. اللهب يكبر كما لو أنه يحرق بيتاً، والبيت يكبر مع اللهب كما لو أنه يحرق جبلاً. والجبل......

. الآن سترون كيف يقاتل البطل.

الرمح البارد والذراع العارية. الحصان المجنون تحت رجلين قويتين. الآن هو

ممدد على الأرض الرطبة. "لاكارباخالا"! "لاكارباخالا"!!!

الرجال العشرة عند مدخل المدينة. ما يزال يسمع صوت المدافع. الجو مليء بالأصوات، بالضجيج، بالذكريات، يُسمع صوت طبل رقيق مثل مطر خفيف، صوت طبل يدخل من النافذة الصغيرة مع الشمس.

صوت طبل يقترب، يقترب كثيراً ليهز الأشياء. أصوات إصدار أوامر، حركة وخبب خيول، وكلها كانت تتصهر في صوت الطبل.

شعر وكأنه سيغمى عليه من الضعف. كانت جروحه تسبب له ألماً لا يطاق. لو أنه يموت. لا، لا يريد أن يموت. كيف يستطيع إذن أن يذهب إلى الحرب، وأن يستخدم قوته، وأن يصبح قائداً، إن مات مثل أي جندي بسيط مسكين في قبو العبيد هذا. لقد خُلق كي يمضي إلى الحرب مع الشمس. "لاكارباخالا"! خلال ثلاث معارك سأكون قائداً.

دونيا إينيس تصرخ، تصرخ، تصرخ كثيراً. البيت بدأ يحترق. في الخارج، على الأرض، هناك زنجي ميت بطعنة في رقبته.

. عبد جبان!

"لاكارباخالا" لم تقل له الحقيقة. كانت امرأة لرجال آخرين عديدين، وقد بقيت معه بسبب الخوف. الآن هي في انتظاره. هو ذاهب إلى الموت. وهي في انتظاره.

بوليفار قادم! كم يكرهه! بسببه يكاد الآن يمضي إلى الموت. يريد أن يراه. لو أنه يسترد قواه، لو أن باستطاعته أن يهرب ويقتله......

في الخارج، يطغى صوت الطبل على جميع الأصوات. ومن بعيد تأتي أصوات، بدأت تعلو وتتزايد. أصبحت الآن أكثر وضوحاً.

شعر وكأن هناك استعراضاً للفرسان.

الحرب. لم يعد بإمكانه بعد الآن الذهاب إلى الحرب. أصبح الآن عاجزاً عن

ذلك. الحرب هي من أجل كسب الأراضي والسيطرة على المدن. الحرب هي ضد المتمردين، الذين سيتم تدميرهم. الحرب ضد بوليفار. بوليفار قادم.

كان هذيانه في تلك العتمة يغرقه في سيل من الصور الخاطفة. دون فيرناندو. سيده دون فيرناندو يضحك له ضحكة بلهاء، والكابيتان دافيد مع مسدس ذي قبضة مرصعة بالأصداف. لم يعد بإمكانهما أن يفعلا شيئاً ضده. رجال آخرون هم الذين قاتلوه وهزموه. الأخبار سيئة. دون فيرناندو خائف. الحرب هي الموت. دون فيرناندو خائف. بالأمس ذُبح ثمانمائة إسباني. دون فيرناندو يتصبب عرقاً من الخوف.

هناك، بعيداً، بوفيس فوق حصانه. رجل مقدام. بوليفار فوق حصانه. هو لم يشاهده على الإطلاق. مجموعة متماسكة من الفرسان تقف في المواجهة. ناتيفيداد! ثيريلو! هيا! إلى الهجوم!

بعضهم يقاتل من أجل المَلِك، وآخرون من أجل الاستقلال. الوطن مثل النساء. الطبل يعصف في الفضاء. إنها أربعة، إنها عشرة، إنها عشرون طبلاً تضرب بصورة مرعبة. صوت ترتعش له الأبدان. الدم يثور مجنوناً في أعماق الجسد. البشرة الداكنة مثل الظل، مثل الأرض. نتنون هم العبيد، تفو!، نتنون ذوو أجساد نتنة، على أرض نتنة، مع حيوانات نتنة، مياههم نتنة من أرض نتنة، من عشب نتن، يومهم نتن، حربهم نتنة، حاجاتهم نتنة، نتنة، نتنة، نتنة مثل العبيد.

أصوات واضحة تأتي من النافذة الضيقة ويضج صداها في الداخل.

. يحيا المحرر!

قادم. يشعر بريسينتاثيون كامبوس بأنه قد وصل، وأنه، بين لحظة وأخرى، سيمر بالقرب منه، على الجانب الآخر من الجدار. قشعريرة تسري في كل شرايينه وأعصابه.

كل الأصوات، كل الطبول، كل حوافر الخيول:

. يحيا المحرر!!!!

قادم. ذلك الرجل الذي يسيطر على تفكيره. الذي يسيطر على تفكير فنزويلا. لقد وصل. سيمر بالقرب منه. يمكنه أن يراه وهو يمر فوق حصانه. سيبذل مزيداً من الجهد ليرى وجهه عبر قضبان النافذة الصغيرة.

الجلبة تغمر الجدران، السقف، العتمة، وترهق هذيانات الجريح. أحس حرارة في دمه، وحرارة في العتمة، وحرارة في الأرض. مر ما يشبه أسراباً كثيفة من الأجنحة، كان كل شيء يهتز. أدرك أن أمراً سيقع ولن يحدث إلا مرة واحدة في حياته. في الخارج، الأصوات تزداد احتداماً وتقترب، إن حدثاً أصبح على وشك الوقوع. ضجت الأصوات بجانب الجدار، وكأنها ستنفجر فوق النافذة.

. يحيا المحرر!!!!

تلك هي اللحظة. أحس بوصوله. لقد وصل. إنه يمر بجانبه في تلك اللحظة. مع كتلة من الرجال مع رماحهم. راح يحاول النهوض. اخترقه الألم. حاول أن يرتفع بجسمه ولو قليلاً. بدا له وكأنه يطير بين الصيحات. إنه يكاد يصل. سيراه. شخصياً. إنه. إنه يصل. وأخيراً، الآن، أخيراً!

. يحيا المحرر!!!!

كانت الصيحات تدوّي كما لو أنها تدوّي في داخله. ستراه عيناه. الآن سترون كيف يقاتل البطل! الآن يجلس القرفصاء على الأرض. استجمع بقايا قواه، استطاع أن ينهض قليلاً، إنه متعب جداً، استند بيده الشاحبة كرأس أفعى إلى أن تمكنت أصابعه المرتعشة من الإمساك بصعوبة بقضبان النافذة. غسلت أشعة الضوء الشحيحة مخالبه الملتفة حول قطع الحديد. ها قد وصلت أصابعه. تابع بذل ما يستطيع مع صبر على الألم لا حدود له. ارتفع. بقيت أمامه دفعة بسيطة أخرى. كل الطبول تصدح في الفضاء في دوامة مجنونة. الصيحات تحفر الأرض.

إنه يصل. يصل. سيراه. كل الطبول وكل الصيحات تحلّق. إنه هناك. عيناه

الآن تلامسان حدود النافذة. لا. ليس بعد! برد قارس عصف به فجأة. القبو يطفح بألوان تحوّم في المكان. دون فيرناندو! دونيا إينيس!. الطبول سقطت عنده في الداخل. "لاكارباخالا"!!! إنه يكاد يصل. برد هائل غرز الألم في أعماق الجروح.

الجميع إلى الهجوم!

كان ما يزال هو بريسينتاثيون كامبوس.

الجميع إلى الهجوم!

وشيئاً فشيئاً،.. راحت يده تنزلق عن قضبان النافذة. ثم سقط منهاراً فوق الأرض الرطبة، سقط جسده الثقيل الميت.

(باريس، ١٩٣٠)